

ملف خاص

عن الإمام الصادق عليه السلام

رسالة القلم

إسلامية ثقافية شاملة



٢٢

السنة السادسة - العدد الثاني والعشرون - ربيع الثاني ١٤٣١هـ - مارس ٢٠١٠م

اقرأ في هذا المصعد

- ◆ مع الصادق عليه السلام .. في حوار مع أ. عبد الباقي الجزائري
- ◆ بين يدي الصادق عليه السلام
- ◆ الإمام الصادق عليه السلام وأصحاب المذاهب
- ◆ صادقنا عليه السلام مدرستنا
- ◆ ابن أبي الحديد بين الاعتزال والتشيع
- ◆ رجال البحرين (خير أهل المشرق) (القسم الثاني)

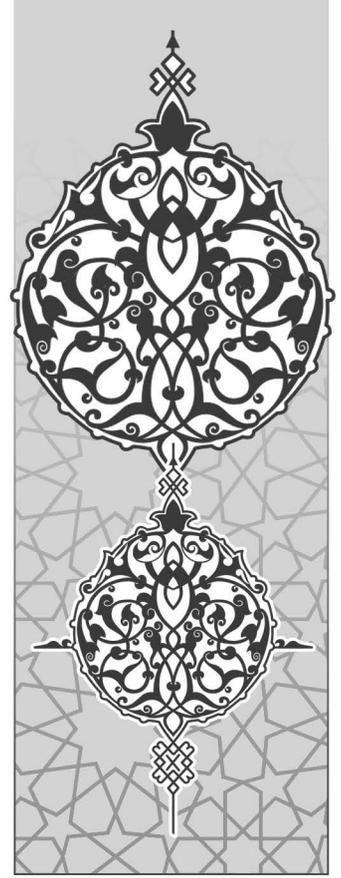
Resalat Alqalam

رسالة القلم

إسلامية ثقافية شاملة

فصلية تصدر عن
طلاب البحرين في الحوزة العلمية
بمدينة قم المقدسة

برعاية
مكتب البيان للمراجعات الدينية



■ المشرف العام والمدير المسؤول:

عبد الله علي الدقاق

■ رئيس التحرير:

عزيز حسن سلمان

■ مدير التحرير:

عبد الرؤوف حسن الربيع

■ هيئة التحرير:

حسين علي أبو رويس

غازي عبد الحسن إبراهيم

محمد علي خاتم



- ٤ مع الصادق عليه السلام في مدرسته
في حوار مع الأستاذ عبد الباقي الجزائري
- ١٦ بين يدي الصادق عليه السلام
عيسى جاسم القفاص
- ٢٥ الإمام الصادق عليه السلام وأصحاب المذاهب
عزيز حسن سلمان
- ٣٨ صادقنا عليه السلام مدرستنا
قصي الشيخ علي العربي
- ٧١ بحث حول نشأة التشيع
صادق جعفر علي اللواتي
- ٨٠ ابن أبي الحديد بين الإعتزال والتشيع
حسن عبدالله القصاب
- ١٠٠ بحث في التوسل
أحمد محمود اللواتي
- ١٢١ رجال البحرين (خير أهل المشرق) (القسم الثاني)
محمد علي العربي
- ١٤٠ العرف ودوره في استنباط الحكم الشرعي (القسم الثاني)
عادل عبد الحسين الهنان
- ١٦٠ حجية ظواهر القرآن عند صاحب الحدائق
سعيد جعفر حماد
- ١٨٤ مسألتان في القضاء عن الميت
علي فاضل الصدي
- ١٩٤ تعريف... دار السيدة رقية عليها السلام للقرآن الكريم

فلنركب سفينة النجاة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ، اللّٰهُمَّ صَلِّ عَلٰی مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ.

في البحر الهدّار، والموج المتلاطم، والريح العاتية، ينشدُّ قلبُ الغريقِ إلى منجٍ، ويهفو إلى منقذٍ، ويبحثُ عن وسيلةٍ ناجعة، ويتشبثُ بالقشة، وهو مع كلِّ ذلك قد استولى عليه الهلعُ والاضطرابُ، وأمّا الراكب للسفينة المنجية، فقد استوى عنده البحرُ والبرُّ، لا يروعه شيءٌ، ولا يشغله شيءٌ، مطمئنُّ النفس، مرتاحُ البال، والعاقلُ لا يدخلُ ذلك البحرَ إلا بمثلِ تلك السفينة، فإذا ما كان في تلك السفينة احتمالُ الفرقِ لضعفها أعرضَ عنها، وركبَ السفينةَ التي لا يشكُّ في صلابتها وتحملها.

كلُّ هذا في بحرٍ من الماء، فكيف إذا كان البحرُ من النيران! وتلاطمت أمواجُ الفتن والأهواء، وعتت المذاهبُ الفاسدة، وكان قائدُ سفينةِ النجاة ينادي بأعلى صوته: «منزلةُ أهلِ بيتي فيكم كسفينةِ نوحٍ، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق، تعلموا من عالمِ أهلِ بيتي، ومن تعلم من عالمِ أهلِ بيتي نجا».

وَمِنْ عِلْمَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْ وُلِدَ فِي يَوْمِ مَوْلَدِهِ، وَلَقِبَهُ بِلِقْبِهِ، لِيَقُولَ لِلنَّاسِ: "قَدْ بَعَثَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ثَانِيًا، فَإِنْ شِئْتُمْ النِّجَاةَ مِنَ الْفِرْقِ فِي بَحْرِ الْأَهْوَاءِ وَالْفِتَنِ، فَهَذِهِ سَفِينَةٌ نَجَاةٍ فَارْكَبُوهَا"، فَتَعَالَوْا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، وَلنركب سفينةَ النجاة.

رئيس التحرير

مع الصالح، عليه السلام في مدرسته

في حوار مع الأستاذ عبد الباقي الجزائري

حاوره: جعفر سلمان طوق

نبذة مختصرة عن الأستاذ

هو ولد الأستاذ عبد الباقي قرنه في الجزائر سنة ١٩٥٧ ميلادي، وكان على المذهب المالكي، وفي سنة ١٩٨٦ - وبسبب حادثة^(١) - بدأ بالبحث عن مذهب أهل البيت عليهم السلام وحقانيته، حتى وفقه الله تعالى للدخول فيه عن عقيدة راسخة، وقلب مطمئن، وبدأ نشاطه في الدفاع عن المذهب الحق. ومن نشاطاته في التلفزيون إدارة برنامج (حقائق من التاريخ) على قناة الكوثر.

من مؤلفاته: (قراءة في سلوك الصحابة) طبع سنة ٢٠٠٤، و(حياة معاوية) طبع سنة ٢٠٠٥، و(الذين في قلوبهم مرض) طبع سنة ٢٠٠٦، و(الوهمي والحقيقي في سيرة عمر بن الخطاب) طبع سنة ٢٠٠٧. و(المغيرة بن شعبة) تحت الطبع.

❖ ما هي الخصائص العامة التي تميز مدرسة أهل البيت عليهم السلام الفقهية

مقابل مدارس العامة؟

□ بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، في البداية شكراً لمجّلتكم المحترمة على إتاحة هذه الفرصة، كما أحیی قراءها والقائمين عليها.

في الحقيقة لا مجال للمقايسة بين مدرسة أهل البيت عليهم السلام والتيارات الفكرية التي وجدت أيامها وبعدها؛ لأنّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام أسّسها رسول الله صلّى الله عليه وآله

بنفسه، وأخبر الناس بأهميتها، ودعاهم إلى الاقتداء بها، وعَدَّها بالقرآن الكريم؛ فوظيفة المسلمين في كل زمان ومكان أن يقتدوا بهديها ويعملوا بتعاليمها، لا أن ينافسوها.

مدرسة أهل البيت مدرسة اصطفاء ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١)، ومحمد أشرف نبي وآله أشرف آل، وقد ورد تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم في القرآن الكريم. وهذه المدرسة تستمدُّ مددها من السماء، وقد شهد لها رسول الله بالأعلمية حين قال: «ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم». وهذا ما لا يستطيع أن يدعيه أحدٌ سوى آل محمد ﷺ.

ومن خصائص مدرسة أهل البيت ﷺ أيضاً أنها لا تطلب العلم من عند أيِّ كان، لأنَّ العلم الصحيح موجود عندها، ومنها رسول الله ﷺ وهي منه، وفي بيوتها نزل القرآن الكريم وعندها تأويله وناسخه ومنسوخه، ولهذا لم يثبت أن أحد أئمة أهل البيت ﷺ رحل في طلب العلم إلى شيخ أو شيوخ، وعلى خلاف ذلك تماماً رحل النَّاس من كلِّ الأمصار لطلب العلم لدى الإمامين الباقر والصادق ﷺ.

ومن خصائص هذه المدرسة أنها كانت معارضة صامدة في وجه الحاكمين، ولم تلجأ إليهم يوماً من الأيام ولا كانت في خدمتهم، خلافاً لبعض المدارس التي تحالفت مع السلطة من أجل تثبيت مواقعها، واحتضنتها هذه الأخيرة، وتفصيل ذلك موزعة في كتب التاريخ والسير والتراجم.

ومن خصائص هذه المدرسة أن النص عندها لم يتوقف بوفاة النبي ﷺ حتى تحتاج إلى اجتهادات المجتهدين، وإنما هي امتداد طبيعي للنبي ﷺ، فالإمام لدى مدرسة أهل البيت هو امتداد للنبي ﷺ، يؤخذ منه كما يؤخذ من النبي ﷺ،

والرَّادُّ عليه رادٌّ على النَّبيِّ ﷺ؛ نعم الذي توقَّف بتوقُّف حياة النَّبيِّ ﷺ هو نزولُ القرآن الكريم، أمَّا التَّسديد والإلهام والتَّكُّت في القلب فلم يتوقَّف، ولو توقَّف لما تمَّت الحجَّة في المتشابهات وأمثالها، لأنَّ الحجَّة لا تثبت إلَّا باليقين، ومن كان كلامه مجرد ظنٍّ فإنه لا تقوم به الحجَّة.

ومن خصائص هذه المدرسة أنها تقول بعصمة النَّبيِّ ﷺ والأئمَّة من بعده، وعدَّتهم عدَّة نعباء بني إسرائيل، والاعتقاد بالعصمة يبعث على الطمأنينة وراحة البال، ويريح النفس من الشُّكوك والوساوس.

❖ ما هي أهم المدارس المذهبية في عصر الإمام الصادق عليه السلام؟

□ في بداية عصر الإمام الصادق يمكن الحديث عن تيارات فكرية وُفرق لم تتمايز لديها التوجهات العلمية (فقه وأصول وحديث وسيرة) بعد، فقد كان هناك خوارج ومرجئة ومعتزلة وجبرية ومتصوفة ودهرية، وكان المتحدث الذي يروى ويُروى عنه يخوض في القضايا العقديَّة الكلامية أيضًا، ويدلي برأيه في علم التفسير، فلم تكن العلوم قد تمايزت، وكان الحديث أهم شيء عندهم؛ نعم كانت معالم الرأي والقياس قد بدأت تتشكل وتتضح، وكان أبو حنيفة رائدًا في الرأي والقياس، وكان له أصحاب وأتباع، لكن مدرسته لم تتكامل في حياته، وكذلك الشأن بالنسبة لمالك، وقد عاش كلا الرجلين في عهد الإمام الصادق وأخذوا عنه. وإذا عدنا إلى الفقهاء الذين عاشوا في زمان الإمام الصادق عليه السلام، فإنَّ عددهم لا ينحصر في مالك بن أنس وأبي حنيفة النعمان، لكن متبنياتهم وأفكارهم بادت لأنها لم تُحتضن لا من العامة ولا من الحاكمين. ويمكن القول بأنَّ عصر الإمام الصادق كان عصر تكوُّن المذاهب الفقهية.

❖ ما هي مصادر علم الإمام عليه السلام؟

□ كما سبق أن ذكرت، فإن الإمام المعصوم يختلف عن أهل العلم غير المعصومين من حيثيات كثيرة، أولاها أنه لا يرحل في طلب العلم، ولا يتعلم على أيدي الشيوخ الذين درسواهم بدورهم على شيوخ. الإمام المعصوم غير محبوب عن الحقائق حتى يحتاج إلى أن يدلّه غيره عليها، فهو مسدّد مؤيّد معلّم ملهم محدّث، وأمثاله في القرآن لهم ذكر، فهذا وصيّ سليمان لم يُذكر أنّه كان نبياً، ومع ذلك كان عنده علم من الكتاب، وذاك الرّجل الصالح صاحب موسى في القصة المذكورة في سورة الكهف آتاه الله من العلم اللدنيّ، ولم يذكر صراحة أنه كان نبياً، وقد اتفق المفسرون أنّه كان لموسى عليه الصلاة والسلام وصيّ ولعيسى عليه الصلاة والسلام وصيّ، وهناك حديث في معجم الطبراني ينتهي إسناده إلى سلمان الفارسيّ وأبي سعيد الخدريّ يفيد أنه لكل نبيّ وصيّ، فلا بدّ من وصيّ لنبينا محمد صلّى الله عليه وآله، وبما أن الرّسالة قد خُتمت فلا بدّ من استمرار الوصيّة وإلاّ انتفت إقامه الحجّة، فالإمام المعصوم هو أيضاً وصيّ، قد هيأ الله له من طرق العلم بحيث لا يحتاج إلى أحد ولا تخفى عليه مسألة. وبالتّسببه إلى من لا يعتقدون بإمامته فإنه يجيبهم من القرآن الكريم والأحاديث التي صحت عندهم، ويلزمهم بما ألزموا به أنفسهم.

نعم، نجد الإمام يقول: حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث رسول الله صلّى الله عليه وآله، وحديث رسول الله صلّى الله عليه وآله حديث جبريل، وحديث جبريل حديث الله تعالى، وهذا إسناد ليس له شبيهه. والإمام لا يجتهد كما يجتهد غيره من المقدّمات إلى النتائج؛ لأنّ هذا شأن من يُحتمل فيه الخطأ والاشتباه، والإمام معصوم، فليس لديه مقدّمات ونتائج وتوالٍ، وإمّا عنده علم يرى الأمور كما

هي عليه. وقد كان هذا ظاهراً في سيرة الإمام عليّ عليه السلام. ولو كان الإمام يجيب على طريقة المقدمات والتوالي لأجاب بعد التروّي والتفكّر، ولم يثبت أن إماماً من أئمة أهل البيت عليهم السلام كان يتروّى ويفكّر قبل الإجابة، بل كانت إجاباتهم عليهم السلام على سعتها ودقتها جوامع كلم يستفيد منها الصغير والكبير. وكانوا عليهم السلام عالمين بما عندهم وما عند مخالفيهم ولم يكن كذلك شأن مخالفيهم.

وكان الإمام الباقر عليه السلام يقول لأصحابه ما مضمونه: إذا أخبرتهم الشيء فسلوني من القرآن الكريم. وهذا يعني أن علم أئمة أهل البيت عليهم السلام لم يكن فيه شيء ليس له شاهد من القرآن الكريم

❖ ما هي الظروف التي كان يعيشها الإمام عليه السلام ؟

□ عاش الإمام الصادق عليه السلام في ظل أبيه الإمام الباقر عليه السلام في دولة بني أمية، أدرك من خلافة عبد الملك بن مروان ثلاث سنين، وشهد خلافة الوليد بن عبد الملك (تسع سنين) وخلافة سليمان (ثلاث سنين) وخلافة عمر بن عبد العزيز (سنتين وأشهر) وخلافة يزيد بن عبد الملك (أربع سنوات) وخلافة هشام بن عبد الملك (عشرين سنة) وخلافة يزيد بن الوليد بن يزيد (سنة واحدة) وخلافة يزيد بن الوليد (سنة أشهر) والاضطرابات التي تنالت بعد ذلك في البيت الأموي إلى أن انقرض سنة ١٣٢ على يد العباسيين، وهذه فترة من أحلك الفترات في تاريخ المسلمين، مورس فيها الضغط والأذى ضد أهل البيت وشيعتهم، باستثناء سنتي عمر بن عبد العزيز، لكن الأيام عبست في وجه الأمويين وأدارت لهم ظهر المجن، فانقلب بعضهم على بعض واضطربوا واقتتلوا وآل أمرهم إلى زوال، فكان في ذلك الضعف الذي نالهم فرصة للإمام الصادق أن يفتح بيته لطلاب العلم ويروي حديث

جده صلى الله عليه وآله.

ولأن الدولة العباسية الجديدة كانت بحاجة إلى وقت لترسيخ بنائها والتخلص من بقايا بني أمية فإن الإمام الصادق عليه السلام وجد وقتا للاستمرار في رسالته التعليمية ونشر معارف أهل البيت عليهم السلام، لكن وصول أبي جعفر المنصور الدوانيقي إلى الحكم عجل بتغيير الأجواء وتعكيرها، وجعل الإمام الصادق تحت المراقبة، ومحاوله التضييق عليه مع التظاهر باحترامه، إلى أن اغتاله بالسّم سنة ١٤٨. لقد عاش الإمام ظروفًا صعبة لكنه بحكمته وصلته بالله تعالى تمكن من مماشاتها والتأقلم مع الأحداث والوقائع حتى أدّى ما عليه، ولم يستطع المنصور أن يوقف مسيرته التي بقيت آثارها إلى اليوم، ولا يزال العالم يكتشف الإمام الصادق يوما بعد يوم.

❖ ما هي ملامح جامعة الإمام عليه السلام وأبرز تلامذته؟

□ لو كان الإمام الصادق عليه السلام في أيامنا لصحّ أن يقال عن جامعته إنها جامعة عالمية، وذلك لعدة أسباب:

منها أنها كانت مقصودة من مختلف الأمصار المهمة في ذلك الوقت: الكوفة والبصرة والشام واليمن ومصر.. ومدرسة تكون مقصودة بهذا الشكل، وهي غير ممولة من طرف الدولة، بل معدودة في المعارضة، لا بد أن تحتوي وتتضمن ما لا يوجد لدى غيرها؛ وقد ذكروا أنه عليه السلام كان يكرر كلام جده الإمام علي عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنه لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي»^(٣)، ومحال أن يتحدث غيره بهذا الكلام صادقاً.

ثم إن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام كانت مطلعة على كل العقائد والآراء والأفكار السائدة يومها. وقد اهتم الإمام عليه السلام في مدرسته بمناظرة أهل العقائد الضالة

والآراء المنحرفة، ومواجهة الزنادقة والملحدين بقوة وفضح مدّعياتهم، والتصدي لردّ شبهات أهل الكتاب وكشف أحوال الفرق الشاذة، دون أن يشغله هذا كله عن مواجهة المحكام الظلمة على القدر الذي تسمح به الظروف. ومن أبرز تلامذته الذين كانوا ينشرون فقهه وما اتصل به من العقائد والآراء: حمران بن أعين، وزرارة بن أعين ومؤمن الطاق (محمد بن النعمان) وهشام بن سالم، وقيس الماصر، وهشام بن الحكم الذي كان قد تنقل بين كثير من العقائد والآراء قبل أن يستقر به الأمر عند الإمام عليه السلام، حمزة الطيار، وكثير ممن نهلوا من علم الإمام ووظفوا أنفسهم لنشره. أما الذين رووا حديثه عليه السلام فيعدون بالآلاف. كما أن من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام الذين كانوا يحضرون درسه ولا يأتون به، وخالفوه في كثير من القضايا فيما بعد: مالك بن أنس، وأبو حنيفة النعمان، وقد أصبح كل واحد منهما فيما بعد رئيس مذهب فقهي انتشر في سائر أقطار الأرض.

❖ ما هو دور الإمام عليه السلام في تثبيت النظرية القرآنية الصحيحة (الأمر بين

الأمرين نموذجاً)؟

□ هذه مسألة عقديّة إيمانية جاءت بعد أن كاد الجبر والتفويض يعصفان بعقائد المسلمين إلا من رحم ربك. وقد كان القول بالجبر والتفويض -على حد سواء- يصب في مصلحة الحاكمين، لذلك فإنهم وإن لم يشجعوا على ذلك علناً ومباشرة فإنهم سكتوا عن الدعاة إلى ذلك، وتركوهم يصولون ويجولون، وفي ذلك ما فيه من الخطر على عقائد المسلمين. وبما أن أقوال الإمام علي عليه السلام بهذا الخصوص كانت ممنوعة الذكر في زمن بني أمية، فإنَّ التطرق إلى القضية لم يتح بسهولة إلا عند ضعف الدولة الأموية واشتغال أفرادها بعضهم ببعض في زمن الصادق عليه السلام. ولما كان

القول بالجبر يصبّ في مصلحة الأمويين فإنَّ القائلين به لم يكونوا يخشون أحداً أو يتسترون في كلامهم. كما أن القول بالتفويض أيضاً يتسبب في شبهات حول إرادة الله وقدرته وكونه كل يوم هو في شأن. وللإمام الكاظم عليه السلام قصة في هذا الباب ترفع الشك عن كل متحير في المسألة. قال السيد محمد حسين الطباطبائي في كتابه الشيعة في الإسلام صفحة ١١٥:

”وفي النتيجة، إن مثل هذا الفعل الذي يرتبط بإرادة الله تعالى ضروري، والإنسان أيضاً مختار فيه، أي أن الفعل يعتبر ضرورياً بالنسبة إلى مجموع أجزاء علته، ولكنه اختيار وممكن بالنسبة إلى أحد أجزائه وهو الإنسان. والإمام السادس عليه السلام، يقول: «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين».

والخوض في المسألة أكثر من هذا القدر من شأن المتخصصين.

❖ ما هي أهم المضامين التي جاءت في وصية الإمام الصادق عليه السلام لعنوان

البصري^(٤)؟

□ وصية الإمام لصادق عليه السلام لعنوان البصري، هي في الحقيقة وثيقة تربوية صالحة للصغير والكبير، لو استفاد منها المسلمون في منظوماتهم التربوية لما كان في حياتهم اليوم شيء من هذا الإرهاب الذي جعل أصابع الاتهام تشير إليهم أين ما كانوا. هذه الوصية تذكر الإنسان بما خُلق لأجله، وتحذره من تضييع الوقت فيما لا طائل بعده، وهي على قصرها أشبه بعهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشرم مع ما بين الوصيتين من الاختلاف في الموضوع. فتلك وصية للمريد السالك، وعهد الإمام علي عليه السلام وصية للحاكم الذي يريد أن يحكم بالعدل ويجري الأمور على ما يرضي الله تعالى.

وصية الإمام جعفر بن محمد عليهما السلام لعنوان البصري لم تتضمن الأمر بطلب آلاف الأحاديث وتتبع الناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد، وإنما وجهت الرجل إلى إصلاح جوهره الذي إذا صلح صلح العبد نهائياً، وإذا لم يصلح لم ينفع معه علم الأولين والآخرين. وفي تصوري أن المنظومات الدراسية والتربوية في بلدان المسلمين بحاجة إلى هذه الوصية حاجة الظمان إلى الماء، لأنَّ المعالم التربوية الموجودة فيها لا تتطلب عناءً ولا ميزانية، وهي خطاب مباشر إلى القلب، لا يحجبه عنها شيء، وأروع ما فيها أنها صالحة لكل زمان ومكان، يستوي فيها الملك والسوقة إذا حسُن فهمها وتأكد الصدق في قبول ما فيها والعزم على تطبيقها. وقد كانت خاتمة الوصية رسالة موجهة إلى أهل العلم، يفلح من عمل بها ويخسر من تجاهلها، فقد قال عليه السلام: «وأما اللواتي في العلم: فاسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتاً وتجربة، وإياك أن تعمل برأيك شيئاً، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجرد إليه سبيلاً، واهرب من الفتيا هروبك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً. قم عني يا أبا عبد الله فقد نصحت لك، ولا تفسد علي وردتي، فإني امرؤ ضنين بنفسي، والسلام على من اتبع الهدى».

❖ ماذا نستفيد من وصية الإمام عليه السلام بالصلاة عند فراقه الدنيا؟

□ روى أبو بصير عن أصحاب الإمام قال: دخلت على أم حميدة (زوجة الإمام جعفر الصادق عليه السلام) أعزيتها بأبي عبد الله عليه السلام فبكت وبكيت لبكائها، ثم قالت: يا أبا محمد لو رأيت أبا عبد الله عليه السلام عند الموت لرأيت عجباً، فتح عينيه، ثم قال: «اجمعوا كل من بيني وبينه قرابة». قالت: فما تركنا أحداً إلا جمعناه، فنظر إليهم ثم قال: «إن شفاعتنا لا تنال مستخفاً بالصلاة»⁽⁵⁾.

هذه الرواية لا تحتاج إلى شرح وبيان؛ لأنَّ وضوحها ليس بعده وضوح، وهي

بكلّ اختصار تقيم الحجّة على المستخفين بالصلاة، الذين يطمعون أن يكون حبُّ أهل البيت عليهم السلام شافعاً لهم وإن أهملوا الواجبات، والحقّ من يكون اعتقاده على هذا النحو بعيد جداً عن خطأ ومدرسة أهل البيت عليهم السلام، كما أن دعواه حبُّ أهل البيت مجرد دعوى لا أكثر، إذ أنه لو فكّر وأمعن النظر لتبين له أن أئمة أهل البيت عليهم السلام ضحوا بأنفسهم لأجل إقامة الدين، والصلاة عمود الدين، فكيف يدّعي ولاءهم من جهة، ثم يخرب ما بنوه من جهة أخرى.

لقد كان الإمام علي عليه السلام يصلي صلاة الليل والسهم تمر بين يديه ليلة الهريس، كما أن صلاة الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء لا يزال يرددّها قراء المقتل والخطباء جيلاً بعد جيل، ولقد صلّت زينب سلام الله عليها صلاة الليل من جلوس في نفس الليلة التي قتل فيها الحسين عليه السلام، فكيف يسمح مؤمن عاقل بعد هذا كله أن يستخف بأمر الصلاة؟! أليس زائر الأئمة يقول في زيارته: أشهد أنّك أقمت الصلاة وآتيت الزكاة.. أيكون صادقاً في شهادته هذه إذا كان هو مهملاً لها متهاوناً بها؟ وصية الإمام الصادق عليه السلام حجّة على كل من تساهل وتهاون بأمر الصلاة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الموامش:

(١) في نهاية سنة ١٩٨٦ كان الأستاذ في طريقه إلى الهند ليلتحق بـ (دار العلوم ندوة العلماء) الجامعة الدينية الكبيرة التي اشتهرت بمدرّسين متضلعين في العلوم وحريصين على نفع الطلبة. ولأنّه تعذّر الحصول على التأشيرة عن طريق العواصم الأوروبية بسبب التفجيرات المنسوبة إلى جورج عبد الله يومها فقد تعيّن السفر من الطريق الآخر أي اعتماد مسار. -إيران- باكستان- الهند.

وفي سوريا -وبالضبط في حي السيدة زينب سلام الله عليها- كانت المفاجأة التي غيّرت مجرى حياة الأستاذ عبد الباقي وفتحت أمامه نافذة جديدة للإطلاع على عالم القيم والسعي في مرضاة الله رَبِّهِمْ تَقَرَّ.

كان تصوّر الكاتب لمذهب أهل البيت عليهم السلام حين وصل إلى دمشق هو نفس ما يحمّله كل مخالف لهم يستقي معلوماته عنهم من طرف خصومهم من أمثال ابن تيمية وابن كثير والذهبي... لذلك لم يهتمّ بأمرهم حين رأى آلاف الزوار الإيرانيين يقصدون المراقدة الشريفة، ولم يحاول أن يقرأ عنهم شيئاً من جهتهم، باعتبار أن شيوخ السلف قد كفوه مؤونة ذلك، ولم يكن يهتمّ بالبحث في هذا الموضوع لأنه كان أشبه بتحصيل الحاصل. وتعرّف -في انتظار الحصول على التأشيرة- على شباب من الجامعيين من المغرب العربي وكان من بينهم شيعة دار بينه وبينهم حديث في المذاهب الإسلامية لم يصل إلى نتيجة. وذات مساء لمحت عيناه في إحدى المكتبات كتاباً أحسنّ بالانجذاب إليه والظاهر أن سرّ الانجذاب يكمن في أن عنوان الكتاب كان له صلة بالنقاش الذي جرى بينه وبين الطلبة، إضافة إلى روح التسامح التي انطوى عليها العنوان قياساً بالعناوين التي يختارها ابن تيمية ومن على خطّه. كان عنوان الكتاب "الإمام الصادق والمذاهب الأربعة" للمرحوم أسد حيدر. وأخذ الأستاذ عبد الباقي الكتاب وشرع في تصفّحه.

يبدأ المرحوم أسد حيدر كتابه بذكر سبب التّأليف، والسبب باختصار هو أنّه وجد في تاريخ ابن خلدون عبارة يتأذى لسماعها كلُّ صاحب ضمير، لأنّها تعبّر عن سلوك عدائي قبال من أمر المسلمون بحبّتهم ومودّتهم والصلاة عليهم في كل نافلة و فريضة. فابن خلدون يقول: "وشدّ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصّحابة بالقدح وعلى قولهم بعصمة الأئمّة ورفع الخلاف عن أقوالهم وهي كلها أصول واهية" ويردّ أسد حيدر رحمه الله على ابن خلدون بكتاب في ثلاثة مجلّدات، يفنّد فيها زعمه ويستشهد بما لا يدفعه إلا مكابر. كان الأستاذ عبد الباقي حين قراءة الكتاب على مذهب مالك، كما هو شأن جميع أبناء المغرب العربي، وابن خلدون من فقهاء المالكية، وقد كان قاضي قضاة في زمانه ومات وهو على القضاء، ولكن، هل هذا يخوّل له أن يردّ مُحكم القرآن الكريم؟! كيف سمحت له نفسه أن يسمّي المطهّرين شاذّين؟! ولو أنّه قال: "وشدّ أتباع أهل البيت" لكان في سعة من أمره، لكنّه قال: "وشدّ"

أهل البيت " فنسب الشذوذ إلى من طهره الله تعالى، وفي هذا من الغفلة عن تدبر القرآن الكريم ما لا يخفى، وعلماء المسلمين لا يختلفون في موقفهم ممن يكذب شيئاً من القرآن الكريم آيةً فما فوقها.. هنا كانت لحظة التأمل التي غيرت مجرى حياة الأستاذ عبد الباقي قرنه، وجعلته يعيد النظر في ما ورثه من تراث لا يبالي أصحابه بتكذيب القرآن الكريم انتصاراً منهم لشيوخهم ومذاهبهم، وكانت البداية وكانت بعدها أُلطف إلهية وأسرار ربانية يشير إليها قوله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

من يومها أحسّ الأستاذ عبد الباقي قرنه، أن في ذمته أن يحاول جهد ما يستطيع أن يعرف الناس بما تعرّف عليه هو، وأن يجعل من ذلك شغله الشاغل، وهدفه الأسمى في هذه الحياة الدنياه، ليسير على درب من قال فيهم المولى عليه السلام: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

(٢) آل عمران، ٣٣-٣٤.

(٣) راجع البحار، ج ٤٧، ص ٣٣، وتهذيب الكمال للمزي، ج ٥، ص ٧٩، وتذكرة الحفاظ للذهبي، ج ١، ص ١٦٦.

(٤) ذكر هذه الوصية المجلسي في البحار، ج ١، ص ٢٢٤، ومما جاء فيها: «... أوصيك بتسعة أشياء فإتّها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى والله أسأل أن يوفقك لاستعماله ثلاثة منها في رياضة النفس و ثلاثة منها في الحلم و ثلاثة منها في العلم فأحفظها وإياك و التهاون بها قال عنوان ففرغت قلبي له فقال أما اللواتي في الرياضة فأياك أن تأكل ما لا تشتهييه فإنه يورث الحماسة و البله و لا تأكل إلا عند الجوع و إذا أكلت فكل حلالاً و سم الله و اذكر حديث الرسول ص ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه فإن كان و لا بد فثلث لطعامه و ثلث لشرابه و ثلث لنفسه و أما اللواتي في الحلم فمن قال لك إن قلت واحدة سمعت عشرة فقل إن قلت عشرة لم تسمع واحدة و من شتمك فقل له إن كنت صادقاً فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي و إن كنت كاذباً فيما تقول فالله أسأل أن يغفر لك و من وعدك بالخنا فعده بالنصيحة و الرعاء و أما اللواتي في العلم...».

(٥) الوسائل، ج ٣، ص ٧١.

بين يدي الصادق عليه السلام

عيسى جاسم القفاص

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين واللعن الدائم المؤبد على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين، أقف في هذا البحث على بعض المسائل المتفرقة مستلهما من سيرة وأقوال الإمام الصادق عليه السلام الذي ملأت أنوار كلماته الخافقين وأبهرت سيرته المباركة الأولين والآخرين، ذلك الموحد العاشق لربه الصادق في العقيدة والقول والعمل، حتى جاءت تسميته بأمر السماء بالصادق «إذا ولد ابني جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فسموه الصادق» كما عن رسول الله صلى الله عليه وآله (١)، ذلك المعتصم بربه حق العصمة المتعلق بربه المتوكل عليه حتى اتخذ خاتما منقوشا عليه (الله وليي وعصمتي من خلقه) كما روي عن الرضا عليه السلام (٢)، ثم من ذا يصف الإمام!

الإمام الصادق عليه السلام والإيثار

من أبرز صفات أهل البيت عليه السلام الإيثار في أمور الدنيا، ومما ورد في هذا المجال عن الإمام الصادق عليه السلام كثير جدا منه ما روي عن أبي الهياج بن بسطام قال: «كان جعفر بن محمد يطعم حتى لا يبقى لعياله شيء» (٣) وعن ابن بكير عن بعض أصحابه قال «كان أبو عبد الله ربما أطعنا الفراني والأخبصة، ثم يطعم الخبز والزيت، فقيل له: لو دبرت أمرك حتى يعتدل فقال: إنما تدبيرنا من الله إذا وسع علينا وسعنا وإذا قتر قترنا» (٤) وغيرهما من الروايات الكثيرة.

الإيثار في أمور الدنيا والتصدق بالمال على المحتاج والتفاني في خدمة المؤمنين

من أبرز آثار الزهد في الدنيا وعدم التعلق القلبي بها، ومن أبرز آثار معرفة قيمة وعظم هذا العمل-الإيثار وخدمة المؤمنين-؛ فإن من يتعلق قلبه بالدنيا بماله وبيته وأثاثه وسيارته و... يعسر عليه أن يؤثر أخاه المؤمن عند الحاجة، سيما إذا كان هو في حاجة إليها أيضا، وإلا فكم هم المؤمنون المكتفون ماليا الذين يجدون الفضل في أموالهم وكم هم المحتجون الذين يعيشون العسر والحرج في المعيشة، فلماذا لا يؤثر المؤمن أخاه! السبب الرئيس هو الحرص الناشئ من التعلق بهذه الدنيا الزائلة، كم من المؤمنين يرى بعض الضعفاء لا يملك سيارة ولا تطاوعه نفسه أن يشتري لأخيه سيارة! وكم من المؤمنين يملك من فاضل المال ما يمكنه أن يسدد شهريا قيمة أجرة سكن جيد، ويرى أخاه المؤمن يضح من ضيق السكن ولا يمد له يد العون! وكم وكم... وتراه يذهب ليشتري بهذا المال بعض الكماليات التي لا توجب له في الدنيا إلا مزيد تعلق بها وانشغال عن الله، فيشتري الهاتف الجديد والأثاث الفاخر والسيارة الجميلة في الوقت الذي يملك كل ما يسد حاجته ويناسب شأنه من هذه الأمور، وأخوه المؤمن يلاقي الأمرين! كل هذا من آثار حب الدنيا، ومما يؤسف له أن هذا المرض موجود حتى في أوساط المتدينين!! عن الإمام الكاظم عليه السلام في وصف العاقل «وفضل ماله مبدول»⁽⁹⁾.

الإمام الصادق عليه السلام - وكل أهل البيت عليهم السلام - كانوا أعظم مصداق للإيثار، بل إن مواقفهم في الإيثار معجزة عظيمة تكشف عن صفاء نفسي عظيم وحب للخير لا نظير له، وزهد في الدنيا لا يتصور، فما معنى أن يعطي الإمام عليه السلام (حتى لا يبقى لعياله شيء) لا يبرر عدم العطاء بأنه يحتاج أن يحسن ظروفه ويعدها (لو دبرت أمرك حتى يعتدل!) هذا المنطق منطوق منطوق الذين لا يؤمنون بالغيب، الذي يقول دعني أدبر أمري أولا ثم أنظر إلى غيري، أما منطوق المؤمن المؤثر الزاهد، قدم غيرك وآثره

يتكفل الله بأمرك، وكم نبرّر نحن لأنفسنا عندما نجد المحتاج ونجد عندنا فضل المال، يأتي الشيطان إلى أحننا ويلقنه بألف تبرير و(الإنسان على نفسه بصيرة).

اللعن والبراءة والحب والولاء

عن بشار المكارى قال: «دخلت على أبى عبد الله عليه السلام بالكوفة وقد قدم له طبق رطب طبرزد وهو يأكل فقال: يا بشار ادن فكلت: هناك الله، وجعلني فداك، قد أخذتني الغيرة من شيء رأيت في طريقي! أوجع قلبي، وبلغ مني فقال لي: **بحمي لما دنوت فأكلت** قال: فدنوت فأكلت فقال لي: **حديثك قلت**: رأيت جلوازا يضرب رأس امرأة، ويسوقها إلى الحبس وهي تنادي بأعلى صوتها: المستغاث بالله ورسوله، ولا يغيثها أحد قال: **ولم فعل بها ذلك؟** قال: سمعت الناس يقولون إنها عثرت فقالت: لعن الله ظالميك يا فاطمة فارتكب منها ما ارتكب. قال: فقطع الأكل ولم يزل يبكي حتى ابتل منديله، ولحيته، وصدره بالدموع، ثم قال: **يا بشار قم بنا إلى مسجد السهلة فندعو الله تعالى ونسأله خلاص هذه المرأة** قال: ووجه بعض الشيعة إلى باب السلطان، وتقدم إليه بأن لا يبرح إلى أن يأتيه رسوله فإن حدث بالمرأة حدث صار إلينا حيث كنا قال: فصرنا إلى مسجد السهلة، وصلى كل واحد منا ركعتين، ثم رفع الصادق عليه السلام يده إلى السماء وقال: **أنت الله** - إلى آخر الدعاء - قال: فخر ساجدا لا أسمع منه إلا النفس ثم رفع رأسه: فقال: **قم فقد أطلقت المرأة**. قال: فخرجنا جميعا، فبينما نحن في بعض الطريق إذ لحق بنا الرجل الذي وجهناه إلى باب السلطان فقال له عليه السلام ما الخبر؟ قال: قد أطلق عنها قال: **كيف كان إخراجها؟** قال: لا أدري ولكنني كنت واقفا على باب السلطان، إذ خرج حاجب فدعاها وقال لها: ما الذي تكلمت؟ قالت: عثرت فقالت: لعن الله ظالميك يا فاطمة، ففعل بي ما فعل قال:

فأخرج مائتي درهم وقال: خذي هذه واجعلي الأمير في حل، فأبت أن تأخذها، فلما رأى ذلك منها دخل، وأعلم صاحبه بذلك ثم خرج فقال: انصرفي إلى بيتك فذهبت إلى منزلها. فقال أبو عبد الله عليه السلام: **أبت أن تأخذ المائتي درهم؟** قال: نعم وهي والله محتاجة إليها قال: فأخرج من جيبه صرة فيها سبعة دنانير وقال: **اذهب أنت بهذه إلى منزلها فأقرئها مني السلام وادفع إليها هذه الدنانير** قال: فذهبنا جميعاً فأقرأناها منه السلام فقالت: بالله أقرأني جعفر بن محمد السلام؟ فقلت لها: رحمك الله، والله إن جعفر بن محمد أقرأك السلام، فشقت جيبها ووقعت مغشية عليها قال: فصبرنا حتى أفاقت، وقالت: أعدّها علي، فأعدناها عليها حتى فعلت ذلك ثلاثاً ثم قلنا لها: خذي! هذا ما أرسل به إليك، وأبشري بذلك، فأخذته منا، وقالت: سلوه أن يستوهب أمته من الله فما أعرف أحداً توسل به إلى الله أكثر منه ومن آباءه وأجداده عليهم السلام. قال: فرجعنا إلى أبي عبد الله عليه السلام فجعلنا نحدثه بما كان منها، فجعل يبكي ويدعو لها، ثم قلت: ليت شعري متى أرى فرج آل محمد عليهم السلام؟ قال: **يا بشار إذا توفي ولي الله وهو الرابع من ولدي في أشد البقاع بين شرار العباد، فعند ذلك يصل إلى ولد بني فلان مصيبة ساء، فإذا رأيت ذلك التقت حلق البطان ولا مرد لأمر الله** ^(١).

هذه القصة فيها من المواعظ الكثير، فإنها طافحة بآثار الولاء والمحبة والتبري والبغض، ومن هذه المواعظ:

(١) أن الإمام عليه السلام ربّي أصحابه على أن يهتموا بأمور المظلومين من الناس وأن يعيشوا حالة الحزن والألم لما يجري عليهم من ظلم، حتى يصل بأحدهم الأمر أنه لا يرغب في الطعام "قد أخذتني الغيرة من شيء رأيته في طريقي! أوجع قلبي، وبلغ مني" ولم تكن هذه التربية بالقول فحسب وإنما كانت تربية بالسلوك على أساس «كونوا دعاة لنا بغير ألسنتكم» فإنه عندما أخبر الإمام عليه السلام بالحدث أخذ يبكي بكاء

شديدا، لما عرف مما جرى على تلك المرأة الموالية ولما تذكر من مصاب جدته الصديقة، والأمر في ذلك أن الظلم الذي وقع على هذه المرأة بسبب لعن قتل فاطمة فما أشده من موقف مؤلم!

(٢) أن الإمام عليه السلام لم يكتف بالتألم وإظهار الحزن وإنما سعى مباشرة بخطوة علمية ليعين هذه المسكينة المظلومة في دار التقية والضيق، فخرج ليدعوا لها في مكان مستجاب الدعاء، فإنه لم يكن في يده أكثر من هذا في ظرف التقية والحرج، وأرسل من يترقب أحوالها، وأمره أن يخبره بما يفعل بها.

(٣) إن هذه المرأة التي تكشف هذه الرواية عن عظيم منزلتها وولائها وعشقها لأهل البيت عليهم السلام كانت تلعن ظالمي أهل البيت عليهم السلام، ولم يستنكر الإمام عليه السلام فعلها، بل ربما فهم من أجواء الرواية استحسان الإمام عليه السلام ذلك الفعل، وقد يستفاد ذلك من بعض الروايات، ففي الكافي عن محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن محمد بن إسماعيل بن بزيع، عن الخيبري، عن الحسين بن ثوير، وأبي سلمة السراج قالوا «سمعنا أبا عبد الله عليه السلام وهو يلعن في دبر كل مكتوبة أربعة من الرجال وأربعا من النساء فلان وفلان وفلان ومعاوية ويسميهم وفلانة وفلانة وهند وأم الحكم أخت معاوية»^(٧) وفي رواية أخرى: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن محمد بن حكيم وحماد عن أبي مسروق قال: سألتني أبو عبد الله عليه السلام عن أهل البصرة، فقال لي: ما هم؟ قلت: مرجئة وقدرية وحرورية فقال: «لعن الله تلك الملل الكافرة المشركة التي لا تعبد الله على شيء»^(٨) وروى أيضا محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن مروك بن عبيد، عن رجل، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لعن الله القدرية، لعن الله الخوارج، لعن الله المرجئة، لعن الله المرجئة...»^(٩) وروى الكليني عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن أبي جعفر البغدادي، عن رواه، عن أبي

عبد الله عليه السلام قال: قال: «لعن الله قاطعي سبل المعروف، قيل: وما قاطعوا سبل المعروف؟ قال: الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره فيمتنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره»^(١٠) وغيرها من الروايات الكثيرة.

(٤) أن الإمام الصادق عليه السلام - وجميع أهل البيت عليهم السلام - قد ربوا شيعتهم على المقاطعة مع الظالم والانفصال عنه، فانظر لهذه المرأة المحتاجة عندما جيء لها بالمال الكثير من عند ذلك الظالم لم تقبله مع أنها كانت في حاجة إليه، فلماذا لم تقبله يا ترى؟ لأنها قد تربت في مدرسة الإمام الصادق عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام الذين نهونا عن الأخذ من عطايا الظلمة لكي لا تقوى شوكتهم ولا ترتفع وحشتهم ولا تكون لهم المنة على المؤمنين ولا يصلوا إلى مآربهم...^(١١).

الإمام الصادق عليه السلام واشتياقه للقائم عليه السلام

للإمام الصادق عليه السلام خطابات كثيرة يبدي فيها اشتياقه للقائم من آل بيت محمد، ويلحظ من هذه الخطابات بشكل واضح لغة العشق والشوق والحزن والألم لفراق يوسف أهل البيت عليهم السلام، منها ما روي:

عن سدير الصيرفي قال: «دخلت أنا والمفضل بن عمر، وأبو بصير، وأبان بن تغلب على مولانا أبي عبد الله الصادق عليه السلام فرأيناه جالسا على التراب وعليه مسح خيبري مطوق بلا جيب، مقصر الكمين، وهو يبكي بكاء الواله الشكلي، ذات الكبد الحري، قد نال الحزن من وجنتيه، وشاع التغيير في عارضيه، وأبلى الدموع محجريه وهو يقول: سيدي غيبتك نفت رقادي، وضيقت علي مهادي، وابتزت مني راحة فؤادي سيدي غيبتك أوصلت مصابي بفجائع الأبد وفقد الواحد بعد الواحد يفنى الجمع والعدد، فما أحس بدمعة ترقى من عيني وأنين يفتر من صدري عن دوارج الرزايا وسوالف البلايا

إلا مثل بعيني عن غواير أعظمها وأفظعها، وبواقى أشدها وأنكرها ونوائب مخلوطة بغضبك،
ونوازل معجونة بسخطك.

قال سدير: فاستطارت عقولنا ولها، وتصدعت قلوبنا جزعا من ذلك الخطب
الهائل، والحادث الغائل، وظننا أنه سمت لمكروهة قارعة، أو حلت به من الدهر بائقة،
فقلنا: لا أبكى الله يا ابن خير الورى عينيك، من أية حادثة تستنزف دمعتك
وتستمطر عبرتك؟ وأية حالة حتمت عليك هذا المأتم؟

قال: فزفر الصادق عليه السلام زفرة انتفخ منها جوفه، واشتد عنها خوفه، وقال:
ويلكم نظرت في كتاب الجفر صبيحة هذا اليوم وهو الكتاب المشتمل على علم المنايا
والبلايا والرزايا وعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة الذي خص الله به محمدا والأئمة
من بعده عليهم السلام، وتأملت منه مولد غائبنا وغيبته وإبطاءه وطول عمره وبلوى المؤمنين في
ذلك الزمان، وتولد الشكوك في قلوبهم من طول غيبته وارتداد أكثرهم عن دينهم،
وخلعهم ربة الإسلام من أعناقهم....»^(١٢).

انظر أيها الموالي إلى شوق إمامك عليه السلام للقائم من آل محمد عجل الله له الفرج،
وفتش في قلبك، فهل ترى في قلبك شوقا وحبا له تقدمه على كل شيء؟ هل تحبه
أكثر أم تحب دنياك أكثر، تحبه أكثر أم تحب شهرتك، أموالك، نساءك، راحتك أكثر؟
فتش جيدا، إذا كان سلام الله عليه يشغل بالك وتفكيرك وقلبك أكثر من أمور
الدنيا من الشهرة والسمعة والمكانة الاجتماعية والأموال واللذات وراحة البال فأنت
تحبه أكثر، أما إذا كانت هذه الأمور أكثر حضورا في قلبك فإنك تحبها أكثر منه، لأن
المحب لشيء يشغل قلبه ولبه، إن أكثرنا -ويا للأسف واللوعة- تشغل باله أمور
الدنيا أكثر مما يشغل قلبه إمامه ورضا إمامه عليه السلام، وربما لبس الشيطان على بعضنا
بأن صور له بعض أمور الدنيا من أمور الآخرة، فتراه يجد في تحصيل علوم الدين

مثلا ظنا منه أن ذلك لرضا إمامه عليه السلام، ولكنه لو فتش جيدا لقبض على نفسه متلبسة بجريمة حبّ الجاه والسمعة والمكانة... فهذا يكون من أمور الدنيا في الحقيقة والواقع وإن رآه الناس من أمور الآخرة ومما يصبُّ في رضا إمام الزمان عجل الله له الفرج، ربما شغل قلبَ أحدنا فقره وضيقُ معيشته أكثر مما يشغله التفكير في مصيبة الغيبة وطولها، وكثرة ما يعاني الإمام عليه السلام من الحزن والمصائب، وربما شغل قلبَ أحدنا التفكير في الجاه أو المنصب أكثر من تفكيره في إرضاء الإمام عليه السلام في خدمة الدين، وربما شغل قلبَ أحدنا التفكير في درسه وتدريسه أكثر مما يشغله التفكير في ذنوبه التي تؤذي الإمام عليه السلام، كذلك من آثار الشجرة الخبيثة والمرض الفتاك «حب الدنيا».

إمامنا الصادق عليه السلام بهذا السلوك، سلوك العشاق الواهين يريد أن يعلمنا منطق الحب الحقيقي، فلم يشغل قلبه تفكير في جاه أو مال أو منصب أو نساء أو... وإنما أخذ بمجامع قلبه ذلك الولي الذي يجسد مظاهر أسماء الله في أرضه والذي يسعد به كل البشر في الدين والدنيا، فهلا أخرجنا من قلوبنا حبَّ الدنيا وأبدلناه بحبَّ المولى. والحمد لله رب العالمين.

المواهب:

- (١) بحار الأنوار: ج ٧٤ باب (أسمائه وألقابه وكناهه، وعللها، ونقش خاتمه، وحليته) الحديث الثاني.
- (٢) المصدر السابق: الحديث الأول.
- (٣) المصدر السابق: ج ٤٧ الباب الرابع: الحديث ٢٦.
- (٤) بحار الأنوار: ج ٤٧ الباب الرابع: الحديث ٢٢.
- (٥) أصول الكافي: كتاب العقل والجهل: الحديث ١٢.
- (٦) بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٣٨٠.

(٧) الكافي: ج ٣: باب التعقيب والدعاء بعد الصلاة.

(٨) الكافي: ج ٢: باب الكفر الحديث ١٣.

(٩) الكافي: ج ٢: باب صنوف أهل الخلاف: الحديث ١.

(١٠) الكافي: ج ٤: باب من كفر المعروف الحديث ١.

(١١) قال السيد الإمام عليه السلام في تحرير الوسيلة، ج ١، كتاب الأمر بالمعروف:

مسألة ٥: لو كان في رد هدايا الظلمة وسلاطين الجور، احتمال التأثير في تخفيف ظلمهم أو تخفيف تجرّيبهم على مبتدعاتهم، وجب الردّ، ولا يجوز القبول، ولو كان بالعكس لا بدّ من ملاحظة الجهات وترجيح الجانب الأهم كما تقدّم.

مسألة ٦: لو كان في قبول هداياهم تقوية شوكتهم وتجريّبهم على ظلمهم أو مبتدعاتهم يحرم القبول، ومع احتمالها فالأحوط عدم القبول، ولو كان الأمر بالعكس تجب ملاحظة الجهات وتقديم الأهم.

(١٢) كمال الدين وتمام النعمة: ٣٥٢.

الإمام الصادق عليه السلام وأصحاب المذاهب

عزيز حسن سلمان

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صلّ على محمد وآل محمد، بعد رحيل المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وبسبب إبعاد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن إدارة الدولة الإسلامية وقيادتها، بدأ بعض أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بتبني بعض الآراء الشخصية في مختلف المجالات الدينية ومنها المجال الفقهي، لأهداف مختلفة، وكلما ابتعد الزمان عن عصر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كثرت الاجتهادات حتى أصبحت بعض الآراء تنسب إلى شخصيات مختلفة من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والتابعين، وازداد الحال في زمن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانت الحكومات خصوصاً حكومة المنصور كَعَلَّ اللهُ تَدْعَمَ بعض هذه المذاهب لأغراض سياسية غير معلنة، والهدف الرئيس هو إبعاد الناس عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ذاع صيته في الآفاق، ومُلِّتِ الأَمْصَارُ بذكره وذكر مدرسته العظمى في المدينة المنورة.

ولا يخفى أن الزمن الذي عاش فيه الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ كان زمناً عصياً من نواحٍ عدة، فرغم ما يقال من أن سبب تأسيس الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لجامعته العظيمة بالمدينة المنورة هو انشغال الأمويين والعباسيين بالحروب والنزاع على السلطة والملك، إلا أن هذا لا يعني إغفالهم الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وتركه لحاله، لأنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في نظرهم يمثل الخطر الأول على سلطانهم، والفترة التي تُرِكَ فيها الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لحاله ليست فترة طويلة، والملاحظ لحياة الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يتبين له ذلك بوضوح^(١).

إن أحد الأسباب المهمة التي من أجلها نشر الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ علومه، هو انتشار

المذاهب المختلفة الكثيرة في زمنه، بالإضافة إلى كثرة وجود الملحددين والزنادقة والمشككين في الإسلام، وهذا كان أيضاً في زمن الإمام الباقر عليه السلام، ولكن ازداد الأمر بشكل واضح في زمن الإمام الصادق عليه السلام، فما كان من الإمام إلا أن تصدّى لذلك بواسطة نشر علوم أهل البيت عليهم السلام، فكان آية عظمى من آيات الله تعالى، وحجة على الناس أجمعين، وما استطاع أحد من العلماء أن يبطلوا هذه الآية الإلهية، أو أن يقفوا قبال هذه الحجة الربانية.

مذهب الإمام عليه السلام أولى بالاتباع

ورغم ابتعاد الناس عن المذهب الحق وعن أئمة الهدى وإنكارهم فضلهم عليهم السلام، واتباعهم للسلطان الجائر الذي كان يحارب كل شيء يتصل بأهل البيت عليهم السلام، فإن نور الإمامة والعصمة الذي ملأ الآفاق جعل هؤلاء الناس يعترفون بأنهم لا شيء، وأنهم عيال لذلك النور، وأنهم بأمس الحاجة لتلك المدرسة المحمدية، فهذه عليّة القوم ورؤوس علمائهم يتدللون أمام عظمة الإمام عليه السلام ويخضعون له بكل جوارحهم حيث لا يسعهم غير ذلك، وتشهد بذلك كتب القوم، نكتفي بذكر ثلاثة من أهم علمائهم:

أبو حنيفة صاحب المذهب الحنفي

روى ابن عدي والذهبي والمزي عن حسن بن زياد أنه قال: "سمعت أبا حنيفة وسئل: من أفقه من رأيت؟ فقال: ما رأيت أحدا أفقه من جعفر بن محمد، لما أقدمه المنصور الحيرة، بعث إلي فقال: يا أبا حنيفة، إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهبئ له من مسألك الصعاب، قال: فهيات له أربعين مسألة، ثم بعث إلي أبو جعفر فأتيته بالحيرة، فدخلت عليه وجعفر جالس عن يمينه، فلما بصرت بهما دخلني لجعفر من

الهيئة ما لم يدخل لأبي جعفر، فسلمت، وأذن لي، فجلست، ثم التفت إلى جعفر، فقال: يا أبا عبد الله تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا أبو حنيفة، ثم أتبعها: قد أتانا، ثم قال: يا أبا حنيفة؟ هات من مسألك، نسأل أبا عبد الله، وابتدأتُ أسأله، وكان يقول في المسألة: أنتم تقولون فيها كذا وكذا، وأهل المدينة يقولون كذا وكذا، ونحن نقول كذا وكذا، فربما تابعنا وربما تابع أهل المدينة، وربما خالفنا جميعا حتى أتيت على أربعين مسألة ما أخرج منها مسألة، ثم قال أبو حنيفة: أليس قد روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس^(٢). وهذه شهادة من أبي حنيفة بأفقهية الإمام عليه السلام وأعلميته، وهو الذي يحتج على من يقبل بمذهب أبي حنيفة أن يقبل بمذهب أستاذه على أقل التقادير.

وقال عبد الحلیم الجندي: "انقطع أبو حنيفة إلى مجالس الإمام طوال عامين قضاهما بالمدينة، وفيهما يقول (لولا العامان لهلك النعمان)، وكان لا يخاطب صاحب المجلس إلا بقوله (جعلت فداك يا ابن بنت رسول الله)"^(٣). وسيأتي في رواية أنه كان يخاطب الإمام متذللًا وهو يقول: «بأبي أنت وأمي».

مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي

من الثابت تاريخيا عند الجميع كون مالك من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام، ونقل الذهبي أنه: "لم يرو مالك عن جعفر حتى ظهر أمر بني العباس. قال مصعب: كان مالك يضمه (أي الحديث) إلى آخر"، وهذا يعني أن مالك كان من تلامذة الإمام عليه السلام من عهد الأمويين، وكان يستخدم التقية في نقل الحديث عن الإمام عليه السلام. وكلماته في حق الإمام عليه السلام لا تقصر عما تقدم من أبي حنيفة، فقد نقل عنه قوله: "ما رأيت عيني أفضل من جعفر بن محمد فضلا وعلمًا وورعًا، وكان لا يخلو من إحدى ثلاث خصال: إما صائما، وإما قائما، وإما ذاكرا، وكان من عظماء البلاد وأكابر الزهاد الذين

يخشون ربهم، وكان كثير الحديث، طيب المجاسة، كثير الفوائد، فإذا قال: قال رسول الله، اخضر مرة واصفر أخرى" (٤).

سفيان الثوري

وهو من كبار علمائهم في ذلك الزمان، ومن تلامذة الإمام عليه السلام، روى الذهبي: قال الخليل بن أحمد: سمعت سفيان الثوري يقول: قدمت مكة فإذا أنا بأبي عبد الله جعفر بن محمد قد أناخ بالأبطح، فقلت: يا ابن رسول الله، لم جعل الموقف من وراء الحرم؟ ولم يصير في المشعر الحرام؟ فقال: الكعبة بيت الله، والحرم حجاب، والموقف باب. فلما قصده الوافدون، أوقفهم بالباب يتضرعون، فلما أذن لهم في الدخول، أدناهم من الباب الثاني وهو المزدلفة، فلما نظر إلى كثرة تضرعهم وطول اجتهادهم رحمهم، فلما رحمهم، أمرهم بتقريب قربانهم، فلما قربوا قربانهم، وقضوا تقضهم وتطهروا من الذنوب التي كانت حجابا بينه وبينهم، أمرهم بزيارة بيته على طهارة. قال: فلم كره الصوم أيام التشريق؟ قال: لأنهم في ضيافة الله. ولا يجب على الضيف أن يصوم عند من أضافه. قلت: جعلت فداك فما بال الناس يتعلقون بأستار الكعبة وهي خرق لا تنفع شيئا؟ قال: ذلك مثل رجل بينه وبين رجل جرم، فهو يتعلق به، ويطوف حوله رجاء أن يهب له ذلك، ذلك الجرم (٥).

والتأمل في هذه الرواية يرى أن الأسئلة التي وجهها سفيان الثوري للإمام عليه السلام تكشف عن اعتقاده بعلم الإمام عليه السلام الغزير والموروث من النبي صلى الله عليه وآله، خصوصا وأنه لم يعترض على جواب الإمام عليه السلام، وإلا فما هو الوجه في السؤال عن علل الأحكام ممن هو عالم عادي لا يتميز عن غيره، بل مثل هذه الأسئلة لا توجه إلا للمعصومين عليهم السلام. إضافة إلى أنه كان يخاطب الإمام عليه السلام بقوله: (جعلت فداك).

ثم إن عدد تلامذة الإمام عليه السلام لا يحصون وقد اشتهر أنهم أربعة آلاف عالم،

وعلى كل حال، إن بروز الإمام عليه السلام من بين أولئك العلماء وتفوقه عليهم في العلم والعمل، بل واستصغار أولئك العلماء لأنفسهم في حضرة الإمام عليه السلام (والمصاديق كثيرة لا يسع المجال لذكرها) لمن أقوى الأسباب التي تجعل من الواجب على المسلمين اتباع هذا الإمام (حتى عند من لا يعتقد بعصمته عليه السلام).

وبدلاً من جعل مذهب الإمام عليه السلام أحد المذاهب جعلوا مذهبه من المذاهب الشاذة، كما تجرأ ابن خلدون وهو يستعرض المذاهب فقال: "وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها، وفقه انفردوا به، وبنوه على مذهبهم، في تناول بعض الصحابة بالقدح، وعلى قولهم بعصمة الأئمة، ورفع الخلاف عن أقوالهم، وهي كلها أصول واهية"^(٦). وهذا الكلام إنما هو نتيجة الحقد الدفين، ولا أدري لماذا كل هذا؟!

موقف الإمام عليه السلام من المذاهب الفاسدة

إن سياسات الدولة آنذاك وحفاظاً على مصالحها كانت تقتضي أن تضغط على أي شخصية تمثل خطراً عليها، ولم تكن شخصية الإمام الصادق عليه السلام هي الوحيدة التي تتعارض مع مصالح الدولة، ولكن كان عليه السلام يمثل الخطر الأكبر على الخلافة المغصوبة لأنه هو الأحق بها، والناس متعاطفون معه لشهرته وعلمه وقربه من النبي صلى الله عليه وآله. لذلك فالإمام عليه السلام ولأجل حفظ دمه من الظالم كان يستخدم التقية، ليس في الأمور السياسية فقط، بل حتى في الأمور الدينية الفقهية، لأنه كان لها صلة بالسياسة، مما يعني أن الجهر بها قد يسبب خطراً على الإمام عليه السلام في بعض الأحيان. ولكن هذا لا يعني أن يترك الإمام عليه السلام الحبل على الغارب، ويبقى أصحاب الآراء الفاسدة يلعبون بعقول الناس ويحرفون دين الله تعالى دون رادع من أحد. فكان الإمام عليه السلام وهو الذي يقول: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم»^(٧) قد اتخذ

طريقاً غير مباشر في التصدي لتلك الآراء والاجتهادات المنحرفة، وذلك من خلال بثه لعلوم أهل البيت عليهم السلام بشكل عملي، وتوجيه أنظار الناس إليه من خلال مدرسته الكبرى، فإنَّ أول رسالة أرسلها الإمام عليه السلام إلى الناس هي أن العلم الصحيح -علم رسول الله صلى الله عليه وآله - لا يوجد إلا هنا، ولا يمكن الوصول إليه إلا من خلال هذه المدرسة، وكل علم يؤخذ من غيرها فهو باطل وزخرف ليس له قيمة ولا اعتبار.

ولذلك نرى كثيراً من العلماء والفقهاء في ذلك الوقت ومن مختلف المذاهب والمعتقدات يفتخرون بانتسابهم إلى تلك الجامعة، كما كان يفتخر الصحابي أنه أخذ عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

الدعوة لاتباع أهل البيت عليهم السلام

وقد كانت هناك بعض التصريحات للإمام عليه السلام في الدعوة إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام كقوله عليه السلام لفضيل: «تجلسون وتحدثون؟ قلت نعم، قال: تلك المجالس أحبها، فأحيوا أمرنا. رحم الله من أحيى أمرنا، يا فضيل: من ذكرنا أو ذكرنا عنده فخرج عن عينيه مثل جناح الذباب غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر»^(٨). ومن ضمن أمرهم عليهم السلام هو الجانب الفقهي والأحكام الشرعية، وهذه الكلمة الصريحة من الإمام عليه السلام، وإن كان ظاهرها هو الدعوة إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام فحسب، دون التعرض للمذاهب الأخرى، إلا أن باطنها يدل على ذلك أيضاً، فإن إحياء أمر أهل البيت عليهم السلام هو إمامة لأمر غيرهم ممن يعارضونهم سواء في العقيدة أو في الفقه. وقوله عليه السلام في حديث آخر: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث

أمير المؤمنين عليه السلام وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وحديث رسول الله قول الله تعالى»^(٩). ظاهره أن الإمام عليه السلام يريد فقط أن يُطمئن من يأخذ عنه أن ما يحدثه هو حديث النبي صلى الله عليه وآله ولم يخترعه من عنده، أي أنه عليه السلام يريد أن يدفع عن نفسه تهمة الوضع، ولكن هذا التفسير غير صحيح على إطلاقه، لأنَّ الإمام عليه السلام كان معروفاً ومشهوراً بالصدق والورع عند العام والخاص، ولم يكن أحدٌ يحتمل في الإمام عليه السلام هذا الاحتمال البعيد.

إذن هناك أمر آخر يريد الإمام عليه السلام أن يبينه للناس، وهو أن غيري من العلماء الذين يفتنون الناس، متهمون في آرائهم وأحاديثهم، وأن الطريق إلى النبي صلى الله عليه وآله من غير أهل البيت عليهم السلام طريق غير نظيف، فكل ما يتفوه به أحد من الفقهاء الآخرين وهو معارض لفقهِ الإمام عليه السلام فهو مكذوب على النبي صلى الله عليه وآله، لأنَّ علم النبي صلى الله عليه وآله عند الإمام عليه السلام.

وعن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن عند كل بدعة تكون من بعدي يُكادُ بها الإيمانُ ولياً من أهل بيتي موكلًا به يذب عنه، ينطق بإلهام من الله ويعلن الحق وينوره، ويرد كيد الكائدين، يعبر عن الضعفاء فاعتبروا يا أولي الأبصار وتوكلوا على الله»^(١٠).

ومن مواقفه أيضاً هو أمره لبعض تلامذته المعروفين بالتشيع كزرارة أن يجلسوا في المسجد ويفتوا الناس.

موقفه من مدرسة الرأي والقياس

وهناك موقف خاص من الإمام عليه السلام وهو موقفه من مدرسة الرأي والقياس، التي كان يتزعمها أبو حنيفة في الكوفة. ونحن نقسم موقف الإمام عليه السلام من هذه

المدرسة إلى قسمين؛ قسم عام وقسم خاص.

القسم العام: وهو الذي لا يختص بشخصية معينة من أهل الرأي والقياس، فقد كانت للإمام عليه السلام كلمات عديدة يصرح فيها بموقفه تجاه هذا المسلك، فمن ضمن كلماته عليه السلام:

١- قوله لأبان بن تغلب: «إن السنة لا تقاس، ألا ترى أن امرأة تقضي صومها ولا تقضي صلاتها! يا أبان: إن السنة إذا قيست محق الدين».

٢- «إن أصحاب المقائيس طلبوا العلم بالمقائيس فلم تزدهم المقائيس من الحق إلا بعدا، وإن دين الله لا يصاب بالمقائيس».

٣- عن أبي بصير قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ترد علينا أشياء ليس نعرفها في كتاب الله ولا سنة فننظر فيها؟ فقال: لا، أما إنك إن أصبت لم تؤجر، وإن أخطأت كذبت على الله عز وجل»^(١١).

٤- عن محمد بن حكيم، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن قوما من أصحابنا قد تفقهوا وأصابوا علما ورووا أحاديث فيرد عليهم الشيء فيقولون فيه برأيهم؟ فقال: لا، وهل هلك من مضى إلا بهذا وأشباهه؟!»^(١٢).

٥- عنه عليه السلام: «في كتاب أدب أمير المؤمنين عليه السلام قال: لا تقيسوا الدين فإن أمر الله لا يقاس، وسيأتي قوم يقيسون وهم أعداء الدين»^(١٣).

٦- وفي رسالة طويلة له عليه السلام جاء فيها: «أما بعد فإنه من دعا غيره إلى دينه بالارتياء والمقائيس لم ينصف ولم يصب حظه....، فمن طلب ما عند الله بقياس ورأي لم يزد من الله إلا بعدا، ولم يبعث رسولا قط وإن طال عمره قابلا من الناس خلاف ما جاء به حتى يكون متبوعا مرة و تابعا أخرى، ولم ير أيضا فيما جاء به استعمل رأيا ولا مقياسا حتى يكون ذلك واضحا عنده كالوحي من الله، وفي ذلك دليل لكل ذي لب وحجى أن

أصحاب الرأي والقياس مخطئون مدحسون، وإنما الاختلاف فيما دون الرسل لا في الرسل»^(١٤).

الموقف الخاص: وهو موقف الإمام عليه السلام من أبي حنيفة زعيم أهل الرأي والقياس، فهناك مواقف كثيرة جدا تظهر فيها حدة الإمام عليه السلام في موقفه من أبي حنيفة، ونحن نذكر هنا بعضها:

عن عيسى بن عبد الله القرشي قال: «دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله عليه السلام فقال له: يا أبا حنيفة! بلغني أنك تقيس؟ قال: نعم قال: لا تقس فإن أول من قاس إبليس حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فقاس ما بين النار والطين، ولو قاس نورية آدم بنورية النار عرف فضل ما بين النورين، وصفاء أحدهما على الآخر»^(١٥). وهنا تعريض واضح بأبي حنيفة أنه باتباعه القياس يكون متبعاً لأبليس. بل في رواية أخرى يقول الإمام عليه السلام لأبي حنيفة: «يا نعمان إياك والقياس فإن أبي حدثني، عن آباءه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من قاس شيئاً من الدين برأيه قرنه الله مع إبليس في النار، فإنه أول من قاس حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فدعوا الرأي والقياس، وما قال قوم ليس له في دين الله برهان، فإن دين الله لم يوضع بالآراء والمقاييس»^(١٦).

وقال عليه السلام أيضاً: «يا نعمان هل تحسن تقيس رأسك؟ قال لا، قال فما أراك تحسن تقيس شيئاً ولا تهتدي إلا من عند غيرك...»^(١٧). وواضح أن أسلوب الإمام عليه السلام فيه استهزاء بأبي حنيفة.

وفي واقعة أخرى نرى الإمام عليه السلام يُعرضُ عن أبي حنيفة ويتجاهله لأخذه بالقياس، فقد روي أنه أفتى أبو حنيفة غلاماً فتوى تخالف فتوى الإمام عليه السلام، يقول الراوي: «فقلت إليه فقلت: ويلك يا أبا حنيفة إني كنتُ العام حاجاً فأتيت أبا عبد الله عليه السلام مسلماً عليه فوجدت هذا الغلام يستفتيه في هذه المسألة بعينها

فأفتناه بخلاف ما أفتيته، فقال: وما يعلم جعفر بن محمد أنا أعلم منه، أنا لقيت الرجال وسمعت من أفواههم، وجعفر ابن محمد صحفي أخذ العلم من الكتب! فقلت في نفسي: والله لأحجن ولو حبوا. قال فكنت في طلب حجة، فجاءني حجة فحججت، فأتيت أبا عبد الله عليه السلام فحكيت له الكلام فضحك، ثم قال ^(١٨): أما في قوله إني رجل صحفي فقد صدق قرأت صحف آبائي إبراهيم وموسى، فقلت: ومن له بمثل تلك الصحف؟ قال: فما لبثت أن طرقت الباب طارقاً وكان عنده جماعة من أصحابه فقال الغلام: انظر من ذا، فرجع الغلام فقال: أبو حنيفة، قال ادخله فدخل فسلم على أبي عبد الله عليه السلام فرد عليه، ثم قال أصلحك الله أتأذن في القعود؟ فأقبل (أي الإمام عليه السلام) على أصحابه يحدثهم ولم يلتفت إليه، ثم قال الثانية والثالثة فلم يلتفت إليه، فجلس أبو حنيفة من غير إذنه، فلما علم أنه قد جلس التفت إليه فقال: أين أبو حنيفة؟ فقيل هو ذا أصلحك الله، فقال أنت فقيه أهل العراق؟ قال نعم، قال: بما تفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله قال: يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حق معرفته وتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال نعم، قال: يا أبا حنيفة لقد ادعيت علماً، وبلك ما جعل الله ذلك إلا عند أهل الكتاب الذين انزل عليهم، وبلك ولا هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا صلى الله عليه وآله ما ورثك الله من كتابه حرفاً، فإن كنت كما تقول ولست كما تقول فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿سِيرُوا فِيهَا لِيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾ أين ذلك من الأرض؟....» ^(١٩). ومثل هذا الإعراض حصل لعبد الله بن شبرمة أيضاً وهو أحد فقهاء العامة في ذلك الزمن ^(٢٠).

وفي رواية أخرى تبين أن أبا حنيفة كان يخشى من عدم إذن الإمام عليه السلام له بالدخول، فقد روي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه قال: «قال لي أبو حنيفة: أحب

أن أدخل إلى هذا الرجل فأسلم عليه، يريد جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأسئله وأخاف أن لا يأذن لي قال عبد الرحمان بن أبي ليلى فقلت له: أخلق به إن علم بمكانك أن لا يأذن لك، ولكن كن معي فإن أذن لي دخلت معي، قال: قضينا إلى بابه فقلت لغلامه: اقرأه السلام وقل له: عبد الرحمان بن أبي ليلى ورجل من أهل الكوفة، قال: فرجع إلينا بالإذن فدخلنا عليه فرحب بنا وقرب حتى إذا اطمأننا أقبل علي قال: **من هذا الرجل؟** فقلت: بأبي أنت وأمي أبو حنيفة فقيه أهل الكوفة قال: فأقبل عليه فقال: **أنت النعمان بن ثابت؟** قال: نعم، بأبي أنت وأمي، قال: **أنت الذي تقيس الدين برأيك؟** قال: بأبي أنت وأمي إنما أقول ذلك في النازلة أو الحادثة تحدث ليس لها في كتاب الله خبر ولا في سنة رسول الله (ص) ولا في إجماع عليه. قال: فتبسّم ثم قال: **ويحك يا نعمان ما لم يكن له في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ولا في إجماع المسلمين ولا في خبر المتصل حجة فقد زال عنك حكمه ووضع عنك فرضه فلم تتكلف لم تؤمر، ويحك يا نعمان إياك والقياس فإن أهل القياس لا يزالون في التباس الخ** (٢١).

وفي هذه الرواية نرى صغر أبي حنيفة وهو كالعصفور أمام عظمة الإمام عليه السلام. ولعل السبب في هذا الموقف الحازم من الإمام عليه السلام لمدرسة القياس بما لم يواجه به مدرسة الحديث، هو ما تمثله مدرسة الرأي والقياس من خطر كبير على الدين، فإن أصحاب مدرسة الحديث وإن كانوا منحرفين عن الصراط المستقيم إلا أن أحاديث النبي صلى الله عليه وآله والآيات القرآنية كانت إلى حد ما مقدسة عندهم، وأما أصحاب مدرسة الرأي فإنهم ضربوا الآيات والروايات عرض الجدار، واقتصروا على آرائهم وعقولهم القاصرة، فينقل ابن حبان (م ٣٥٤) (وهو صاحب أحد الصحاح) عن يوسف بن أسباط قال: قال أبو حنيفة: "لو أدركني رسول الله صلى الله عليه وآله لأخذ بكثير من قولي، وهل

الدين إلا الرأي الحسن^(٢٢)، وقال في كتابه المجروحين ص ٦٣ واصفاً أبا حنيفة: "وكان رجلاً جدلاً ظاهر الورع لم يكن الحديث صناعته، حدث بمائة وثلاثين حديثاً مسانيد ماله حديث في الدنيا غيرها، أخطأ منها في مائة وعشرين حديثاً. إما أن يكون أقلب إسناده أو غير متنه من حيث لا يعلم، فلما غلب خطؤه على صوابه استحق ترك الاحتجاج به في الأخبار، ومن جهة أخرى لا يجوز الاحتجاج به لأنه كان داعياً إلى الإرجاء والداعية إلى البدع لا يجوز أن يحتج به عند أئمتنا قاطبة لا أعلم بينهم فيه خلافاً". وهذا قليل فيما نقل عن أبي حنيفة، ومن أحب التوسع فليراجع الكتاب المذكور في ترجمة أبي حنيفة.

والحمد لله رب العالمين.

المواهب:

- (١) في الكافي ج ١، ص ٥٣، «عن محمد بن الحسن بن أبي خالد شينولة قال: «قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام: جعلت فداك إن مشايخنا رووا عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام وكانت التقية شديدة، فكتبتموا كتبهم ولم ترو عنهم فلما ماتوا صارت الكتب إلينا فقال: حدثوا بها فإنها حق».
- (٢) الكامل لعبد الله بن عدي (م ٣٦٥)، ج ٢، ص ١٣٢، سير أعلام النبلاء للذهبي (٧٤٨) ج ٦، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ وكذلك في تاريخ الإسلام، ج ٩، ص ٨٩ - ٩٠، وتهذيب الكمال للمزي (م ٧٤٢)، ج ٥، ص ٧٩ - ٨٠.
- (٣) الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عبد الحلیم الجندي، ص ١٦٢.
- (٤) مناقب آل طالب، ج ٣، ص ٣٩٦.
- (٥) سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٦٦.
- (٦) تاريخ ابن خلدون، ج ١، ص ٤٤٦.
- (٧) الكافي، ج ٢، ص ٧٨.
- (٨) الوسائل ج ١٢، ص ٢٠.

- (٩) الكافي، ج ١، ص ٥٣.
- (١٠) الكافي، ج ١، ص ٥٤.
- (١١) الكافي، ج ١، ص ٥٦ و ٥٧.
- (١٢) المحاسن، ج ١، ص ٢١٢.
- (١٣) المحاسن، ج ١، ص ٢١٥.
- (١٤) المحاسن، ج ١، ص ٢٠٩-٢١٠، الوسائل ج ٢٧، ص ٥٠-٥١.
- (١٥) الكافي ج ١، ص ٥٨.
- (١٦) علل الشرائع، ج ١، ص ٨٨-٨٩.
- (١٧) علل الشرائع، ج ١، ص ٨٨.
- (١٨) في نسخة البحار عن العلل: «فضحك ثم قال: عليه لعنة الله أما في قوله: إني رجل صحفي...» البحار، ج ٢، ص ٢٩٣.
- (١٩) علل الشرائع، ج ١، ص ٨٩-٩٠، والرواية طويلة فيها فوائد جمّة.
- (٢٠) المحاسن، ج ١، ص ٢١٠.
- (٢١) شرح إحقاق الحق، ج ١٢، ص ٢١٤.
- (٢٢) كتاب المجروحين لابن حبان، ج ٣، ص ٦٥.

صالحنا على مدرستنا

قصي الشيخ علي العربي

أود بداية إلفات قارئ الكريم إلى تطور البحث والتحقيق والكتابة حول حياة الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم أفضل الصلاة والسلام، تربية وتأهيلاً وتفضيلاً، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الاهتمام بهم وبمودتهم، فلم يكن اهتماماً عاطفياً بقدر ما هو امتثال لأمر إلهي قاطع صدر عن رب العالمين حينما أوحى برسالته الخالدة إلى الرسول المصطفى ﷺ أمراً رسوله بقوله تعالى: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١) وذلك لكونهم عليهم أفضل الصلاة والسلام يمثلون القيادة الشرعية الحقيقية، وهم أقرب الناس إلى الرسول نهجا ونسباً، ويبشر الربُّ الذين يحبون آل الرسول بزيادة في الأجر، وأن يشملهم بمغفرته الواسعة وشكره الجزيل، وأكرم به وعداً صادقاً، وفضلاً كبيراً، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ الثواب ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ به ﴿عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ولكن هذا الفضل الكبير مقترن بعمل كبير هو المودة في القربى التي جعلت بمثابة أجر على الرسالة المحمدية.

وهنا قد يتساءل البعض

كيف طلب رسول الله على رسالته أجراً؟ أفلم تكن له أسوة بسائر الأنبياء عليهم السلام الذين اتفقت كلمتهم على ألا يطالبوا أمهم بأجر؟ قال الله سبحانه على لسان أكثر من نبي ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، وقد حدا هذا الاعتراض ببعض الرواة إلى تغيير التفسير السابق إلى

تفاسير أخرى، بعضها بعيدة عن قيم الرسالات الإلهية.

ولكن إذا عرفنا أن الإسلام هو آخر تجل لنور الرسالة، وأنه كان بحاجة إلى قيادة شرعية تحافظ عليه من زيغ المترفين، وإلحاد الطغاة، وضلالة الجاهلين، وأن الله الحكيم قد اختار لرسالته من يحمل مشعلها من أهل بيت الرسول كما اجتبي من آل إبراهيم وآل يعقوب من يحمل مشعل الرسالة من بعدهما. إذا عرفنا كل ذلك فإننا نهتدي إلى الحكمة البالغة وراء جعل المودة في القربى أجراً للرسالة، إذ أن الهدف منها ولاء القيادة الشرعية التي تحمل مشعل الرسالة، فمن أراد أن يشكر رسول الله على الأذى الكبير الذي تحمله فلا شكر أفضل من محبة أهل بيته الذين يحملون ذات هدفه ويبلغونه للناس، وهكذا يكون أجر الرسالة في مصلحة الناس أنفسهم، ولهذا قال ربنا سبحانه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾^(٣) وليس للرسول.

روى صاحب الكشاف: أنه لما نزلت هذه الآية - آية مودة القربى - قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ فقال: علي وفاطمة وابناهما، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم، وهو مودتهم.

وجوب محبة أهل البيت عليهم السلام

وقد ثبت بالنقل المتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يحبُّ علياً وفاطمة والحسن والحسين، وإذا ثبت ذلك وجب على الأمة كلها أن تمتثل انطلافاً من قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٤). ولقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ فالله يحذر بشدة أولئك الذين يخالفون أمر الرسول صلى الله عليه وآله وقراراته باعتباره القيادة العليا.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ باسمه. ولهذا المقطع

من الآية - كما يقول بعض المفسرين - وجهان: أحدهما ظاهر والآخر باطن، أما الظاهر فهو: أن لا يسمى الإنسان رسول الله باسمه الخاص، ولكن عليه أن يناديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بلقبه، فحينما جاءت هذه الآية المباركة حُرِّمَ على المسلمين أن ينادوا رسول الله باسمه، فأخذوا ينادونه بتعظيم: يا نبي الله، أو يا رسول الله، أي باسمه القيادي.

وأما الوجه الباطن فهو: ضرورة تهيئة المسلم نفسيا لتقبل قيادة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وكل من جلس مجلسه وحكم باسمه، ولا يقول هذا إنسان وأنا إنسان، بلى إنه بشر، ولكنه يمتلك صفة اعتبارية أنت لا تملكها، هي جلوسه مجلس الرسول، لذلك قال كثير من فقهاءنا: «إذا حكم ولي الأمر المجتهد الجامع للشرائط بحكم ما، وجب على الناس -سواء منهم المقلدون لهذا المجتهد أو غيرهم- اتباع حكمه، بل وحتى على المجتهدين أن يتبعوه في حكمه»؛ لأنه حينما يحكم فإنه يحكم باسم منصبه، وإهانة حكمه إهانة لمركزه، والإهانة لمركزه إهانة للدين، وبالتالي لله تَعَالَى، وكما في الحديث عن أحدهم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نحن أهل البيت لا يقبل الله عمل عبد وهو يشك فينا»^(٥).

وجاء فيما دلَّ على إرجاع أمر القضاء إلى الفقهاء من الشيعة وإيجاب القبول لحكمهم: هو ما ورد عن عمر بن حنظلة في حكم المتنازعين قال: سألت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث، إلى أي حاكم يرجعان؟ فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حللنا وحرماننا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكما، فإني قد جعلته عليكم حاكما، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه، فإتما استخف بحكم الله، وعليه رد، والراد علينا -أي على أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الراد على الله»^(٦).

اتباع ومحبة الرسول ﷺ يتم بتطبيق رسالة الله التي نزلت عليه

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٧).

جاء في سبب نزول هذه الآية كما في تفسير «مجمع البيان»: أنه ادعى جمع من الحاضرين في مجلس رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، مع أن العمل بتعاليم الله كان أقل ظهوراً في أعمالهم، فنزلت هذه الآية بشأنهم.

كيف نحب الله حقيقة

تقول الآية المباركة إن الحب ليس بالعلاقة القلبية فحسب، وإنما الحب الحقيقي الصادق هو الذي يعكسه العمل الصالح وإلا فهو ليس سوى خداع للذات، والله لا يجب أحداً من دون عمل، وهذا العمل لا يمكن أن يكون لله إلا عن طريق اتباع رسوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ حقيقة كما تزعمون ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾؛ إذ أن للحب الحقيقي آثاراً عملية تربط المحب بالحبيب وتدفعه للسعي في تحقيق طلباته. والدليل على ذلك واضح، فإن حب الإنسان لله ناشئ من كونه منبع جميع الكمالات وأصلها، وأن محبوباً هذا شأنه لا بد أن تكون أوامره كاملة أيضاً، فكيف يمكن لإنسان يعشق الكمال المطلق أن يعصي أوامر الحبيب وتعاليمه، فإن عصي كان ذلك دليل على أن حبه غير حقيقي.

إن الغارقين في الذنوب من قمة الرأس حتى أخمص القدم، ومع ذلك يرون أن قلوبهم مليئة بحب الله ورسوله وأمير المؤمنين والأئمة العظام، أو الذين يعتقدون أن الإيمان والحب والمحبة قلبية فحسب، هم غرباء على منطلق الإسلام تماماً. من هنا قال الإمام الصادق عليه السلام حول الحب الحقيقي الصادق: «ما التقى مؤمنان قط إلا كان أحدهما أشدهما حبا لأخيه»^(٨). وقال عليه السلام: «إن المتحابين في الله يوم القيامة على منابر

من نور، قد أضاء نور أجسادهم ونور منابرهم كل شيء، حتى يعرفوا به فيقال: هؤلاء المتحابون في الله»^(٩). وقال عليه السلام: «كل من لم يحب على الدين، ولم يبغض على الدين، فلا دين له»^(١٠). وقال عليه السلام في صفة محبيهم: «... وطبقة يحبونا في السر والعلانية، هم النمط الأعلى، شربوا من العذب الفرات وعلّموا بأوائل الكتاب، وفصل الخطاب، وسبب الأسباب، فهم النمط الأعلى، الفقر وأنواع البلاء أسرع إليهم من ركض الخيل، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا وفتنوا فمن بين مجروح ومذبوح، متفرقين في كل بلاد قاصية»^(١١).

وقال عليه السلام حول الآية المتقدمة: «من سره أن يعلم أن الله يحبه فليعمل بطاعة الله وليتبعنا، ألم يستمع قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ..﴾»^(١٢).

وقال عليه السلام: «إذا أحب الله عبداً ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقهه في الدين، وقواه باليقين، فاكتفى بالكفاف، واكتسى بالعفاف، وإذا أبغض الله عبداً حبب إليه المال، وبسط له، وألهمه دنياه، ووكله إلى هواه، فركب العناد، وبسط الفساد، وظلم العباد»^(١٣).

وقال عليه السلام: «من أحب الأعمال إلى الله زيارة قبر الحسين عليه السلام»^(١٤). وقال عليه السلام: «القلب حرم الله، فلا تسكن حرم الله غير الله»^(١٥). وقد جاء في «معاني الأخبار» عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما أحب الله من عصاه»، ثم قرأ الأبيات:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرك في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يجب مطيع

هذه الأحاديث تريد أن تبين أن حقيقة الدين وروحه هي الإيمان بالله وحبه، وذلك الإيمان والعشق للذين يعم نورهما كل الوجود الإنساني ويضيئانه، وتتأثر بهما الأعضاء والجوارح، ويظهر أثرهما في اتباع أوامر الله.

وعدواً على ذي بدء

تبين لنا مما سبق أن مودة ذوي القربى ومحبتهم ترتبط بقضية الولاية وقبول الأئمة المعصومين عليهم السلام؛ حيث تعتبر في الحقيقة استمراراً لقيادة النبي صلى الله عليه وآله، واستمراراً للولاية الإلهية، وجلي أن قبول هذه الولاية والقيادة كقبول نبوة النبي صلى الله عليه وآله ستكون سبباً لسعادة البشرية نفسها وستعود نتائجها إليها.

نعم، إن حب الرسول صلى الله عليه وآله يجعلنا نحب كل تابعيه، وحب أهل بيته يسري إلى محبيهم حتى يصبحوا حزبا إسلاميا واحداً، ويتحابوا في الله، ويتزاوروا في الله، ويتعارفوا في سبيل الله. هكذا شبه الرسول صلى الله عليه وآله حبهم بسفينته نوح التي وحدت بين راكبيها، كما حملتهم إلى بر الأمان.

ولأن طاعة أهل البيت عليهم السلام والتمسك بالقيادة الشرعية الرائدة، تقتضي جهاد المشركين، ومقاومة الطغاة والمترفين، وتحدي تيار الفساد والضلال، فقد جعل الله منطلقه الحب الذي به يسهل كل صعب، بل ويتلذذ الحبيب بما يبذله في سبيل من يجب، ألم تر كيف يصبر المجاهدون في سبيل الطغاة على أقسى ألوان التعذيب، ثم يقولون كما قال حبيبهم محمد صلى الله عليه وآله: «إلهي إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى». ألم يأتك نبأ أهل الإيثار في سوح القتال، كيف استساغوا شراب الموت، وكان عندهم أشهى من العسل، لأنهم اتبعوا نهج إمامهم الحسين عليه السلام الذي قال وهو يعالج سكرات الموت تحت ركام السيوف والخناجر والسهام والحجارة، وقد اشتدَّ به العطش، ووتر بأفضل أهل بيت وأبر أصحاب، قال: «إلهي رضاً بقضائك، لا معبود سواك»، وقالوا على لسانه عليه السلام:

تركت الخلق طراً في هواك وأيتمت العيال لكي أراك

فلو قطعني في الحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواك

وكما يعلم قارئ الكريم: أن الطاعة الحقيقية هي لله، ونحن لا نطيع القيادة لذاتها أنى كانت، إنما نطيعها لأنها امتداد لولاية الله تعالى، الطاعة ليست إلا لله، ولمن أمر الله.

وهنا ألفت نظر قارئ النبيه إلى ما ورد في آخر الآية المباركة من لفظة جميلة ومهمة، وبالغة في اللطف والدقة، تتركز في كلمة «يَقْتَرِفُ» في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾، فهذه الكلمة عادة ما تأتي مقارنة للسيئة وليس للحسنة، فما هو السر في استعمالها هنا؟

إن الاقتراف معناه السعي المكثف للقيام بشيء صعب، وأصل الكلمة نزع لحى الأشجار أو الجلد الإضافي من الجسم، ولعلها استخدمت هنا لأن السياق يهدي إلى طاعة أولي القربى ومودتهم وهي حسنة بالغة الصعوبة، فمن أجل تطبيق هذه الآية الكريمة أريقتم دماء، وأطيحت برؤوس، فليس كل إنسان أهلاً لأن يكون من أصحاب المودة. روي عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام أنه قال: «فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت»^(١)، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنما نزلت فينا خاصة أهل البيت، في علي وفاطمة والحسن والحسين وأصحاب الكساء عليهم السلام»^(١٧).

لماذا اختار الله أولي القربى لقيادة الأمة؟

وبتعبير آخر: هل اختيارهم عليهم السلام من قبل الله تعالى باعتبارهم ذرية لرسوله صلى الله عليه وآله، وقد أراد ربنا إكرام نبيه العظيم بذلك، وإيتاء بعض أجره في الدنيا، ليبقى ذكره العطر فواحاً في كل عصر. بلى، ولكن ليس هذا سبب اختيارهم قادة، لأنه ليس كل من انتسب إلى الرسول صلى الله عليه وآله يصلح للإمامة، إنما كان أشخاص

معينون بالصفات والأمثال، اجتباهم الله لإمامة المسلمين، وأشارت إليهم الآيات، وذكرتهم النصوص، وكانوا هم الأقربون إلى رسول الله ﷺ نهجا وسلوكا، قبل أن يكونوا الأقربين إليه نسبا وصهرا، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، وحين نستقري كتب التاريخ والحديث لمختلف الفرق الإسلامية نجدها تؤكد بأن أقرب الناس خلقاً وخلقا وعلما وعملا إلى رسول الله ﷺ هم أهل بيته الذين نزلت فيهم الآية.

فإذا أكرمنا الصديقة فاطمة الزهراء ﷺ فليس فقط لأنها بنت رسول الله ﷺ -وللبنت كرامتها- وإنما القيمة المثلى فيها هي أنها الصديقة الكبرى التي جسدت رسالة النبي ﷺ في حياتها، وكذلك الإمام علي ﷺ، فنحن لا نكرم العباس عم النبي ﷺ بقدر ما نكرم ابن عمه علي ابن أبي طالب لأنه الأقرب إليه نهجا وسلوكا. ومن هنا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق ﷺ: «ولا يتي محمد أحب إلي من ولادتي منه».

بلى، حين يريد الله أن يجعل رسالته في ذرية طيبة بعضها من بعض، يختار ذرية الرسول أكرم الخلق عنده، وأفضلهم لديه، فيطهرهم من الدنس، ويذهب عنهم الرجس، ويصطفيهم لديه، كما اصطفى آل إبراهيم وآل عمران شخصاً شخصاً. لقد آن الأوان ليعرف العالم كله من أهل البيت ﷺ، وما نهجهم، وليجد عنهم الدواء الشافي لدائه، وليستنير بهداهم في ظلماته. آن الأوان ليعتصم المسلمون جميعاً بحبل الله، ويتمسكوا بالثقلين: «إني تارك فيكم الثقلين؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي...»^(١٨) إحياء للمعارف الإسلامية الأصيلة من منبع الثقلين ونشرها، ودفاعاً عن حريم القرآن والسنة، وذباً عن كيان الإسلام، وتحقيقاً للوحدة والتكافل بين أتباع أهل البيت ﷺ في ظل قيادة الولي الفقيه، التي أرشد أهل البيت ﷺ إليها وألزمهم

باتباعها، لتكون ركيزة وأساسا في تحقيق الوحدة الشاملة بين المسلمين، وتدعيمها لمجاهة الاستكبار العالمي ومؤامراته المتعاقبة.

وبين يدي القارئ الكريم هذا البحث المتواضع ليكون مفردة تصب في هذا السبيل، حيث نطرق أبواب مدرسة أهل البيت الكبرى التي مثلت الإسلام المحمدي الأصيل بصدق وأمانة منبعا ومسارا وأهدافا. فنخوض معها تجربة الهدم للباطل والظلم، وبناء الحق والعدل في واقع أعينته سطوات الجباورة وانتهازية المنحرفين انطلاقا من قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٩).

إذن فالواجب علينا معرفة أهل البيت عليهم السلام إذ إنهم عباد الله المخلصون، واجب علينا اتباعهم إذ هم الأدلاء على الله الهادون إليه، ولنقدم عطاءات مدرستهم الثرة لنروي بها ظمأ الأجيال في آفاق الأرض، ونستنقذها من غياهب الحيرة والضلالة، فلنعش مع أهل البيت عليهم السلام رافدين لمسيرهم، أوفياء لخطهم، متمسكين بالتقليد، لا نفصل بينهما، ولا نفصل عنهما

تطور منهج الدراسة عند أهل البيت عليهم السلام

نعم، تطور البحث والتحقيق والكتابة حول حياة الأئمة عليهم السلام، وقد تجلّى للمرء المتتبع عظمتهم عليهم السلام وأنهم جمعوا في أشخاصهم شرف وعزة الإسلام من جميع أطرافه؛ شرف النسب، لأنهم شجرة النبوة، أبناء وأحفاد، وشرف العلم، لأنهم ثمرة الرسالة، عقيدة وأحكاما وأخلاقا، وشرف الجهاد، صبرا وتضحية وشهادة.

وصادقنا عليهم السلام فرع هذه الدوحة المباركة، ورمز هذه العترة الطاهرة الصابرة المحتسبة، خلد بما بث من علوم، ونشر من فقه وأحاديث رسالة جده رسول

الله ﷺ، مما أدى للباحثين منذ مطلع القرن العشرين إلى إنجاز أعمال علمية فريدة لإخراج تراثه المحبوس في داخل الموسوعات المطولة والمخطوطات، ذلك التراث الذي لم ير النور لولا تلك الجهود التي بذلت بعناء.

والمنتبع هذه الكتابات سيجد رغم تعدد منطلقات واختلاف رؤى وأهداف مؤلفيها قد انصفت مبادراتها الأولى بالعرض السردي الذي يغلب عليه الطابع القصصي عن حياة الإمام عليه السلام، ثم أعقبتها كتابات موسوعية تتحدث عما جاء عن الإمام عليه السلام، واعتنت بحفظ تراثه موزعا ضمن أبواب، تلتها بعد ذلك كتابات وصفية دفاعية تحاول انتقاء النصوص التي تبرز صفات الإمام، ثم نظمها بمنهج يختاره الكاتب حسب ذوقه، ورافقتها كتابات أخرى انتهجت العرض العبقري، أي طرح النموذج البطل الذي لا يقارن فيه أحد من حيث انجازاته ومفاخره العلمية، وتأسيسه لبعض العلوم كالكيمياء والطب والأحياء والفقه والأصول والفلسفة وغيرها، ثم ارتقت الجهود والأنشطة التحقيقية حول الإمام، فتناولت حياته بالدراسة والتحليل إلا أنها تجزيئية في تحليلها، تتحرك بحدود النص وتفكيكه بلغة حديثة، وتداخلت مع ذلك الجهود أيضا جهود كتابية ذات إطار مذهبي نحت بالإمام، وشذبت حياته ليكون قائداً للمذهب فحسب، أو رئيساً له فسلطت الضوء على حياته بالمقارنة مع أئمة المذاهب الأخرى، فتركت انطبعا يصاحبه جهد يجرُّ به عليه السلام في زاوية يجعله مكافئاً لغيره من أرباب المذاهب.

بعد ذلك وتبعاً للنهضة الإسلامية النامية، ارتقت الكتابة التاريخية حول الأئمة بما فيهم الإمام جعفر الصادق عليه السلام ضمن بنية صيغت مع باقي الأئمة عليهم السلام، باعتبارهم عليهم السلام قد مارسوا أدواراً إلهية في عدد من المراحل، تخضع لمخطط مدروس يستهدف تربية الأمة ويحافظ على الرسالة من جهة ثانية.

ولم يتعمق هذا المنهج الذي فتحه السيد الشهيد الصدر تت في محاضراته التي تشرفت باسم (أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف) ^(٢٠) لأجل إعطاء ثماره، فبقيت بحوثه يتيمة، تفتقر إلى الإضافة والتجديد، فلكي لا تكون الكتابات أسيرة للمنهج القديم لغة ومنهجاً، بل لا بد أن ترتقي وترتفع إلى مستوى الحاجة والمواكبة، فرحلتنا تتطلب هدفاً أعلى، وتستهدف أمراً أكبر من ذلك، لا، بل ينبغي أن يستلّ الهدف من العقيدة نفسها بمعنى طرح الإمام وسيرته حين نخطب أو حين نناقش أو نرد من جهة أخرى، أي أن هذه المرحلة تدعونا في كل يوم أن نحكي حياته، ونستنطقها لنحصل منها على الدروس بهدف البناء والإعمار. من هنا نحاول أن نلقي ضوءاً على أحاديث الإمام عليه السلام التي تمثل مجاراً زاخرة بالعلوم والمعارف، مع شرح موجز ومختصر لها، وبمستوى ما تتطلبه الحاجة ضمن عدد من الفقرات.

صادقنا عليه السلام ومدعي الإمامة كذباً

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ^(٢١).

إن من أبرز المصاديق العلمية للكذب على الله هو أن يدعي الإمامة من ليس أهلاً لها، وجاء في تفسير هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من زعم أنه إمام وليس بإمام»، قال السائل للإمام عليه السلام: «وإن كان علويًا فاطمياً؟ قال عليه السلام: «وإن كان علويًا فاطمياً»، قال السائل للإمام عليه السلام: «وإن كان من ولد علي بن أبي طالب عليه السلام؟ قال عليه السلام: «وإن كان من ولد علي بن أبي طالب» ^(٢٢).

وإذا كان ادعاء الإنسان المعرفة بالطبابة والتمريض قد يتسبب في قتل عشرات الناس الذين يتعالجون عنده، فإن ادعائه الإمامة والرئاسة كذباً سوف يفسد كل

شيء. وكذلك فإن من نسب إلى رسول الله ﷺ أو إلى الإمام المعصوم حديثاً مختلفاً، اعتبر كاذباً على الله، لأنهم لا ينطقون عن الهوى.

لهذا فقد ورد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «من تحدث عنا بحديث فنحن سائلوه عنه يوماً، فإن صدق علينا فإنما يصدق على الله وعلى رسوله، وإن كذب علينا فإنه يكذب على الله ورسوله، لأننا إذا حدثنا لا نقول قال فلان وقال فلان، إنما نقول قال الله وقال رسوله» ثم تلا هذه الآية ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ...﴾ (٢٣).

الحديث المذكور يبين وبصورة واضحة أن أئمة أهل البيت الأطهار لم يقولوا شيئاً من عندهم، وأن كل الأحاديث التي وردت عنهم صحيحة وموثوقة، لأنها تعود إلى رسول الله ﷺ، وهذه الحقيقة مهمة جداً، وعلى علماء الإسلام ﷺ أن يلتفتوا إليها، فالذين لا يقبلون بإمامة أهل البيت عليه السلام، عليهم أن يقبلوا بأن الأحاديث التي يروونها أئمة أهل البيت عليه السلام إنما هي منقولة عن رسول الله ﷺ.

صادقنا عليه السلام ومتطلبات العصر

قال الإمام الصادق عليه السلام: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوالب» (٢٤).

كما يعلم قارئ الكريم أن لكل عصر خصائصه وضروراته ومتطلباته، وهي تنطلق من الأوضاع الاجتماعية والمتغيرات الفكرية والمستجدات الثقافية الطارئة على مفاصل الحياة في ذلك العصر. ولكل عصر مشاكله وملابساته الناتجة عن تغيير المجتمعات والثقافات، وهو تغيير لا ينفك عن مسيرة المجتمع التاريخية. المفكر الفاعل في الحياة الاجتماعية هو ذلك الذي فهم الضرورات والمتطلبات، وأدرك المشاكل والملابسات، وبعبارة أخرى هو الذي استوعب مسائل عصره.

أما أولئك الذين لا يدركون هذه المسائل إطلاقاً، أو لا يتفاعلون معها بسبب عدم انتمائهم إلى عصرهم، أي بسبب فقدانهم عنصر «المعاصرة»، فهم الهامشيون الذين لا يقدرّون على التأثير ولا على المعالجة، بل يقفون دوماً متأسفين ومتحسرين وشاكين ومنتقدين، ويزداد تشاؤمهم ويأسهم باستمرار حتى يقعوا في طامة «الانزواء الاجتماعي».

ذلك لأنهم ما استطاعوا أو ما أرادوا أن يستوعبوا احتياجات عصرهم ومشاكله. هؤلاء يعيشون في ظلام مطبق، وبسبب عدم تفهمهم لأسباب الحوادث وعللها ونتائجها، يفقدون أنفسهم أمام هجوم هذه الحوادث، ويرتّبكون ويخافون ويظلون دون خطة للمواجهة والدفاع، وبما أنّ مسيرتهم في الظلام، فسوف تزل قدمهم في كل خطوة.

صادقنا ﷺ والتأكيد على تلاوة سورة الحمد

لسورة الحمد في القرآن الكريم مكانة متميزة من بين سائر سوره الأخرى، لما تحمل من خصائص عدة ومنها: التأكيد على تلاوتها، لأن تلاوتها تبعث الروح والإيمان والصفاء في النفوس، وتقرب العبد من الله، وتقوي إرادته، وتبعده عن ارتكاب الذنوب والانحرافات، ولذلك كانت أم الكتاب صاعقة على رأس إبليس كما ورد عن الإمام الصادق ﷺ: «رَنَّ إبليس أربع رنات: أولهن يوم لعن، وحين أهبط إلى الأرض، وحين بعث محمد ﷺ على حين فترة من الرسل، وحين أنزلت أم الكتاب» (٢٥).

ومن المعلوم أن لفظة «الأم» يعني هنا الأساس والجذر. ومن هذا الفهم يقال: «إن لكل شيء أساساً، وأساس القرآن الفاتحة». وقد جاء عن الإمام الصادق ﷺ قوله:

«من لم يبرئه الحمد لم يبرئه شيء»، انطلاقاً من قول جده رسول الله حيث قال ﷺ في فضيلة هذه السورة: «هي شفاء من كل داء إلا السَّام والسَّام الموت» (٢٦).

صادقنا ﷺ وبدء العمل باسم الله

أليس من الأفضل أن يبدأ الإنسان كل عمل هام ذي قيمة باسم وجود خالدٍ قائمٍ لا يعتريه الفناء؟ فحينما يفكر ويصمم ويعمل، أليس بقوى وطاقات؟ من يملك تلك القوى ومن يمه بتلك الطاقات، أليس هو الله؟ فكل قوة يفكر أو يصمم أو يعمل به، هي آية من آيات الله، باسم الله قبل كل موجة تفكير، وومضة إرادة، وحركة عمل، إنه الله الذي خلقه وهداه، فعليه أن يبتدئ كل شيء باسمه؛ لأن كل شيء هو في الواقع اسم من أسمائه، وآية من آياته الكبيرة، من هنا عليه أن يستمد منه، ولذلك كانت البسملة أول آية في القرآن الكريم.

وطبيعي أن البدء باسم الله الذي تفوق قدرته كل قدرة، سوف يبعث فيه القوة والعزم، والثقة، والاندفاع، والأمل والصمود أمام الصعاب والمشاكل، والإخلاص والنزاهة في الحركة. قال الإمام الصادق ﷺ: «لربما ترك في افتتاح أمر بعض شيعةنا "بسم الله الرحمن الرحيم" فيمتحنه الله بمكروه، لينبهه على شكر الله تعالى والثناء عليه، ويمحو فيه عنه وصمة تقصيره عند تركه قول: "بسم الله"» (٢٧).

وأسماء الله كلها مظاهر رحمته، ورحمته واسعة ومستمرة، ويعبر عن الرحمة الشاملة التي وسعت كل شيء بالرحمن، كما يعبر عن الرحمة الدائمة، التي لم تنزل ولا تزال ولن تنزل في المستقبل بالرحيم. وسوف تتجسد رحمة الله الدائمة في اليوم الآخر بجنت واسعة يختص بها المؤمنون، أما في الدنيا فهو يرحم الجميع، المؤمنين والكافرين، قال الإمام الصادق ﷺ: «والله إله كل شيء، الرحمن بجميع خلقه، الرحيم

بالمؤمنين خاصة»^(٢٨). هذا وتعتبر كلمة «الرحمن» من الأسماء الخاصة بالله، ولا تستعمل لغيره، بينما «الرحيم» صفة تنسب لله ولعباده. وإلى هذا المعنى أشار الإمام الصادق عليه السلام فيما روي عنه: «الرحمن اسم خاص بصفة عامة، والرحيم عام بصفة خاصة»^(٢٩).

صادقنا عليه السلام والارتباط بالناس من خلال الإنفاق

إضافة إلى ارتباط المتقين الدائم بالخالق، لهم ارتباط وثيق ومستمر بالمخلوقين، من هنا قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(٣٠)، يلاحظ أن القرآن الكريم لا يقول: ومن أموالهم ينفقون، بل يقول: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، وبذلك وسع نطاق الإنفاق ليشمل المواهب المادية والمعنوية.

ولكن هل من أنفسنا نعطي شيئاً لله؟ كلا إنما نقتطع جزءاً صغيراً مما أنعم الله علينا فننفق منه، ولكل شيء عطاء مناسب له، فالمال بصرفه، والجاه ببذله، والعلم بنشره، وهكذا، وبعبارة أخرى ينفقون من جميع إمكاناتهم لمن له حاجة إلى ذلك دون توقع الجزاء منه. والحياة الجماعية -أساساً- لا مفهوم لها دونما إنفاق.

الارتباط بالناس في الحقيقة حصيلة الارتباط بالله، فالإنسان المرتبط بالله يؤمن أن كل ما لديه من نعم إنما هي مواهب إلهية مودعة لديه لفترة زمنية معينة، ومن هنا فلا يزعجه الإنفاق، بل يسره ويفرحه؛ لأنه بالإنفاق قسم مال الله بين عباده، وبقيت له نتائج هذا العمل وبركاته المادية والمعنوية، وهذا التفكير يظهر روح الإنسان من البخل والحسد، ويجول الحياة من ساحة لتنازع البقاء إلى مسرح للتعاون؛ حيث يشعر كل فرد بأنه مسؤول أن يضع ما لديه من مواهب تحت تصرف كل المحتاجين، مثل الشمس تفيض بأشعتها على الموجودات دون أن تتوقع من أحد

جزاء. قال الإمام الصادق عليه السلام بشأن تفسير الآية: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: «أن معناه ومما علمناهم يثون»^(٣١).

بديهي أن الرواية لا تريد أن تجعل الإنفاق مختصاً بالعلم، بل إن الإمام الصادق عليه السلام يريد بذكر هذا اللون من الإنفاق أن يوسع مفهوم الإنفاق كي لا يكون مقتصرًا على الجانب المالي كما يتبادر إلى الأذهان لأول وهلة.

ولا شك أن هذا الإنفاق في سبيل الله يأتي نتيجة مباشرة للإيمان بالله وعلامة على عمق اليقين بأن الله هو القادر على الكون، وأنه واهب الحياة والغنى والملك والهدى. وشخصية المسلم تتميز بأنها معطاءة، وعطائها ليس من أجل شهرة أو رياء، بل في سبيل الله، ووفق المنهاج الذي رسمه له الله.

وهناك آية قرآنية شريفة تشير إلى أحد الموانع المهمة للإنفاق، وهو الوسواس الشيطانية التي تخوف الإنسان من الفقر والعوز، وخاصة إذا أراد التصدق بالأموال الطيبة والمرغوبة، فتقول الآية في هذا الصدد: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ﴾ أي يخوفكم ﴿الْفَقْرَ﴾ إن تصدقتم بطيب المال، فلا تستجيبوا لصراخ الشيطان الذي يناديكم من داخل أنفسكم: لا تنفقوا لأنكم سوف تصبحون فقراء لو أنفقتم، أو يقول لكم: لا تنسوا مستقبل أطفالكم وتدبروا في غدكم، وأمثال هذه الوسواس المظلمة، كلا وألف كلا.. إن الإنفاق يدور الثروة بين الناس، ويسبب انتعاش الاقتصاد، وبالتالي استفادة الجميع، وحين يدعوكم إلى العطاء، فإنه يدعوكم إلى أفضل منه.

ومن جهة أخرى، الشيطان يخوفكم من الفقر، فتمسكون أيديكم فيكرهكم الناس، وتنتشر البغضاء، وتتولد الفحشاء من خلال التسليم لوسواس الشيطان ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾، إذ أن منشأ كثير من المعاصي والانحرافات الجنسية هو الفقر والحاجة. أو ليس الأفضل هو الإنفاق، حتى ينتشر بدل الحقد، المحبة والوئام.

نعم، فالإنفاق يعتبر ضمانا للمجتمع، وتحكيما للعدل الاجتماعي، وتقليلًا للفواصل الطبقية، وتقدما في كل شيء.

إذن، اتضح لنا مما تقدم: أن الشيطان بوساوسه الكثيرة، وبأشكالها المختلفة يريد أن يخيف الإنسان من خلال اختلاقه لتبعات تكون نتيجة لإنفاقه وهي باطلة.

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾، جاء في تفسير «مجمع البيان» عن الإمام الصادق عليه السلام: «أن في الإنفاق شيئين من الله، وشيئين من الشيطان، فاللذان من الله هما غفران الذنوب والسعة في المال، واللذان من الشيطان هما الفقر والأمر بالفحشاء». وعليه فإن المقصود بالمغفرة هو إحلال السلام داخل المجتمع، بالإضافة إلى تزكية النفس من رواسب الذنوب حيث تغفر له، فينجو من النار في الآخرة. والمقصود بالفضل هو مردود العطاء في سبيل الله؛ حيث ينزل بالطبع على المنفق بالخير الكثير. ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي يسع الله أن يعطي ما وعد به فتزداد رؤوس الأموال بالإنفاق. ﴿عَلِيمٌ﴾^(٣٢) بمن ينفق فيجازيه خيرا من لدنه.

صادقنا عليه السلام ورأيه في كنز الأموال

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لشيئتنا أن ينفقوا مما في أيديهم في الخيرات، وما بقي فهو حلال لهم، إلا أنه إذا ظهر القائم حرم جميع الكنوز والأموال المدخرة حتى يؤتي بها إليه ويستعين بها على عدوه، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾^(٣٣).

طبعا هناك كلام بين المفسرين في شأن الآية التي ذكرها الإمام الصادق عليه السلام في هذا الحديث، وهي تمثل قانونا كلياً في شأن أصحاب المال وذوي الثراء الذين يكتزون أموالهم.

والفعل «يَكْنِزُونَ» مأخوذ من مادة «الكنز» وهو المال المدفون في الأرض، وهو في الأصل جمع أجزاء الشيء، ومن هنا سمي البعير ذو اللحم الكثير بأنه «كناز اللحم» ثم استعمل الكنز في جمع المال، وادخاره ودفنه، أو في الأشياء القيمة غالية الثمن. فبناءً على ذلك فإن الكنز ملحوظ فيه الجمع والإخفاء والمحافظة.

وكانت المبادلات التجارية بين المجتمعات البشرية آنذاك تتم سلعة بسلعة، فتباع ما زادت عن الحاجة من المحاصيل الزراعية أو الدواجن بجنس آخر، أو بضاعة أخرى؛ لأن النقد «الدينار والدرهم» لم يكن آنئذ، لكن لما كانت المبادلة -أعني مبادلة الأجناس أو البضائع- تحدث بعض المشاكل أو المصاعب، لعدم وجود ما يحتاجه البائع دائماً، فقد يكون هناك شيء آخر -مثلاً- يراد تبديله، فقد دعت الحاجة إلى اختراع النقد. وقد كان وجود الفضة، بل الأهم منه وجود الذهب، مدعاة إلى تحقيق هذه الفكرة، وهي أن تمثل الفضة القيمة الدانية، وأن يمثل الذهب القيمة الغالية، وبهما اتخذت المعاملات رونقاً جديداً بارزاً. فبناءً على ذلك فإن الحكمة الأصيلة من النقد -الذهب والفضة- هي سرعة تحرك عجلة المبادلات الاقتصادية. أما الذين يكتزون الذهب والفضة، فهم لا يكونون سبباً لركود الوضع الاقتصادي والضرر بالمجتمع فحسب، بل إن عملهم هذا مخالف لفلسفة ابتداع النقد واختراعه.

فالآية محل البحث تحرم مثل هذا الكنز وجمع المال، والثروة بصراحة، وتأمّر المسلمين أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله وما فيه نفع عباد الله، والمراد من سبيل الله هو كل خير، مثل الدفاع عن المظلومين والمستضعفين، وإعانة الفقراء والمساكين، والعمل من أجل الوطن، وهكذا.

وإذا لم يكن أهل الدنيا يعرفون أهمية هذا الدستور الإسلامي بالأمس، فنحن نستطيع أن ندركه جيداً؛ لأن الأزمات الاقتصادية التي ابتلي بها البشر نتيجة

احتكار الثروة من قبل جماعة أنانية، وظهورها على صورة حروب وثورات وسفك دماء غير خاف على أحد أبداً.

أما عذاب الله الذي ينتظر هؤلاء -أي الجماعة الأنانية التي تكنز المال- هو أن ربنا سبحانه سوف يحمي هذه النقود يوم القيامة حتى تلتهب في نار جهنم الحامية الشديدة التوقد، ثم يضعها على جوانبهم كجباههم وجنوبهم وظهورهم ليحرقوا بها، ويقال لهم: هذا عاقبة الأموال المكنوزة، فبدلاً من تحقيق هدفهم منها أصبحت ضرراً ولم تكن خيراً لهم فينتفعوا بها، حيث أن عاقبتها كانت ناراً لاهبةً تكوي أطرافهم، كما في الآية التالية للآية المتقدمة -مورد البحث- إذ تقول: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾ أي على هذه الأموال والكنوز ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ ويقال لهم ﴿هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (٣٤).

وهنا سؤال وهو: أي قدر من المال المخزون يعتبره الإسلام كنزاً؟ هل هو الزيادة على حاجة الفرد، أم هو أكثر من أربعة آلاف دينار؟ أم هو المال الذي لا ينفقه الفرد في سبيل الله، ولا في بناء المجتمع -صناعياً أو عمرانياً أو زراعياً أو تجارياً- ولا يدخره لحاجة شخصية محتملة مثل المرض أو عائلة، أم ماذا؟

قد يكون الكنز بالذات حراماً للفلسفة المالية التي أشرنا إليها سابقاً حيث يسبب مضرة بالمجتمع، وربما كان اختلاف الظروف سبباً في اختلاف الأحاديث المأثورة في حرمة الكنز، ونحن نذكر بعضها للأهمية البالغة لهذا الموضوع الحساس في ظروف يتحالف فيها أديعاء الدين مع مستغلي الشعوب المحرومة ومصاصي دمائهم وذلك تحت غطاء حق الملكية الفردية التي يقرها الإسلام، ولكن في حدود المصلحة الاجتماعية، أما الأحاديث فهي التالية:

أ- قال رسول الله ﷺ: «كل مال تودي زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع

أرضين، وكل مال لا تؤدي زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض»^(٣٥).

ب- روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «ما زاد على أربعة آلاف^(٣٦) فهو كنز

أدى زكاته أو لم يؤدها، وما دونها فهي نفقة، فبشرهم بعذاب أليم»^(٣٧).

ج- وفي حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «إن الله حرم كنز الذهب والفضة، وأمر

بإنفاقه في سبيل الله»^(٣٨).

ما دام القانون يحدد المصلحة العامة، فإن اختلاف الأحاديث يدل على الظروف

المختلفة.

صادقنا عليه السلام ولون السماء

لا ريب في أن أشرف العلم - كما يعلم قارئ الكريم - هو معرفة الله، ولا تتم

المعرفة من دون الإيمان، إذ تبقى الشهوات وصفة الشرك كالسدود المنيعة التي لا تدع

تيار المعرفة ينفذ إلى القلب. فالجاحد في الطيور التي تسبح في الفضاء إلا ما تسجله

أداة التصوير، بينما المؤمن تنفذ بصيرته إلى معرفة الله الذي سخر الطيور في جو

السماء، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ﴾.

المراد من «الجو» لغة: هو الهواء^(٣٩). أو ذلك الجزء من الهواء البعيد عن

الأرض^(٤٠). وبما أن الأجسام تنجذب إلى الأرض طبيعياً فقد وصف القرآن الكريم

حركة الطيور في الهواء بالتسخير، أي أن الباري سبحانه قد جعل في أجنحة الطيور

قوة وفي الهواء خاصية، تمكنان الطيور من الطيران في الجو على رغم قانون الجاذبية،

فلولا الهواء المحيط بالأرض لما كانت الطيور قادرة على البقاء في الجو، ولولا الجاذبية

المحيطة بالأرض لقتفت الطيور بمجرد صعودها في كرة أخرى أو في الفضاء

اللامتناهي.

هذا وقد سميت السماء سماء لعلوها عن الأرض، وكل شيء كان فوق شيء فهو لما تحته سماء. من هنا فإن المراد من ﴿جَوِّ السَّمَاءِ﴾ هو الطبقة الهوائية الكثيفة المحيطة بالكرة الأرضية، ويبلغ سمكها عدة مئات من الكيلومترات.

من الشواهد الدالة على أن أحد معاني السماء هو «جو الأرض» حديث الإمام الصادق عليه السلام «للمفضل» عن السماء فيقول: «فكر في لون السماء وما فيه من صواب التدبير، فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة للبصر وتقوية...»^(٤١). ومن الواضح أن زرقة السماء ليست إلا لون الهواء الكثيف المحيط بالأرض، ولهذا فإن المقصود بالسماء في هذا الحديث هو جو الأرض نفسه.

صادقنا عليه السلام وجدور الشرك في أفكار وأقوال وضمائر المؤمنين

لا بد من التأكيد على أن الشرك بالله لا ينحصر باتخاذ الأوثان الحجرية والخشبية آلهة من دون الله كما يفعل الوثنيون، أو القول بأن الله ثالث ثلاثة كما يقول النصارى. بل إن للشرك معنى أوسع وصورا وأشكالا مختلفة ومتنوعة أكثر ضمورا وخفاء، وبشكل عام كل اعتقاد بوجود أشياء له نفس تأثير الله في الحياة هو نوع من الشرك.

فالإيمان ليس هو الاعتقاد بوجود الله فقط، وإنما يراد بالمؤمن المخلص هو الذي لا يعتقد بأي معبود سوى الله، ولا يضع طوق العبودية في رقبتة لغيره، ويمتثل بقلبه وروحه لكل الأوامر الإلهية ولو كانت مخالفة لهواه، هذا هو الإيمان الخالص من الشرك في العقيدة والقول والعمل. قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن الشرك أخفى من ديب النمل»^(٤٢).

وهو أن يقول: والله، وحياتك يا فلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبه هذا لأتانا

للصوص البارحة، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت... هذا كله به شرك^(٤٣).
ويا للأسف أن مثل هذه التعابير التي يشتم منها رائحة الشرك رائجة بين سواد
المسلمين، وغير لائقة بالشخص الموحد، كقولهم: اعتمادي على الله وعليك!!
عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا
وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٤٤)، قال عليه السلام: «قول الرجل لولا فلان هلكت، ولولا فلان لأصبت كذا
وكذا، ولولا فلان لضاع عيالي»^(٤٥). ألا ترى أنه قد جعل الله شريكاً في ملكه يرزقه
ويدفع عنه؟ قال الراوي، قلت: فيقول: لولا أن الله منّ علي بفلان هلكت؟
قال عليه السلام: لا بأس^(٤٦).

صادقنا عليه السلام والتمثيل الإلهي بالبعوضة

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾^(٤٧).

لا شك لقارئ الكريم أن الأمثلة المناسبة لها أهمية ودور حساس في بيان
الحقائق، وفي التوضيح والإقناع والإفهام. المثال المناسب قد يقرب طريق الفهم إلى
الأذهان بحيث نستعيض به عن الاقتحام في الاستدلالات الفلسفية المعقدة. وأهم من
ذلك، نحن لا نستطيع أن نستغني عن الأمثلة المناسبة في تعميم ونشر الموضوعات
العلمية الصعبة بين عامة الناس. ولا يمكننا أن ننكر دور المثال في إسكات الأفراد
المعاندين اللجوجين المتعنتين.

على كل حال، تشبيه «المعقول» بـ«المحسوس» أحد الطرق المؤثرة في تفهيم
المسائل العقلية، على أن يكون المثال -كما قلنا- مناسباً، وإلا فهو مزل وخطر.
من هنا في القرآن أمثلة كثيرة رائعة شيقة ومؤثرة، ذلك لأنه كتاب لجميع
البشر على اختلاف عصورهم ومستوياتهم الفكرية، إنه كتاب في غاية الفصاحة

والبلاغة، ومع أن المعاندين اتخذوا من صِغَر البعوضة والذبابة ذريعة للاستهزاء بالأمثلة القرآنية، لكنهم لو أنصفوا وأمعنوا النظر في هذا الجسم الصغير، لرأوا فيه من عجائب الخلق وعظيم الصنع والدقة ما يحير العقول والألباب.

يقول الإمام الصادق عليه السلام بشأن هذا الحيوان الصغير: «إنما ضرب الله المثل بالبعوضة لأن البعوضة على صغر حجمها خلق الله فيها جميع ما خلق في الفيل مع كبر وزيادة عضوين آخرين، فأراد الله سبحانه أن ينبه بذلك المؤمنين على لطيف خلقه وعجيب صنعته»^(٤٨).

خرطوم هذا الحيوان الصغير يشبه خرطوم الفيل، أجوف ذو فتحة دقيقة جدا، وله قوة ماصة تسحب الدم. منح الله هذا الحيوان قوة هضم وتمثيل ودفع، كما منحه أطرافا وأذنا وأجنحة تتناسب تماما مع وضع معيشته، هذه الحشرة تتمتع بحساسية تشعر فيها بالخطر بسرعة فائقة وتفر عندما يداهما عدو بمهارة عجيبة، وهي مع صغرها وضعفها يعجز عن دفعها كبار الحيوانات.

صادقنا عليه السلام وتعريفه لجنة آدم عليه السلام

بيدوا أن الجنة التي مكث فيها آدم عليه السلام قبل هبوطه إلى الأرض، لم تكن الجنة التي وعد بها المتقون، بل كانت من جنات الدنيا، وصقعا منعما خلابا من أصقاع الأرض، كما يستفاد هذا من حديث روي عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول فيه بعدما سئل عنجنة آدم عليه السلام، فقال عليه السلام: «جنة آدم من جنات الدنيا، يطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنات الآخرة ما خرج منها أبدا»^(٤٩).

للأدلة التالية:

١- لأن الجنة الموعودة في القيامة نعمة محكومة بالخلود، فلا يمكن الخروج منها.

٢- ليس لإبليس الملعون طريقا للجنة يوم القيامة، وليس لوسوسته مكان هناك.

٣- أن الجنة الموعودة هي جنة الجزاء، ولم يكن آدم عليه السلام قد قام آنذاك بعمل حتى يستحقها، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أي أتظنون أيها المؤمنون ﴿أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بمجرد التمني؟ كما هي حالة البشر يمضي نفسه بأشياء كثيرة، وهي بالخيال أشبه منها بالواقع، يمضي نفسه بالثروة بلا تعب، وبالسلطة بلا كفاءة، وبالشهرة بلا استحقاق، ويحتاج البشر إلى أن يتذوق مرارة الحياة عشرات المرات، حتى يقتنع أن تلك الأمنيات كانت أحلاما صبيانية، وكذلك يمضي بعض المؤمنين أنفسهم بالجنة بلا عمل صالح ولا تضحية، ويحذرهم القرآن الكريم من هذه الأمنية الباطلة، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾^(٥٠).

صادقنا عليه السلام وسبيل التغلب على الصعاب والمشاكل

هناك منطلقان أساسيان للتغلب على الصعاب والمشاكل ذكر في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٥١). كيف نحارب النفاق والتلون؟ وكيف نقول بما نعمل، ونعمل بما نقول، ونتجاوز بالتالي المسافة بين الادعاء والواقع؟
الجواب: بالإرادة القوية، ولكن كيف نقوي الإرادة؟ إن الإرادة بحاجة إلى تدريب حتى تقوى، فهي كأى شيء في الإنسان تنمو كلما استثمارها الإنسان أكثر فأكثر، العضلات تشتد بالرياضة، والأعصاب تقوى بمواجهة المشاكل، والفكر ينمو باستخدامه، وهكذا الإرادة تنمو كلما استفاد الإنسان منها، جرب ذلك وصمم على القيام بعمل صعب، إنك سوف تجد صعوبة في ممارسته أول مرة، ولكن كلما قمت به أو قمت بامتثاله قلّت صعوبته.

وهذه الإرادة تتولد من خلال «الصبر» باعتباره حالة الصمود والاستقامة والثبات في مواجهة المشاكل، كلمة «الصبر» فسرت في روايات كثيرة بالصوم، لكنها لا تنحصر به حتماً، بل الصوم أحد المصاديق الواضحة للصبر؛ وروى بعض المفسرين في تفسير الآية: أن النبي ﷺ كان إذا أزنه أمر استعان بالصلاة والصوم^(٥٢). وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غم من غموم الدنيا أن يتوضأ ثم يدخل المسجد ويركع ركعتين يدعو الله فيهما، أما سمعت الله يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾».

فالصلاة تعتبر أفضل استثمار للإرادة، وبالتالي أفضل وسيلة لتنميتها، إنك حين تصلي لله تقاوم الذاتية في نفسك، وتحارب التوقع داخل زنزانية المصالح، وبتعبير أوجز تحارب الشيطان بكل جنوده. وفي كتاب «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام: «كان علي عليه السلام إذا هاله أمر فزع إلى الصلاة ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾».

نعم، الصلاة تربط الإنسان بالقدرة اللامتناهية التي لا يقهرها شيء، وهذا الإحساس يبعث في الإنسان قوة وشهامة على تحدي المشاكل والصعاب. فحين الصلاة تهجم على الإنسان وساوس الشيطان لتبعده عن الاتصال بالله فتراه يركز نظره في الله، والشيطان يصرفه إلى شيء آخر غير الله، إلى الدراسة مثلاً أو إلى التجارة، أو إلى مشاكل البيت، أو... أو... وهو لا يزال في حالة حرب حتى تنتهي الصلاة، وهكذا سمي محل إقامة الصلاة «محراباً» لأنه فعلاً موقع حرب. ويتلخص لنا مما سبق: أن الصبر والصلاة يمثلان قوتان هائلتان يجب الاستعانة بهما للانتصار على الضعف الداخلي. ولقائل أن يقول: ولكن الاستعانة بالصبر والصلاة، صعبة هي الأخرى، فكيف نصبر وكيف نصلي؟

الجواب: علينا أن نخشع ونذل غرور أنفسنا وكبريائها الكاذب، بالتفكر الدائم في الآخرة حيث نتصور أنفسنا وقوفاً أمام الله في المحكمة الكبرى، حيث ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، وأعظم ما يستبعد البشر في الدنيا حب المال والبنين، فإذا تحرر من عبادتهما فقد فاز ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٥٣)، فإذا سلم القلب سلمت الجوارح، وسلامة القلب بتطهيره من حب الدنيا، لأن الدنيا رأس كل خطيئة، كما عن الإمام الصادق عليه السلام^(٥٤). وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً في تفسير الآية المذكورة: «القلب الذي سلم من حب الدنيا»^(٥٥).

صادقنا عليه السلام وحق تلاوة القرآن الكريم

إن المؤمن الحقيقي هو الذي لا يحرف القرآن الكريم بل يتلوه حق تلاوته، كما قال الله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾^(٥٦)، وهو تعبير عميق يرسم لنا سبيلاً واضحاً تجاه هذا الكتاب العظيم، فالناس أمام الآيات الإلهية على أقسام: قسم يكرسون اهتمامهم على أداء الألفاظ بشكل صحيح وعلى قواعد التجويد، ويشغل ذهنهم دوماً الوقف والوصل والادغام والغنة في التلاوة، ولا يهتمون إطلاقاً بمحتوى القرآن فما بالك بالعمل به! وهؤلاء بالتعبير القرآني ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾^(٥٧). فهم إنما راحوا يتشبثون بالقشور، ويتهربون باسمه من الالتزام بمسئولياتهم تجاه الرسالة الإلهية، والله تعالى يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(٥٨)، فالقرآن الكريم يلغي أي تصور محدود عرقي أو قومي للرسالة الإسلامية بأنها تخص طائفة دون أخرى. بلى إن رسالة الله فضل عظيم، ولكن أحداً لا يبلغ الفضيلة والكرامة بها إلا بعمل وتحمل للمسؤولية، وإلا فسوف يكونون كما وصفهم الله تعالى في الآية المتقدمة كمثل الحمار يحمل على ظهره كتباً عظيمة، ينقلها من مكان إلى مكان وهو

لا يدري ما تحتويه من كنوز علمية ذات معارف وجواهر الحكم، ولكنه لا ينتفع بها شيئاً، بل ينال منها تعباً. وفي هذا التشبيه دقة بالغة، فإن حمل قرآن الرسالة الإسلامية ليس باقتناء نصوصه في الجيب ورفوف المكتبة أو بجمعها وحملها على الرأس والكتف، كلا... وإلا فالحمار أقدر على حمل عدد أكثر ووزن أكبر من أسفار الرسالة.

وقد نظّم الشعراء في هذا المثل شعراً لعل أطره قول بعضهم:

إن الرواة على جهل بما حملوا مثل الجمال عليها يُحمل الودعُ
لا الودع ينفعه حمل الجمال له ولا الجمال بحمل الودع تنتفعُ

وليس من أحد يشك في أن الانحراف الذي وصلت إليه الأمة الإسلامية كان بسبب أدعياء العلم والدين، أو ليس اليوم يجابون الإسلام باسم القرآن المظلوم؟ ويحرفون آياته الشريفة عن مواضعها فيجعلونها مسوغاً للطغاة لممارسة الظلم والإرهاب ضد الناس؟ ليحصلوا على دراهم معدودات من المترفين والمستكبرين. وهناك قسم آخر من الناس تجاه الآيات القرآنية، وهم الذين يتجاوزون إطار الألفاظ، ويتعمقون في المعاني، ويدققون في الموضوعات القرآنية، ولكن لا يعملون بما يفهمون.

وقسم ثالث، وهم المؤمنون حقاً، يقرأون القرآن باعتباره كتاب عمل، ومنهج كامل للحياة، ويعتبرون قراءة الألفاظ والتفكير في المعاني وإدراك مفاهيم الآيات الكريمة مقدمة للعمل، ولذلك تصحو في نفوسهم روح جديدة كلما قرأوا القرآن، وتتصاعد في داخلهم عزيمة وإرادة واستعداد جديد للأعمال الصالحة، وهذه هي التلاوة الحقة.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: «يرتلون آياته، ويتفقهون به، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره، ويتتهون بنواحيه، ما هو والله حفظ آياته، ودرس حروفه، وتلاوة سورة، ودرس أعشاره وأخماسه^(٥٩)، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنما هو تدبر آياته والعمل بأحكامه، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾^(٦).

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾، فالقرآن أنزل لكي يعطي للإنسان المؤمن البصيرة والرؤية السليمة في الحياة، وهذا لا يمكن بالمطالعة السطحية، بل لا بد من تفكير عميق في الآيات.

والهدف الآخر بعد إدراك البصيرة أن تنعكس على حياة الإنسان فيتذكر بها ويصحح من خلالها في التفكير، وفي العمل منهجه. لأن العاقل هو الذي يعرف قيمة القرآن وأهميته، وهو الذي يتعرف على بصائره، ولا شك أن الذي يحكم عقله في الحياة هو الذي يستفيد من القرآن، أما الآخر الذي تحكمه شهواته فلن يتذكر به أبداً. من هنا قال الإمام الصادق عليه السلام: «من لم يعرف الحق من القرآن لم يتنكب الفتن»^(٦١). وقال عليه السلام: «من قرأ القرآن -مع تأديته لحق تلاوته- فهو غني ولا فقر بعده، وإلا ما به غني»^(٦٢).

صادقنا عليه السلام ومعيار التدبير

قال الإمام الصادق عليه السلام: «صلاح حال التعايش والتعاشر ملء مكيا، نلشاه فطنة، وثلثه تغافل»^(٦٣).

كما يعلم قارئ الكريم أن أي عمل دون مطالعة وتخطيط وبرامج سوف لا

يكون مستقيماً بل متعرجاً، مما يؤدي به إلى الفشل في الوصول إلى الهدف المراد بدقة. وكذلك لا يتنجز أي عمل دون إقدام وجرأة وإيلائه أهمية فائقة، وبعبارة أفضل وأوضح: إن أردنا القيام بعمل دون تمعن ودقة فإننا سنخفق في ذلك العمل، وإن أردنا الاستغراق في كفاية الاحتمالات الممكنة والحوادث غير المتوقعة حين القيام بالأعمال ففي هذه الحالة لا يسعنا القيام بعمل، وعلينا المطالعة لسنوات من أجل العمل، ومن هنا قال الإمام الصادق عليه السلام: «**ثلاثه فطنة، وثله تغافل**»، فاللازم هو أن يتحرك الإنسان من موقع الجرأة والفطنة لا من موقع الإهمال والوسواس والإفراط في الدقة.

صادقنا عليه السلام وخطورة القلم

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**لم أر باكياً أحسن تبسماً من القلم**»^(٦٤).

كما يعلم قارئ النبيه أن القلم مبين العواطف وترجمان عقل الإنسان، ويعتبر هو المشيد لصرح الحضارات والمحرك لعجلة المجتمع، فالقلم هو الحافظ للعلوم، المدون للأفكار، الحارس لها، وحلقة الاتصال الفكري بين العلماء والقناة الرابطة بين الماضي والحاضر، وبين الحاضر والمستقبل. نعم فالقلم يربط بين بني البشر المتباعدين من الناحية الزمانية والمكانية، وهو مرآة تعكس صور المفكرين على طول التاريخ في كل الدنيا وتجمعها في مكتبة كبيرة. والقلم حافظ للأسرار، مؤتمن على ما يستودع، خازن للعلم، وجامع للتجارب عبر القرون والأعصار المختلفة، فالقلم له دور أساسي في الحياة الإنسانية ومصير البشرية^(٦٥).

ونستوحي من كل ذلك أن موقع القلم هو خدمة الدين والعلم، لا تضليل الناس أو استعبادهم، ولا يكون ذلك إلا إذا تسلح به المؤمنون لينالوا منه الكرامة

والعزة وفتح آفاق العلم، قبل الجبارين الطغاة ومرتزقتهم السفلة، الذين يجعلونها مأجورة مسمومة ومضلة.

فالقلم يشرح بيكائه المتواصل آلام الإنسانية المفجعة، وتختزن ابتساماته حيوية الحب وعشق الحياة وسرها ومختلف صور الجمال. ولكن للأسف إذا وقع هذا القلم بأيدي مأجورة جرت سيول الدماء من قطرات دموعه، وكما تكون ابتساماته استهزاء بأنبل القيم الإنسانية، فيعتبر عندئذ أعظم بلاء وأكبر خطر على المجتمعات الإنسانية.

فما أكثر الجرائم التي ترتكب بواسطة القلم، وما أكثر وقائع الظلم والجور التي تترشح من مداد القلم، وهنيئاً للأقلام التي تتحرك في خط الحق والعدل، وتنتج الخير والفضيلة، وهذا ما أراده الإمام الصادق عليه السلام من حديثه المتقدم، والله العالم، وقد قدّم للأمم انجازات علمية عظيمة على الصعيدين الحاضر والمستقبل، فسلام على روحه الطاهرة، يوم مات ويوم يبعث حياً، وطوبى للمهتدين بهداه.

المواهب:

- (١) الشورى: ٢٣.
- (٢) الشعراء: ١٢٧، نجد ذات الآية مكررة في هذه السورة في الآيات: ١٤٥، و١٤٩، و١٦٤، و١٨٠.
- (٣) سبأ: ٤٧.
- (٤) الأعراف: ١٥٨.
- (٥) ميزان الحكمة ج ١، رقم الحديث ٧٩٥.
- (٦) وسائل الشيعة، الباب ١١ من أبواب صفات القاضي، الحديث ١، نقلته بتصريف بسيط.
- (٧) آل عمران: ٣١.
- (٨) ميزان الحكمة، ج ٢، رقم الحديث ٣١٧٧.

- (٩) نفس المصدر، الحديث ٣١٧٨.
- (١٠) نفس المصدر، الحديث ٣١٩١.
- (١١) نفس المصدر، الحديث ٣٢١٩.
- (١٢) نفس المصدر، الحديث ٣١٣٥.
- (١٣) نفس المصدر، الحديث ٣١٣٦.
- (١٤) نفس المصدر، الحديث ٣١٣٠.
- (١٥) نفس المصدر، الحديث ٣٠٨٩.
- (١٦) تفسير الثقلين، ج ٤، ص ٥٧٣.
- (١٧) نفس المصدر، ص ٥٧٢.
- (١٨) ميزان الحكمة، ج ١، رقم الحديث ٩١٧، وقد وردت من طريق الشيعة، ومن طريق السنة.
- (١٩) يونس: ٣١.
- (٢٠) وقد رتب هذه البحوث وهذبها وحاول توثيقها بشواهد ومصادر تاريخية الأستاذ عادل الأديب في كتابه الأئمة الاثني عشر.
- (٢١) الزمر: ٦٠.
- (٢٢) تفسير البرهان للبحراني، ج ٤، ص ٨٢.
- (٢٣) أصول الكافي، ج ١، ص ٥١، باب رواية الكتب والأحاديث، حديث رقم ١٤.
- (٢٤) ميزان الحكمة، ج ٤، رقم الحديث ٧٦٢٤.
- (٢٥) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤.
- (٢٦) بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٢٣٧.
- (٢٧) نفس المصدر، ص ٢٤٠.
- (٢٨) تفسير الميزان للطبائبي تترجم بتصرف.
- (٢٩) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٢١.
- (٣٠) البقرة، ٣.
- (٣١) تفسير مجمع البيان، وتفسير نور الثقلين، في تفسير الآية المذكورة.

- (٣٢) البقرة، ٢٦٨.
- (٣٣) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣، والآية ٣٤، من سورة التوبة.
- (٣٤) التوبة، ٣٥.
- (٣٥) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣.
- (٣٦) المقصود بها أربعة آلاف درهم لأنها مخارج السنة.
- (٣٧) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية محل البحث، وتفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣.
- (٣٨) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٤.
- (٣٩) كما ذكره الراغب في مفرداته.
- (٤٠) كما ورد في تفسير مجمع البيان، وتفسير الميزان.
- (٤١) بحار الأنوار، الطبعة الجديدة، ج ٣، ص ١١١.
- (٤٢) ميزان الحكمة، ج ٥، رقم الحديث ٩٣١٢.
- (٤٣) من تفسير في ظلال القرآن، ج ١، ص ٥٣، بتصرف.
- (٤٤) يوسف: ١٠٦.
- (٤٥) سفينة البحار، ج ١، ص ٦٩٧.
- (٤٦) ميزان الحكمة، ج ٥، رقم الحديث ٩٣٠٩، بتصرف.
- (٤٧) البقرة: ٢٦.
- (٤٨) تفسير البرهان للبحراني، ج ١، ص ٧٢.
- (٤٩) كتاب الكافي، نقلا عن تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٢.
- (٥٠) آل عمران: ١٤٢.
- (٥١) البقرة: ٤٥.
- (٥٢) تفسير مجمع البيان للطبرسي، ذيل الآية المذكورة.
- (٥٣) الشعراء: ٨٨ - ٨٩.
- (٥٤) ميزان الحكمة، ج ٣، رقم الحديث ٥٨١٥، بتصرف بسيط.
- (٥٥) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ١٦١، طبعة بيروت.

- (٥٦) البقرة: ١٢١.
- (٥٧) الجمعة: ٥، والمراد من ﴿أَسْفَارًا﴾ أي كتباً.
- (٥٨) المدثر: ٣٨.
- (٥٩) المقصود من الأعشار والأخماس تقسيمات القرآن.
- (٦٠) الرواية من تفسير الميزان، ومن ميزان الحكمة، ج ٨، رقم الحديث ١٦٢١٧، مع فارق بسيط، والآية الكريمة من سورة ص: ٢٩.
- (٦١) ميزان الحكمة ج ٨، رقم الحديث ١٦١١٩.
- (٦٢) نفس المصدر، بتصريف توضيحي في الرواية برقم ١٦١٤٣.
- (٦٣) ميزان الحكمة، ج ٧، رقم الحديث ١٤٩٢٣.
- (٦٤) نور الحقيقة ونور الحديقة، ص ١٠٩.
- (٦٥) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٥٦، انظر حديث رقم ١٤، ١٦، ١٧، ١٩، ١٨، ٢٠، هذا وقد استقيت الكثير من الأفكار والرؤى بعد القرآن الكريم، والسنة الشريفة من خلال الموسوعة الإسلامية والتفسيرية المختلفة ومن هنا وهناك بتصريف.

بحث حول نشأة التشيع

صديق جعفر علي اللواتي

نظرة في نشأة التشيع

يعتبر المذهب الشيعي من أبرز المذاهب الإسلامية تواجدا في العالم الإسلامي وعلى قول إنه يأتي في المرتبة الثانية بعد الأشاعرة (السنة) فيشكل الشيعة اليوم ثلث المسلمين بناء على هذا القول، وقد تعددت الآراء في سبب نشوء مذهب التشيع فبعض ذهب إلى أن أساس هذا المذهب كان بعد بيعة السقيفة فذهب ثلثة من أصحاب أمير المؤمنين - أمثال المقداد وعمار وسلمان وأبي ذر الذين عُبر عنهم بالأربعة في الروايات الشريفة وتتابع الآراء في نشأة هذا المذهب - فمنهم من قال: إن بدايته كانت مع زوال خلافة عثمان بن عفان واستلام أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة السياسية وذلك لمناسبة الأجواء آنذاك لاحتضان دعوة الولاية للإمام علي عليه السلام. لم تقف النظريات عند هذا الحد فمنها من ذهب أن بداية التشيع كان بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام بكر بلاء وتحديداً مع حركة التوابين الذين سمي زعيمهم سليمان بن صرد الخزاعي بشيخ الشيعة مع وجود قول إن المختار الثقفي هو الذي كان وراء تأسيس التشيع، أما أضعف الأقوال وأوهنها ما ذهب إليه بعض السلفية في أن الذي أسس مذهب الشيعة هو عبدالله بن سبأ اليهودي.

وقد عزى السيد محمد باقر الصدر رحمته الله اعتقاد الباحثين أن التشيع ظاهرة طارئة في المجتمع الإسلامي هو أن الشيعة لم يكونوا يمثلوا إلا جزءاً ضئيلاً من مجموع الأمة الإسلامية وهذا ما دعى البعض إلى الاعتقاد بأن اللاتشيع هو الأصل والقاعدة، وأن

التشيع هو الاستثناء والظاهرة الطارئة التي يجب اكتشاف أسبابها.

من هم الشيعة؟

قبل أن نخوض في أي بحث لا بد أن نعرّف الذي نريد البحث عنه وعليه فإن تعريف الشيعة سيكون في ثلاث جهات:

١- ما هو المقصود بالشيعة لغة؟

٢- من هم الشيعة في اصطلاح المسلمين؟

٣- من هم الشيعة في مقام هذا البحث؟

لغة: تعني الفرقة من الناس كما جاء في لسان العرب ويطلق أيضاً على الأتباع، وأطلق المسلمون مصطلح الشيعة على كل من شايح أمير المؤمنين بمختلف فرقهم ومذاهبهم فمنهم الزيدية والإسماعيلية والغلاة والواقفة على رأي أن كل إمام كان واجه واقفية في زمنه إلا أنهم في عهد الإمام الرضا أي الذين وقفوا على الإمام الكاظم كانوا أقوى من غيرهم باعتبارهم أعمدة التشيع ووكلاء الإمام الكاظم عليه السلام. ومن هنا يظهر أن المقصود بالشيعة في المقام هم الشيعة الاثنا عشرية الذين يوالون أئمة أهل البيت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى الحجة بن الحسن المنتظر عليه السلام وهنا أشير أن آية الله العظمى الشيخ جواد التبريزي تدئ أفرد رسالة جمع فيها الروايات الصحيحة الواردة في تعيين أسماء الأئمة الاثني عشر منصوص عليهم من النبي والأئمة واحدا تلو الآخر بخلاف ما ذهب إليه الإسماعيلية والزيدية وغيرهم.

مناقشة الآراء

الآراء التي ذكرت نشوء التشيع عديدة سأنقل بعضها بحيث إذا عرفنا كيفية الرد

عليها ستكون لدينا صورة عن الأوضاع السائدة في تلك الحقبة الزمنية:

١- الرأي القائل أن الذي أسس مذهب الشيعة هو عبدالله بن سبأ الذي أسلم من اليهودية، وقيل إنه بقى على يهوديته فجاء عند أمير المؤمنين ودرس عنده ثم دعا الناس إلى علي عليه السلام حقدا على الإسلام وبثَّ التفرقة بين صفوفهم وهكذا كانت بداية التشيع كما ذهب القائلون بهذا الرأي فنقول ردا على هذا الادعاء:

أولاً: إن المذهب الذي يعتنق فكرة شخص ما لا بد أن يرجع إليه في أقواله واستدلالاته فيقال قال فلان أو نقل عن فلان حتى يصدق أنهم يرجعون إليه أو يأخذون عنه فلا نرى الشيعة ينسبون شيئا من كلامهم إلى هذا الرجل.

ثانياً: إنك إذا كنت تقول إن فلاناً تلميذ فلان لا بد أن يصدق عرفاً أنه حضر عنده لا أن يقال روى عنه كذا روايات هذا إذا كنا نقول بصدق تلحم الروايات فإن علماء المذاهب الأخرى قبل الشيعة ذهبوا إلى أن هذا الرجل وضَّاع زنديق لا يأخذ بروايته، فلا نرى الشيعة يذكرونه من تلامذة أمير المؤمنين حتى إذا فرضنا أن ما رواه صحيح.

ثالثاً: إن استمرار أي حركة أو فكر باستمرار رجالات ذلك الفكر أي وجود تلاميذ أو أشخاص يتبنون صاحب هذا الفكر أو الاتجاه حتى يكون لهم وجود واستمرارية على مر الأزمان ولا نرى لابن سبأ تلاميذ تبناوا حركته وأخذوا بفكرته فهو رجل اختفى كما ظهر من المغمورين الذين لا يعتد برأيهم أو كلامهم أو حتى سلوكهم.

ولعل الذي دعا أصحاب هذا القول إلى الاقتناع بفكرة عبدالله بن سبأ هو ما نقل عنه أنه كان يقول جاء في التوراة... أن علي بن أبي طالب وصي رسول الله صلى الله عليه وآله و إن كان الشيخ الوائلي يرى أن الذي روَّج لفكرة عبدالله بن سبأ ينطلق

من غايات غير سليمة، هذا حتى نتعرف أن قصة ابن سبأ هذا أكذوبة لا أساس لها من الصحة.

٢- من الآراء التي ذكرت نشوء التشيع علفت ذلك بثورة الإمام الحسين عليه السلام فبعد ذلك نشأ هذا المذهب ومنهم من قال ونقصد بذلك تبلور الفكر السياسي للشيعة، ويتضح ذلك من خلال الثورات التي قام بها الشيعة عقيب مصرع الإمام شهيدا بأرض كربلاء.

يناقش هذا الرأي في جانبين:

أحدهما: أن الذي قال بهذا القول غفل عن وجود أحداث قبل ثورة الحسين هي التي مهدت للثورة وأعني بتلكم الأحداث صلح الإمام الحسن، ومن العجيب أن نطلق على طريق الثورات أنه سياسي ونقول لما ليس ثورة هو لا سياسة، فالسياسة كما يقولون فكر وعمل ليس بالضرورة أن يكون طريق الغلبة هو الثورة دائما، والرجل السياسي يدرك ذلك جيدا فإنه يصل إلى مبتغاه دون اللجوء إلى السيف، بل يمكن أن يكون ذلك متاحا دون سفك الدماء، وهذا ما فعله الإمام الحسن فمن أنصار معدودين على الأصابع إلى اثنين وسبعين شخصا مستعدون أن يضحوا بأرواحهم من أجل الحسين إلى الآلاف المؤلفة الذين فقط تناهى إلى سمعهم مصرع الحسين بن فاطمة، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على الحنكة السياسية للإمام الحسن الذي يعتبره الشيعة إماما معصوما وليا عليهم في كل شيء، وبالنتيجة دلالة لفكر سياسي شيعي متين.

الثاني: إن قولنا أن نشوء التشيع بعد مصرع الحسين بن علي عليه السلام هذا أمر بجانب للحقيقة والصواب؛ لأن الواقع يقول إن وجود ما يسمى بشيعة علي عليه السلام كان

أمرا متعارفا لدى سائر الناس فضلا عن السلطة الأموية المتمثلة بيزيد ومعاوية لعائن الله عليهما، وقد كلف ابن زياد عندما أوفده يزيد واليا على الكوفة مكان النعمان بن بشير قبل وصول الحسين إلى العراق أن يبئد شيعة علي بأجمعهم ولا يبقى لهم باقية، وقد قام ابن زياد بهذا الدور باتقان شديد، بل وصل إلى حد أنه كان يقتل بالتهمة وأرسل جواسيسه أمثال معقل وغير معقل لينقلوا له الصورة عن ما هو سائد في الكوفة ولكن يشاء الله أن تقام ثورة الحسين عليه السلام فتقلب الموازين على أعداء الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

نعم يمكن القول إن ثورة الإمام الحسين ساعدت على بقاء الإسلام كإسلام محمدي النبع خالصا لما آل إليه الوضع بعد حكم يزيد بن معاوية الذي عاث في الأرض فسادا ليمحو صورة الإسلام بل سولت له نفسه أن يتناول على أعظم رمز للمسلمين، وهي الكعبة المشرفة فيضربها بالمنجنيق، فكانت ثورة شهيد كربلاء إحياء للضمائر الميتة ضد حكم الأمويين.

٣- الرأي الثالث والأخير الذي سيناقش في هذا المختصر هو الذي قال إن قيام التشيع كان بعد مقتل عثمان والتفاف الناس حول أمير المؤمنين علي عليه السلام وتسلمه مقاليد الخلافة السياسية. من هنا كانت البداية لنشأة التشيع وظهور مصطلح الشيعة أو شيعة علي عليه السلام.

ويمكن أن نقف مع هذا الرأي وقفة سريعة في جانبين أيضا:

أحدهما: صحيح أن الناس التفت حول أمير المؤمنين عليه السلام طلبا للعدالة الاجتماعية لكن الذين أُطلقت عليهم هذه التسمية أشخاص معدودون اختارهم أمير المؤمنين غير العصبة المخلصة وهم الأربعة فكان من شيعته مالك الأشتر وميثم

التمار ورشيد الهجري ممن عرف أنهم حملوا علم المنايا والبلايا، وهنا أحب أن أشير إلى إشارة أخلاقية أنه ورد عن أهل بيت العصمة: «شيعتنا من اتقى الله» وقال الصادق عليه السلام: «شيعتنا أهل الورع والاجتهاد، وأهل الوفاء والأمانة، وأهل الزهد والعبادة، أصحاب إحدى وخمسين ركعة في اليوم واللييلة، القائمون بالليل الصائمون بالنهار، يزكون أموالهم ويججون البيت ويجتنبون كل محرم»^(١).

الثاني: إن مصطلح الشيعة لم يكن حادثاً أبان الخلاف الظاهرية أو السياسية للإمام علي عليه السلام بل نلاحظ وجود هذه التسمية حتى بعد أحداث السقيفة فوجدت ثلة سميت بالشيعة أو شيعة علي عليه السلام وسيأتي في خضم الكلام أن النبي هو أول من سُمي هذه التسمية.

متى نشأ التشيع؟

بقي أن نتساءل هل فعلاً ما يقال إن التشيع نشأ عقب وفاة النبي وبعد بيعة السقيفة أم قبل ذلك وسيتضح الغموض الناشئ عنه هذا التساؤل عندما نقول:
أولاً: إن النبي صلى الله عليه وآله عندما جاء برسالته العظيمة وأنذر عشيرته الأقربين كما دعت الآيات فبلغ الشهادتين، ثم قال: أيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي من بعدي، فلم يقم من بني هاشم سوى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو لم يتجاوز العاشرة فأخذ النبي برقبته وقال: «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا»^(٢).

نلاحظ أن النبي صلى الله عليه وآله أمر بطاعة أمير المؤمنين عليه السلام ونصبه خليفة قبل أن يأمر بأي شيء لا صلاة ولا صيام بل أول ما فعله أنه نصّب خليفة ووصيا له وأمر الناس بطاعته.

ثانياً: إن النبي ﷺ أوصى غير مرة بطاعة علي عليه السلام واتباعه، منها ما نقله السيوطي بسنده عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي ﷺ فأقبل علي عليه السلام فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة»^(٣)، فنزل قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾^(٤) ولعل آخر إشارات النبي وأكثرها ظهوراً وإن كانت كلها ظاهرة لما جمع الناس في غدِير خم وأمرهم بمبايعة الإمام علي عليه السلام.

يظهر مما ذكر أن الأصل في الإسلام المحمدي هو البقاء على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام فالتشيع ليس ظاهرة جديدة بل نشأته مع نشأة الإسلام بل هو الامتداد الطبيعي للإسلام أو ما عبر عنه السيد محمد باقر الصدر إنه نتيجة طبيعية للإسلام، بل إن اللاتشيع هو الجديد والطارئ على الإسلام فلا يصح أن نقول متى نشأ التشيع لأنك إذا عرفت نشأة الإسلام فقد عرفت نشأة التشيع لأن اتباع علي والائمة الطاهرين من صميم الإسلام وهو عينه ما أمر به النبي الأكرم ﷺ.

الإمام الصادق مؤسس قواعد التشيع

يتبادر إلى الذهن عندما نقول أن الإمام الصادق مؤسس التشيع أن المذهب لم يكن له أساس يعتمد عليه، ولكن بالعكس إن وجود أساس قوي للمذهب متمثلاً بإمامة الاثني عشر عليهم السلام هو الذي حفظ التشيع من الانجراف مع الشبهات والتيارات المختلفة وقد يقال إن الإمام الصادق عليه السلام هو من أسس القواعد الصحيحة في العلوم المختلفة من العقيدة والفقه والتفسير وغيرها بتأسيس جامعته المعروفة وذلك لأن الناس كانوا يعيشون خواءً فكرياً لعاملين رئيسيين:

أولاً: كثرة المسائل المستحدثة العقائدية منها والفقهيّة، والناس لا يعرفون كيفية

الإجابة على تلکم المسائل.

ثانيا: البعد عن زمن النبي الأعظم ﷺ وعدم كفاية الأحاديث التي وصلت في سد الفراغ الذي أصاب الأمة الإسلامية، خصوصا إذا أخذنا بالاعتبار أن المسلمين مروا بتجربة قاسية بمنع تدوين الحديث وغيرها من الفتن.

بملاحظة هذين العاملين ظهرت مدارس تتخبط بيننا وشمالا بإعمال الرأي تارة والاستحسان والقياس تارة أخرى وفي خضم هذه الأزمة ظهر فكر الإمام الصادق عليه السلام فياضا عملاقا ما جعل الناس يشدون إليه الرحال لاشباع حاجاتهم الفكرية وما زاد مصداقية الإمام وانجذاب الناس إليه بالإضافة إلى سيرته الناصعة وأخلاقه الرفيعة مقالته حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث رسول الله ﷺ، فترأى للناس النبي ﷺ في صورة الإمام الصادق عليه السلام كونه حاملا للعلوم النبوية الإلهية فترى العلماء في مختلف البلاد يقولون حدثني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، لكن سرعان ما بدأ ذوو المصالح والسياسيون إبعاد الناس عن الإمام لنشرهم بين الناس أنه يدعو إلى نفسه لكن معين الإمام لم ينضب فاستفاد منه الشيعة وخسره الآخرون فذهبوا لمخالفته مع أنهم حضروا مجلسه ودرسوا عنده أمثال أبي حنيفة النعمان القائل: "لولا السنتان لهلك النعمان".

وبدأ الإمام بتربية أصحابه تربية علمية على مختلف الأصعدة واختار البارزين منهم وأعطاهم القواعد وأمرهم بالتبليغ فعلى سبيل المثال هشام بن سالم ومؤمن الطاق برزوا في الجانب العقائدي فأمرهم بالتصدي في هذا الجانب بقوله لهشام كلم أهل المدينة. أما زرارة بن أعين ومحمد بن مسلم الذي تتلمذ على يد الإمام الباقر ثم الصادق عليه السلام، فكان يقول لزرارة مثلا: أجلس في المسجد وافت الناس فيني أحب أن يرى في شيعتي مثلك... وغيرهم من تلامذة الإمام الذين حملوا فكره ونشروه بين

العباد والبلاد وبصورة عامة، فإن أغلب ما وصل إلينا من أحاديث فقهية أو عقائدية هي من كلام الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، فنلاحظ محمد بن مسلم يقول: حفظت أربعين ألف حديث من أبي جعفر في الحلال والحرام.

وخلاصة القول: صحيح أن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أسسا للمذهب الأصول والفروع العملية لكن هذا لا يعني أن الأئمة الذين سبقوهم لم يقوموا بذلك، بل لأن الحاجة هي التي أبرزت الإمامين كقوة علمية في ذلك الوسط، وهذا ما استدعى تصدي الباقرين الصادقين عليهما السلام لهذا الجانب، والذي لم يكن متاحا في عهد أمير المؤمنين عليه السلام مثلا، أو في عهد الإمام زين العابدين عليه السلام حيث الحصار السياسي وغيره... هذه جملة من أمور كثيرة أدت إلى نسبة الشيعة للإمام الصادق عليه السلام حيث عرفوا بالمجعفرية، إلا أن منشأهم وبدايتهم مع بداية الإسلام العظيم، فالمؤسس الأول للشيعة هو رسول الله صلى الله عليه وآله.

ونسأل الله عز وجل أن يعجل في فرج إمامنا صاحب العصر والزمان ويوفقنا لتطبيق الإسلام الذي أسسه رسول الله صلى الله عليه وآله وحافظ عليه أهل البيت ويجعلنا من الثابتين على ولاية أمير المؤمنين والأئمة المعصومين عليهم السلام والحمد لله رب العالمين.

المواهب:

- (١) صفات الشيعة، الشيخ الصدوق، ص ٢.
- (٢) الغدير، العلامة الأميني، ج ٢، ص ١٧٩.
- (٣) الدر المنثور، السيوطي، ج ٦، ص ٣٧٩.
- (٤) سورة البينة: ٧.

ابن أبي الحديد بين الإعتزال والتشييع

حسن عبدالله القصاب

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين،
محمد وآله الطيبين الطاهرين.

مقدمة البحث

قد يتصور البعض بأن تُهمة التشيع لعلي ابن أبي طالب عليه السلام عندما تُطلق على بعض الأعلام والعلماء تُسبب لهم التضعيف والخذش في صحة ما ينقله أو ما يرويه، وقبل قبول هذا التضعيف أو التهمة يجب علينا أن ننظر في هذه التهمة ونجعلها في قفص البحث، ولا يمكننا أن نتنازل للخصم لأي إشكالٍ وشبهة يطرحها، ونُسايه في مبانیه الخاطئة، بل يجب على العلماء تبيين الآراء الصحيحة من السقيمة، وتوضيح المباني الصحيحة من الخاطئة، وتفهم الطرف الآخر من المخالفين خطأ ما يتوهمون، لا المسايرة لما يدعون والقبول بما يقولون.

نعم، يوجد صنفان من المخالفين: الأول: يمكنك إقناعه بهذه الحقيقة ويمكنك إلزامه بأقوال هؤلاء الرجال والأعلام، والصنف الثاني: وهم المتشددون والمتعصبون والذين لا يقبلون الحق بتاتا ويرفضون كل فكرة تناقشها وتطرحها عليهم، نحن لا يمكننا أن نناظر الصنف الثاني ونستدل عليه بما ورد عن هؤلاء الأعلام - كما بن أبي الحديد المعتزلي - ولكن أقول: حتى لو أنك استدللت على كلامك وعقيدتك بما يطرحه ابن تيمية فإنه سيماطل عن الحق ويرفضه.

وفي هذا البحث أسعى لكي أسلط الضوء أولاً على ضابطة التشيع، وكيف نحكم

بأن فلاناً شيعياً أو لا؟ وهذه كبرى البحث، وفي المقام الثاني: نرى ونُطبّق هذه الكبرى على الأعلام الذين أُطلقت عليهم هذه التُّهمة، والمقام الثالث: نستشهد على ما نذهب إليه من بعض كتبه ونبين جملة من عقائده وآرائه حتّى يتبيّن الحق في النسبة أو بطلانها، لنحصل على نتيجة وهي صحّة الاحتجاج على الخصم بما ورد في كتب المخالفين المتّهمين بالتشيع أو لا.

المقام الأول: في بيان من هم الشيعة وأهم عقائدهم؟!

الشيعة كلمة أصلها (شيع)، وقد ذكر اللغويون تحت هذه المادة أنها تُطلق على الجماعة والفرقة التي لها أفكار ومعتقدات واحدة يشتركون فيها.

وعند المتكلمين والفقهاء أن الشيعي هو من تابع عليّ ابن أبي طالب واعتقد بإمامته، وفي هذا الصدد نستشهد ببعض كلمات أهل اللغة في معنى مفردة (الشيعة):

١- قال الخليل ابن أحمد الفراهيدي رحمه الله في كتابه العين (المتوفى في القرن الثالث):

"والشَّيعةُ: قوم يتشيعون، أي: يهونون أهواء قوم ويتابعونهم. وشيعةُ الرَّجلِ: أصحابه وأتباعه. وكلّ قوم اجتمعوا على أمرٍ فهم شيعة" ^(١).

٢- قال ابن منظور في كتابه لسان العرب (المتوفى في سنة ٧١١ هـ):

"القومُ الذين يجتمعون على الأمر... وأصلُ الشيعةِ الفرقة من الناس، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظٍ واحد ومعنى واحد، وقد غلبَ هذا الاسم على من يتوالى عليّاً وأهل بيته (رضوان الله عليهم أجمعين) حتّى صار لهم اسماً خاصاً فإذا قيل: فلانٌ من الشيعة عُرفَ أنّه منهم... وأصلُ ذلك من المشايعة؛ وهي المتابعة والمطاوعة؛ قال الأزهري -صاحب معجم تهذيب اللغة- : والشَّيعةُ قومٌ يهونون هوى عِترَةِ النبي صلّى الله عليه وآله ويوالونهم" ^(٢).

٣- قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (المتوفى في سنة ٣٩٥):
"والشَّيعة: الأعوان والأنصار"^(٣).

نكتفي بهذا المقدار من علماء أهل اللغة، ونلاحظ أن اللغويين قد أخذوا من لفظة الشيعة هي إجتماعهم على أفكار معيّنة ويتفقون عليها، وهذه اللفتة واضحة عند ابن منظور فهو أكثر من فصل في معنى الشيعة، وذكر بأن هذه اللفظة تُطلق على من يُتابع ويوالي عليّ ابن أبي طالب وأهل بيته عليهم السلام.
نستعرض بعض كلمات علماء أهل السنة في معنى الشيعة ومنهم:

١- الشهرستاني في الملل والنحل (المتوفى ٥٤٨ هـ):

"الشيعة هم الذين شايعوا عليّاً وقالوا بإمامته وخلافته نصّاً ووصايةً إمّا جليّاً وإما خفياً واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده"^(٤)، وذكر الشهرستاني بعض المعتقدات الأساسية للشيعة نذكرها حتى يقف عليها النصف: "وقالوا ليست الإمامة قضية مصلحة تُناتج باختيار العامة، وينتصب الإمام بنصيبهم (أي العامة)، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين لا يجوز للرسول عليهم الصلاة والسلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله. ويجمعهم (أي الشيعة) القول بوجوب التعيين والتنصيب وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر والقول بالتولي والتبري قولاً وفعلاً وعقداً إلا في حال التقية"^(٥).

٢- ابن خلدون في تاريخه (المتوفى في ٨٠٨ هجرية):

"إعلم أن الشيعة لفّة هم الصحبُ والأتباعُ، ويُطلقُ في عُرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه عليهم السلام"^(٦).

وبعد ذلك يستعرض ابن خلدون مسألة الإمامة ورأي الشيعة فيها فيقول:

”ومذهبيهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تُفوضُ إلى نظرِ الأُمَّةِ ويتعيَّنُ القائمُ بها بتعيينهم (أي تعيين الأمة)، بل هي ركنُ الدينِ وقاعدةُ الإسلامِ، ولا يجوزُ لنبيٍّ إغفاله ولا تفويضه إلى الأُمَّةِ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكونُ معصوماً من الكبائر والصفائر...“^(٧).

٣- محمّد فريد وجدي في كتابه دائرة معارف القرن العشرين:

”والشيعة هم الذين شايعوا علياً في إمامته و اعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده، ويقولون بعصمة الأئمة من الكبائر و الصفائر و القول بالتولي و التبيري قولاً و فعلاً إلا في حال التقيّة إذا خافوا بطش ظالم“^(٨).

ونقفُ على كلمات أحد العلماء الإماميّة في هذا الصدد، حيث يقول العلامة السيد محسن الأمين رحمته الله صاحب كتاب أعيان الشيعة: ”قال المرتضى رحمته الله في كتاب العيون والمحاسن من كتاب المجالس للمفيد: هم (أي الإماميّة) القائلون بوجود الإمامة والعصمة ووجوب النص، وإنما حصل لها هذا الاسم في الأصل لجمعها في المقالة هذه الأصول، وقال السمعاني في الأنساب: الإماميّة جماعةٌ من غلاة الشيعة، وإنما لُقّبوا بهذا اللقب لأنهم يرون الإمامة لعلي وأولاده ويمتقدون أنه لا بد للناس من الإمام وينتظرون إماماً سيخرج في آخر الزمان يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

أقول (والقول للأمين): تبرأ الإماميّة الاثنا عشرية من كل غالٍ في أحدٍ من أهل البيت مخرج له عن درجة العبودية...“^(٩).

بعد هذا الإستعراض الموجز لبعض كلمات اللغويين وبعض العلماء من كلا الفريقين نخرج بنتيجة مهمّة وحساسة، وهي المحور الأساسي في بحثنا هذا. والنتيجة هي: أن المعيارَ والضابطةَ لإطلاقِ ونسبةِ التشييعِ للآخرين تعتمدُ على اتّباعِ هذا الفردِ إلى أمير المؤمنين وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، والاعتقادُ بإمامتهم

ومواليتهم والبراءة من أعدائهم، والالتزام بسائر العقائد التي قرّرها علماء الإمامية في مصنفاتهم، وهذه العقائد هي التي تُعتبر فيصّل بين المذهب الشيعي والمذهب المخالف له، وأمّا لو اعتقد بشيءٍ من عقائد الشيعة الإمامية من دون التولّي الكامل لهم والبراءة الكاملة لأعدائهم فلا يُعتبر هذا الفرد شيعياً بالمصطلح الخاص.

بعد استخلاص هذه النتيجة يجدر بنا أن نوضّح للقارئ الكريم أن مصطلح التشيع قد يُطلق ويُراد به معنى غير الذي ذكرته آنفاً وذلك بسبب ملاكات مختلفة، ولمزيد من البيان والإيضاح أنقلُ لك -أيها القارئ الكريم- كلاماً لسماحة العلامة المحقّق الشيخ السبحاني رحمته الله حيث يقول:

”١. الشيعة: مَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا وَأَوْلَادَهُ بِاعْتِبَارِهِمْ أَهْلَ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ فَضَّلَ اللهُ سَبْحَانَهُ مَوَدَّتِهِمْ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١٠)، والشيعة بهذا المعنى تعمُّ كل المسلمين إلا النواصب، بشهادة أنّهم يُصلون على نبيهم وآله في صلواتهم وأدعيتهم ويتلون الآيات النازلة في حقهم صباحاً ومساءً...”

ويُكمل فيقول: ”٢. الشيعة: مَنْ يُفَضِّلُ عَلِيًّا عَلَى عِثْمَانَ أَوْ عَلَى الْخُلَفَاءِ عَامَّةً مَعَ اعْتِقَادِهِ بِأَنَّهُ رَابِعُ الْخُلَفَاءِ، وَإِنَّمَا يَقْدِّمُ لِاسْتَفَاضَةِ مَنَاقِبِهِ وَفَضَائِلِهِ عَنِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالَّتِي دَوَّنَهَا أَصْحَابُ الْحَدِيثِ فِي صِحَاحِهِمْ وَمَسَانِيدِهِمْ...”

ويضيف المعنى الثالث فيقول: ”٣. الشيعة: مَنْ يُشَاحِ عَلِيًّا وَأَوْلَادَهُ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ خُلَفَاءُ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُتْمَةُ النَّاسِ بَعْدَهُ، نَصِبَهُمْ لِهَذَا الْمَقَامِ بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ سَبْحَانَهُ”^(١١).

بعد ذكر ما قاله العلامة المحقّق رحمته الله نقول: إنَّ المعنى الأول والثاني لا يمكننا التسامح في إطلاقهما على المذهب الشيعي المعروف الآن والمنتشر في العالم الإسلامي، فالأول إذا اعتبرنا أن المحبّة هي الأساس لم يكن هناك أي فرق بين المسلمين، ولا يمكن تقسيم المسلمين إلى سنّة وشيعة.

والمعنى الثاني (وهو تفضيل الإمام علي على عثمان أو سائر الخلفاء) لا يمكن الإعتماد عليه أيضاً كضابط صحيح للتفريق بين الشيعي والسني، والسبب يرجع إلى أن علماء الجرح والتعديل استخدموا هذا النبز (الشيعي والتشيع) لإسقاط الرواة والروايات التي فيها شمة تشيع، فلا يجدون طريقاً للطعن في هذه الروايات إلا اتهامهم بالتشيع، فترفض الروايات، ولكن هل هذه النسبة صحيحة أم لا؟! لا يهتمون بها. وهل هذا ميزان صحيح في الجرح والتعديل؟ فهو موضوع يحتاج إلى بحث مستقل.

فيبقى المعنى الثالث هو الذي يحمل الضابطة الصحيحة للتفريق بين الشيعي من السني، وهي اعتبار الاعتقاد بإمامة علي ابن أبي طالب والأئمة من ذريته عليه السلام، والقول بأنهم منصّبون بأمر الله تعالى، والقول بعصمتهم جميعاً عليهم السلام، فهذه من أهم العقائد التي يلتزم بها سائر الموالون لأهل البيت ويعتقدون إمامتهم، وهم المسمون بالشيعة الإمامية الاثني عشرية.

المقام الثاني: هل ابن أبي الحديد شيعي؟!

وبعد ذكر المقام الأول نكون قد تعرّفنا على الضابط في كون الشخص منتمياً إلى المذهب الشيعي، وبعبارة أخرى (يتشيع)، وهو كونه ينتمي فعلاً إلى العقائد الإمامية، ولا تكفي التهمة والشبهة.

ومن أهم تلك العقائد هي القول بأن الخليفة بلا فصل بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام، وأنه منصوب من قبل الله، وأن الأئمة الاثني عشر كلهم معصومون، وأن الإمامة في ولديه الحسين عليه السلام، وبعد الحسين إلى علي ابن الحسين زين العابدين ثم في ولده إلى الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن المهدي المنتظر عليه السلام.

نبذة عن ابن أبي الحديد

هو عزُّ الدين بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد المدائني، أبو حامد: عالم بالأدب، وله شعرٌ جيّدٌ وإطلاَعٌ واسعٌ في التاريخ، وُلِدَ في المدائن في عام ٥٨٦هـ وانتقل إلى بغداد وخدم الدواوين السلطانية وبرع في الإنشاء، وكان حَظِيًّا عند الوزير ابن العلقمي. وكان فقيهاً متكلِّماً جَدلياً ثاقب النظر، وله من المصنّفات تزيد على الخمسة عشر مصنّفاً، مات سنة ٦٥٥ هـ ١٢٥٨م.

القول في مذهبه

أمّا فيما يرتبط بمذهب ابن أبي الحديد، فلو رجعنا إلى بعض كُتُب التراجم والتأريخ نجد أن بعض المؤرخين ينسبه إلى الاعتزال من دون أي تردّد أو شكٍّ أو غمز في هذه النسبة، في حين أن البعض الآخر ينسبه تارةً إلى الاعتزال وأخرى إلى التشيع، ويبدو أن السبب الذي جعل هذا البعض ينحى هذا المنحى هو التعصّب الأعمى، فهو يُريد تضييف الرجل بأيّ شكلٍ كان.

النموذج الأول:- الذي قال بأنّه معتزلي:

١- الكتبي صاحب كتاب (فوات الوفيات) المتوفى سنة ٧٦٤هـ، حيث قال: "... عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبي الحديد عز الدين المدائني المعتزلي الفقيه الشاعر..."^(١٢).

٢- الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٨هـ) في تاريخه قائلاً: "... المدائني المعتزلي الفقيه الشاعر الأديب..."^(١٣)، ويقول الذهبي عندما وقف لترجمة أخيه الموفق (أخو عبد الحميد): "... وكانا من كبار الفضلاء وأرباب الكلام والنظم والنثر والبلاغة، والموفق أحسنهما عقيدةً، فإن العز معتزلي، أجازنا الله"^(١٤).

٣- الصفدي (المتوفى سنة ٧٦٤هـ) في الوافي بالوفيات: "... المدائني المعتزلي الفقيه الشاعر ... " (١٥).

٤- الزركلي صاحب (الأعلام) (المتوفى سنة ١٤١٠هـ) قال: "... عبد الحميد ... بن أبي الحديد، أبو حامد، عزّ الدين: عالم بالأدب، من أعيان المعتزلة، له شعر جيد وإطلاع واسع في التاريخ... " (١٦).

النموذج الثاني:- الذي نسب إليه الاعتزال والتشيع:

ابن كثير في البداية والنهاية (المتوفى سنة ٧٧٤هـ)، حيث قال: "وفيها كمل شرح الكتاب المسمى بنهج البلاغة في عشرين مجلداً ممّا ألفه عبد الحميد بن داود بن هبة الله بن أبي الحديد المدائني الكاتب للوزير مؤيد الدين بن العلقمي، لأنه كان شيعياً معتزلياً" (١٧). ويقول في نفس الجزء: "ابن أبي الحديد عزّ الدين المدائني الكاتب الشاعر المطبق الشيعي الغالي، له شرح نهج البلاغة في عشرين مجلداً... " (١٨).

فهو تارةً ينسبه إلى الاعتزال وآخرى إلى التشيع بل يعبر بالغالي، فهذا الأمر إن دلّ على شيء فهو يدلُّ على تحبُّط ابن كثير في إصدار الأحكام والنسب لجميع من يخالفونه في المذهب والإعتقاد، وأنه لا يُفرِّق بين الاعتزال ومذهب التشيع، وهو أمرٌ واضح لمن يجعل له نصيب للتأمل في المذاهب والفرق (١٩).

وعلى كلِّ حال، فلو أردنا أن نبحث ونتحرَّر من الخلفيات التي نبي بها أفكارنا ومعتقداتنا، ورجعنا إلى شرحه الكبير والمعروف (شرح نهج البلاغة) وتصفّحنا الكتاب لوجدنا بأن ابن أبي الحديد يُصنّف نفسه في ضمن أتباع المذهب المعتزلي، وعبارته في مقدّمة كتابه خير دليل وشاهد على ذلك، ولا يحتاج الباحث والتأمل الكثير من الجهد والنصب لكي يتعرّف على مذهبه.

إليكم بعض الشواهد التي يمكننا تلمّس مذهب ابن أبي الحديد وبوضوح، وأتّه يُصرّحُ في بعضها بأنّه من مذهب المعتزلة، وفي أخرى من كلماته ينتقد آراء الشيعة الإماميّة، وخصوصاً فيما يرتبط بالخلافة والإمامة، والتي ذكرنا سابقاً بأن هناك عقائد أساسيّة عند الإماميّة حتّى يُطلقوا اسم التشيع عليه.

الشواهد تحكّم

الشواهد في نسبه إلى مذهب المعتزلة:

١- عندما بدأ في ذكر رأي المعتزلة في الإمامة والتفضيل والبُغاة والخوارج قال: "القولُ فيما يذهب إليه أصحابنا المعتزلة في الإمامة..."^(٢٠). فإنّ عبارة أصحابنا المعتزلة واضحة الدلالة على أنّه من المعتزلة، ولو كان في مذهبٍ يخالف المعتزلة لما اعتمد على كلمة أصحابنا، وكان من الأنسب أن يقول "ذهب المعتزلة مثلاً في الإمامة..." من دون ذكر أصحابنا.

٢- قوله: "اتفقَ شيوخنا كافةً رحمهم الله؛ المتقدّمون والمتأخرون والبصريّون والبغداديون على أن بيعة أبي بكر الصديق بيعةٌ صحيحةٌ شرعيّة، وأنّها لم تكن عن نصٍّ، وإنما كانت بالاختيار الذي ثبتَ بالإجماع..." يتضح من هذه الكلمة أنّه معتزلي يرى ويقول ما تقوله شيوخ المعتزلة سواء من البصريين أو البغداديين.

ولو تأملنا سيراً ورجعنا إلى السبب الأساسي للخلاف بين السُنّة والشيعة نجده في خلافة الخلفاء، وأنّ الشيعة عقيدتهم فيها كون أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام هو الخليفة والإمام المنصوب من قبل الله تعالى، وأنّ أهل السنة يعتقدون بأنّ أبا بكر هو الخليفة الذي اختاره الناس للخلافة. فلو كان ابن أبي الحديد كما يزعم البعض من المتعصّبين شيعياً لذهبَ لما تقوله الشيعة الإماميّة في أهم مسألة

عقائدية، ونراه قد عرض رأيهم في الخلافة من دون أي خلاف أو ذكر للخلاف عند المعتزلة.

٣- حينما ذكر اختلاف المعتزلة في مسألة التفضيل، وذكر الأقوال والعلماء الذين اختلفوا فيها، بين تفضيل الخلفاء على أمير المؤمنين عليه السلام وبين تفضيله عليهم. فيقول: "وأما نحن فنذهب إلى ما يذهب إليه شيوخوا البغداديون؛ من تفضيله عليه السلام..."^(٢١). وقد ذكرنا في النبذة أن ابن أبي الحديد قد انتقل إلى بغداد وعاش فيها حتى توفي، فهو ينسب نفسه إلى طائفة علماء المعتزلة البغداديين.

٤- حينما ذكر رأي علماء المعتزلة في حكم البُغاة على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: "أما أصحاب الجمل فهم عند أصحابنا هالكون كلهم إلا عائشة وطلحة والزبير؛ رحمهم الله فإنهم تابوا، ولولا التوبة لحُكم لهم بالنار لإصرارهم على البغي"^(٢٢). فهذا الشاهد بالإضافة إلى أن فيه دلالة لفظية على كونه معتزلياً، فإن رأيهم (أي المعتزلة) تجاه أصحاب الجمل يختلف عن رأي الشيعة الإمامية في السيدة عائشة وطلحة والزبير؛ فإن الإمامية يقطعون بأن كل من خرج وبغى على الإمام المعصوم فهو هالك، وأما فذلكت التوبة فهي تحتاج إلى دليل خاص حتى يخرجوا من دائرة البغي على الإمام العادل.

الشواهد في مناقشة عقائد الشيعة:

١- يقول ابن أبي الحديد: "وتزعم الشيعة أنه خوطب في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بـ (أمير المؤمنين)..."^(٢٣) إلى آخر كلامه. فلو كان الرجل ينتسب إلى مذهب الشيعة لَمَا عبّر بلفظة (تزعّم الشيعة).

٢- في قوله: "ودُعي بعد وفاة رسول الله بوصي رسول الله صلى الله عليه وآله، لوصايته إليه بما أراد، وأصحابنا لا ينكرون ذلك، ولكن يقولون: إنها لم تكن وصية بالخلافة..."^(٢٤).

نستفيد مخالفته لرأي الإمامية من إنكاره كون الإمام علي وصي رسول الله ﷺ ، وهو خلاف لما يعتقده الشيعة الإمامية قاطبة، فإن رأي الإمامية أنها كانت وصاية ترتبط بالإمامة والخلافة من بعده ﷺ .

٣- في قوله: "وأختلف في مولد علي أين كان؟ فكثير من الشيعة يزعمون أنه ولد في الكعبة..."^(٢٥) . فإن استعمال لفظة يزعمون لا تتناسب والقول بأن مذهبه التشيع بالمعنى الذي ذكرناه آنفاً. مع أن الإمامية قاطبة قد أجمعوا على هذا القول، بل نقل ولادته في الكعبة جمهور من الصحابة والتابعين والمحدثين، خلافاً لما يزعمه ابن أبي الحديد^(٢٦) .

٤- في شرحه لكلام الإمام علي عليه السلام في المناققين: «لا يُقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد... ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة»، فقال ابن أبي الحديد: "... ثم ذكر خصائص حق الولاية... فأما الإمامية فيقولون: أراد نص النبي عليه وعلى أولاده، ونحن نقول: لهم خصائص حق ولاية الرسول على الخلق". ثم قال عليه السلام: «وفيهم الوصية والوراثة»، فأما الوصية فلا ريب عندنا أن علياً كان وصي رسول الله ﷺ ، وإن خالف في ذلك من هو منسوب عندنا إلى العناد، ولسنا نعني بالوصية النص والخلافة، ولكن أموراً أخرى لعلها -إذا لمحت- أشرف وأجل. وأما الوراثة فالإمامية يحملونها على ميراث المال والخلافة، ونحن نحملها على وراثة العلم"^(٢٧) .

نقول: لا يخفى بأن ابن أبي الحديد يذكر مواطن الخلاف بين رأي الإمامية وأهل السنة، وهو في أكثرها يقف ويؤيد رأي أهل السنة وينقد رأي الشيعة الإمامية، فكيف ينسبون إليه التشيع وحاله هذا؟ أما بالنسبة إلى الوراثة، فالشيعة الإمامية يحملونها -بالإضافة إلى وراثة العلم- على وراثة الخلافة والإمامة من بعد النبي الأكرم ﷺ .

٥- شرحه لكلام الأمير عليه السلام: «... الآن إذ رجع الحقُّ إلى أهله، ونُقل إلى مُنتقله»^(٢٨)، فقال ابن أبي الحديد: "... وهذا يقتضي أن يكونَ فيما قبل في غير أهله، ونحن نتأوَّل ذلك على غير ما تذكره الإمامية" ^(٢٩). فمنه يتبيَّن بأنَّ الحقَّ كان مع الخليفة الأول لا مع علي ابن أبي طالب عليه السلام، ولا يرى أيَّ حقٍّ لعلي ابن أبي طالب عليه السلام في أمر الخلافة والإمامة، بل يتأوَّل ذلك بتأويلٍ بعيد جداً ليس هنا محل مناقشته.

٦- وقوفه على حُطبة الشقشقية فأورد على لسانٍ مستشكلٍ قائلاً: "إن قيل: بيَّنوا لنا ما عندكم في هذا الكلام؟ أليس صريحه دالاً على تظلم القوم ونسبتهم إلى اغتصاب الأمر! فما قولكم في ذلك؟ إن حكمتم عليهم بذلك (أي بالنصب) فقد طعنتم فيهم، وإن لم تحكموا عليهم بذلك فقد طعنتم في المنتظم المتكلم عليهم (وهو علي ابن أبي طالب)! ^(٣٠). قيل: أمَّا الإمامية من الشيعة فتُجري هذه الألفاظ على ظواهرها، وتذهب إلى أن النبي نصَّ على أمير المؤمنين وأنه غُصِبَ حقه. وأمَّا أصحابنا رحمهم الله..."

فأخذ يؤوِّل كلام الأمير الواضح في اغتصاب حقه والخلافة، ولسنا في صدق بيان المنازعة في الخلافة، وإنما تُورد هذه الأمور حتَّى يتبيَّن للباحث الحقيقة في مذهب ابن أبي الحديد، وجهل من ينسبه إلى مذهب الحق -الإمامية- مع هذا الإصرار في تفنيد آراء الإمامية. وهناك الكثير من الشواهد التي كان يناقش فيها معتقدات الإمامية أعرضنا عنها حتَّى لا نُطيل على القارئ العزيز.

شواهد أخرى مقابلة

وهناك بعض الشواهد قد يتوهم منها المتوهم أن ابن أبي الحديد يتشيع، ذكر منها:

١- حول الخلفاء وبعض الأصحاب:

لقد أورد ابن أبي الحديد المعتزلي بعض المواقف التي لا يُحبذ ذكرها أهل السنة والعمامة، من قبيل ما ذكره في أخلاق الخليفة الثاني من الغلظة والخشونة والرعونة في تعامله مع الناس، حيث يقول: "وقد بقي هذا الخلق متوارثاً متناقلاً في محبيه وأوليائه إلى الآن -ويقصد الدعابة في علي ابن أبي طالب- كما بقي الجفاء والخشونة والوعورة في الجانب الآخر، ومن له أدنى معرفة بأخلاق الناس وعوائدهم يعرف ذلك" (٣١).

وينقل أيضاً عن أخلاق عمر فيقول: "وكان في أخلاق عمر وألفاظه جفاء وعنجهية ظاهرة -يحسبه السامع لها أنه أراد بها ما لم يكن قد أراد، ويتوهم من تحكى له أنه قصد بها ظاهراً ما لم يقصده، فمنها الكلمة التي قالها في مرض رسول الله ﷺ. ومعاذ الله أن يقصد بها ظاهرها! ولكنه أرسلها على مقتضى خشونة غريزته، ولم يتحفظ منها. وكان الأحسن أن يقول: ((مغمور)) أو ((مغلوب بالمرض))، وحاشاه أن يعني بها غير ذلك!" (٣٢).

ونراه عندما يقف على أحداث عثمان فيقول فيها: "وخلصاً ذلك أن عثمان أحدث أحداثاً نَقَمَهَا النَّاسُ عَلَيْهِ، من تأمير بني أمية، ولا سيما الفُسَّاق منهم وأربابُ السِّفِّهِ وقلة الدين، وإخراج مال الفيء إليهم، وما جرى في أمر عمّار وأبي ذرّ وعبدالله ابن مسعود رضي الله عنهم...". (٣٣) فأخذ ابن أبي الحديد يورد بعض الأحداث الآخري.

فهذه الأحداث التي قالها ابن أبي الحديد لا يرتضيها المسلك الأموي من المسلمين الذين يعيشون في وسطنا، وهذا المسلك ذكرنا سابقاً وجوده وهم أتباع ابن تيمية وابن عبد الوهاب. وعندما نقف على مؤلف من هذا المسلك نجد يذکر نفس مبررات عثمان ويحاول جاهداً أن يثبت صحتها، ويدافع دفاعاً مستميتاً لردّ هذه الأحداث ومعارضة الأجلء من الصحابة لعثمان بن عفان.

ولا يقفُ الأمر عند الدفاع وحسب، بل يجعل هذا المسلك من أفضل ما أُلّف في هذا المجال لردِّ شُبُهات الشيعة وغيرهم، فهم دائماً ما يقتبسون وينشرون هذا الكتاب فيما بينهم^(٣٤).

نموذج أخير لا يرتضي أهل السنة الإجهار به وإعلانه صراحةً، لأنّه سيهدم ركن ركين وعقيدة يعتقدها أهل السنة وهي عدالة جميع الصحابة، وهذا النموذج يذكره عندما خطب أمير المؤمنين بذي قار فمما ذكره زيد بن صوحان: ... ثم رفع يديه فقال: «اللهم إن طلحة والزبير قطعاني، وظلماني، وألبا عليّ، ونكنا بيعتي، فاحلّل ما عقدا، وانكث ما أبرما، ولا تغفر لهما أبداً، وأرهما المساءة فيما عملا وأملا»^(٣٥).

وقفة قصيرة

استطراداً أعلّق على الكلمة التي قيلت في مرض رسول الله ﷺ، فأقول: حاول النسخ والمشرّفين على طباعة الصحاح أن يخفّفوا من وطئة هذه الكلمة القاسية لرسول الله ﷺ، فمن يتتبع النسخ والطباعة الجديدة نجدهم قد حذفوها، أو ذكروها على سبيل الاستفهام لتخفيفها فيقولون تارة: قال رجلٌ في الدار (هجر ...)، وفي طبعة أخرى: وكان في الدار عمر و... فقال قائلٌ: (أهجر ...). وأمّا هذا المقطع فإن ابن أبي الحديد يُسلم بأن القائل هو الخليفة الثاني ولكنه يؤوّل.

فعند ابن أبي الحديد أنّ عمرَ قد قالها، ولكنه لا يقصد منها معناها الظاهريّ، نعم نرّمى جميع القرائن المحيطة بالحدث ونسمع تأول المعتزلي، والغريب أن المعتزلي يُعيبُ على الإماميّة في بعض المواضع في كتابه أن الإماميّة تأوّل بالتأويلات البعيدة جداً^(٣٦). نترك الحكم للمنصف!!

لا نقول بأن هذه أدلة على أن ابن أبي الحديد شيعياً ولكن لو جمعنا القرائن التي

ذكرها في الشرح نجد الكثير منها لا يرتاح لها من تربّي على تقديس الصحابة وبني أمية، كمن يدافعون عن بني أمية ومعاوية ويزيد، فهذا الصنف من العامة لا يروق له ذكر هذه المخازي للصحابة وبني أمية.

ولهذا نجد الذي ينسب ابن أبي الحديد إلى التشيع بل إلى الغلو هم من أصناف ابن كثير المتعصب وابن تيمية وابن عبد الوهاب، وهذه الثلاثة المنحرفة عقائدياً عن أمة محمد ﷺ.

وللأسف الشديد أن يكون لأتباع هؤلاء المنحرفين إعلام مضلّ وتُضخُّ الأموال من أجل تحريف التاريخ وتقديس بني أمية، وإصدار الكتب التي تُسيء إلى أهل البيت وبالخصوص أمير المؤمنين ووالده المؤمن (أبو طالب)، وينتقدون مواقف أمير المؤمنين تجاه الخارجين عليه والمارقين عن ولايته^(٣٧).

٢- مساوي بني أمية:

سار ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة في ذكر نبذ تاريخية لبعض الشخصيات التي كانت لها أدواراً في التاريخ الإسلامي، سواء كان الدور إيجابياً أو سلبياً.

وكما ذكرنا آنفاً بأن أحفاد بني أمية لا يروق لهم ذكر مساوي ومخازي أجدادهم، فثارت في نفوسهم حمية الجاهلية تجاه ابن أبي الحديد المعتزلي عندما سطر هذه الأمور، وكان الأولى بهؤلاء أن يخضعوا للأمر الواقع، لكنّه الحقد الدفين المتوارث منذ زمن هاشم وأمّية، فسرى الحقد من بني أمية إلى بني هاشم، وهو الآن أيضاً سار من أتباع أولئك إلى أتباع هؤلاء.

نسب معاوية الوضيع

معاوية بن أبي سفيان، نكتةُ سوداء على جبين التاريخ الإسلامي، ويكفيه ضعةً أن يكون منسوباً لأربعة من قريش، وأمّه آكلة الأكباد وهي تُذكر في مكة بفجور وعُهر^(٣٨).

حقده لأمير المؤمنين عليه السلام

ذكر المعتزلي: "وكان معاوية على أس الدهر مُبغضاً لعلي عليه السلام، شديد الانحراف عنه، وكيف لا يُبغضه وقد قتل أخاه حنظلة يوم بدر، وخاله الوليد بن عُتبة، وشرك عمّه في جدّه وهو عُتبة... وقتل من بني عمّه عبد شمس نضراً كثيراً من أعيانهم وأماثلهم، ثم جاءت الطامة الكبرى واقعة عثمان، فنسبها كلها إليه بشبهة إمساكه عنه، وإنضواء كثير من قتلته إليه عليه السلام، فتأكدت البغضة، وثارَت الأحقاد، وتذكّرت تلك الثّرات الأولى، حتّى أفضى الأمر إلى ما أفضى إليه"^(٣٩).

ورد عن النبي الأكرم أنه قال: «حبُّ عليٍّ إيمانٌ وبُغضُه نفاقٌ (بُغضُه كفر)».

ومعاوية كان مبغضاً لعلي ابن أبي طالب، فهو منافق على أقل تقدير، لو لم نحكم بكفره. سواء كان هذا البغض من أجل أخيه أو عمّه وبني عبد شمس أو لغيرها من الأمور التي ذكرها ابن أبي الحديد في مقالته.

وأخر ما ختم ابن أبي الحديد قوله في معاوية أن قال: "ومعاوية مطعون في دينه عند شيوخنا رحمهم الله، يُرمى بالزندقة"^(٤٠).

فما بعد الزندقة شيء يُذكر، فهو منافق وكافر وأخيراً زنديق، ويواصل حديثه عنه فيقول: "وقد ذكرنا في نقض السُفْيانية على شيخنا أبي عثمان الحاجط ما رواه أصحابنا في كتبهم الكلامية عنه (أي معاوية) من الإلحاد والتعرّض لرسول الله، وما

تظاهر به من الجبر والإرجاء، ولو لم يكن شيء من ذلك، لكان في محاربتة الإمام ما يكفي في فساد حاله، لا سيّما على قواعد أصحابنا، وكونها بالكبيرة الواحدة يقطعون على المصير إلى النار والخلود فيها إن لم تكفرها التوبة"^(٤١).

حقد معاوية لشيعة علي عليه السلام

لقد سردَ ابنُ أبي الحديد المعتزلي بعضَ المواقف التاريخية التي قام بها معاوية بن أبي سفيان منها:

بسر بن أرطاة: وهو مبعوث معاوية إلى اليمن في جيش كثيف، وأمره أن يقتل كلَّ مَنْ كان في طاعة علي، فقتل خُلُقاً كثيراً، وقتل فيمن قتل ابني عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وكانا غلامين صغيرين ^(٤٢).

وقد أوردَ المعتزلي جملة من الوقائع الجديرة بالمطالعة لمعرفة مدى حقد مبعوث معاوية إلى شيعة علي ابن أبي طالب عليه السلام، وصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومنها موقف بسر بن أرطاة من جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه، فيقول جابر: لَمَّا خَفْتُ بُسْرًا وَتَوَارَيْتُ عَنْهُ، قَالَ لِقَوْمِي: لَا أَمَانَ لَكُمْ عِنْدِي حَتَّى يَحْضُرَ جَابِرٌ، فَأَتُونِي وَقَالُوا: نَنْشُدُكَ اللَّهَ لَمَّا انْطَلَقْتَ مَعَنَا فَبَايَعْتَ، فَحَقَنْتَ دَمَكَ وَدَمَاءَ قَوْمِكَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ قَتَلْتِ مَفَاتِلِينَ، وَسَبَبْتِ ذُرَارِينَ. فَاسْتَنْظَرْتُهُمُ اللَّيْلَ، فَلَمَّا أَمْسَيْتِ دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ سَلْمَةَ فَأَخْبَرْتَهَا الْخَبْرَ، فَقَالَتْ: يَا بَنِيَّ، انْطَلِقِ فَبَايِعِ، وَاحْقِنْ دَمَكَ وَدَمَاءَ قَوْمِكَ؛ فَإِنِّي قَدْ أَمَرْتُ ابْنَ أَخِي أَنْ يَذْهَبَ فَبَايِعَ، وَإِنِّي أَعْلَمُ بِأَنَّهَا بَيْعَةٌ ضَلَالَةٌ ^(٤٣).

ولمَّا انتهى بسر بن أرطاة من الإرهاب والقتل والتشريد لشيعة علي والآمنين في مكة المكرمة والمدينة المنورة كتبَ كتاباً إلى معاوية قائلاً: "أحمد الله يا أمير المؤمنين

أني سرتُ في هذا الجيش أقتل عدوك ذاهباً وجائياً لم يُنكب رجل منهم نكبة، فقال معاوية: الله قد فعل ذلك لا أنت^(٤٤).

وقد أشار المعتزلي في نسبة عقيدة الجبر إلى معاوية وهذا شاهد بسيط على هذه العقيدة الفاسدة، وهي نسبة فعل العبد إلى فعل الله سُبحانه وتعالى. فيلزم من ذلك نسبة الظلم والقتل الذي فعله بسر إلى الله (تعالى الله علواً كبيراً). وهناك الكثير من الشواهد التي ذكرها ابن أبي الحديد، أعرضنا عنها حتى لا يطول البحث في هذه المسألة.

القول الفصل

وبعد هذه الإطلالة السريعة على بعض التراجم والتأريخ وبعض الشواهد من كتاب ابن أبي الحديد، نجد الحقيقة ماثلة أمام أعين المنصفين، ويتبين للقارئ الكريم أن القول الفصل في مذهب عبد الحميد ابن أبي الحديد هو الاعتزال لا التشيع. وأن الذين نسبوا إليه هذه النسبة كانت تؤثر فيهم البيئة التي يعيشون فيها، وتكون أحكامهم متأثرة بالأجواء التي هم فيها وعلى خلفيتها يحكمون.

والخلاصة التي أردتُ أن أصل إليها من هذا البحث هي صحّة الاحتجاج على المخالفين بما ورد في كتب ابن أبي الحديد وبالتحديد شرح النهج، وأن إنكار هذا الأمر يُعدُّ جهلاً بالتاريخ والفرق الإسلامية.

المواهب:

(١) كتاب العين للخليل ابن أحمد الفراهيدي مادة (شيع).

(٢) لسان العرب مادة (شيع).

- (٣) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا مادة (شيع).
(٤) الملل والنحل للشهرستاني: ج ١ ص ١٤٦.
(٥) المصدر السابق.
(٦) تاريخ ابن خلدون: ج ١ ص ١٩٦.
(٧) تاريخ ابن خلدون: ج ١ ص ١٩٦-١٩٧.
(٨) دائرة المعارف ج ٥ ص ٢٤.
(٩) أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين: ج ١ ص ٢٠.
(١٠) سورة الشورى الآية ٢٣.
(١١) بحث في الملل والنحل للعلامة المحقق آية الله العظمى الشيخ السبحاني ج ٦ ص ٧-٩ بتصرف يسير.
(١٢) فوات الوفيات لابن شاکر الکتبي ج ١ ص ٦٠٩.
(١٣) تاريخ الإسلام للذهبي ج ٤٨ ص ٢٠٢.
(١٤) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢٣ ص ٢٧٥.
(١٥) الوافي بالوفيات للصفدي ج ١٨ ص ٤٦.
(١٦) الأعلام لـ خير الدين الزركلي ج ٣ ص ٢٨٩.
(١٧) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ٢١٢.
(١٨) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ٢٣٣.
(١٩) ارجع إلى أي مصنف صنف في الملل والنحل والفرق الإسلامية تجددهم يذكرون الشيعة منفصلين كلياً عن المعتزلة. بل المعتزلة قد نشأت بعد قرن من الزمن في التاريخ الإسلامي.
(٢٠) شرح نهج البلاغة: ج ١ ص ١٥.
(٢١) شرح نهج البلاغة: ج ١ ص ١٧.
(٢٢) المصدر السابق: ص ١٧.
(٢٣) المصدر السابق: ص ١٩.
(٢٤) المصدر السابق: ص ١٩.

- (٢٥) المصدر السابق: ج ١ ص ٢٠.
- (٢٦) من أراد الإطلاع في هذا الأمر فعليه أن يرجع إلى كتاب الغدير للعلامة الشيخ عبدالحسين الأميني رحمته الله.
- (٢٧) شرح نهج البلاغة: ج ١ ص ١١٠-١١١.
- (٢٨) شرح النهج: ج ١ ص ١١٠ من كلامه في المنافقين.
- (٢٩) شرح النهج: ج ١ ص ١١١.
- (٣٠) شرح النهج: ج ١ ص ١٢٢-١٢٣.
- (٣١) شرح النهج: ج ١ ص ٢٩.
- (٣٢) شرح النهج: ج ١ ص ١٤٢.
- (٣٣) شرح النهج: ج ١ ص ٣٤٨.
- (٣٤) الكتاب هو (العواصم من القواصم) مؤلفه ابن العربي (الناصي) وتحقيق محب الدين الخطيب. وكذلك (منهاج السنة) لابن تيمية الحرّاني.
- (٣٥) شرح النهج: ج ١ ص ٢٢٧.
- (٣٦) شرح النهج: ج ١ ص ١٢٣ ، في مسألة تأويل كلمة (وعصى آدم ربّه فغوى) وتنزيه نبي الله آدم عن المعصية، وحمل كلمة الغواية العدول عن الأولى.
- (٣٧) لمن يريد الإطلاع على هذه الكتب فليرجع إلى الرسائل الجامعية من جامعة الملك فيصل بالرياض.
- (٣٨) شرح النهج: ج ١ ص ٢٤٦ بتصرف يسير.
- (٣٩) شرح النهج: ج ١ ص ٢٤٧-٢٤٨.
- (٤٠) شرح النهج: ج ١ ص ٢٤٩.
- (٤١) شرح النهج: ج ١ ص ٢٤٩.
- (٤٢) شرح النهج: ج ١ ص ٢٤٩ بتصرف يسير في المتن.
- (٤٣) شرح النهج: ج ٢ ص ٢٦٤-٢٦٥.
- (٤٤) شرح النهج: ج ٢ ص ٢٦٩.

بحث في التوسل

مفهومه - أنواعه - الإجابة على مشروعيته

أحمد محمود اللواتي

الهدف من البحث

يهدف هذا البحث - باختصار شديد - إلى بيان حقيقة التوسل ومشروعيته من خلال استعراض الأدلة النقلية والبراهين العقلية ومن خلال توزيعه إلى أنواعه وأقسامه المختلفة. كل ذلك لما أداه التوسل من جدل واسع عند بعض الأفراد من المسلمين والذين قاموا على ضوء فهمهم السطحي له بالمسارعة إلى تكفير القائلين به وحتى الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك وهو جواز قتلهم.... وما لحقه ذلك من ويلات أصابت المسلمين من حينها.

منهجية البحث

البحث ينقسم إلى عدة أقسام يبدأ ببيان معنى التوسل في اللغة والاصطلاح ثم يشرع في سرد أنواع التوسل وبيان معانيها والأدلة عليها، وبعدها يتوسع في توضيح النوع الأخير منه - وهو التوسل بالمعصومين والصالحين - وتدعيمه بالأدلة العقلية والنقلية. والبحث عبارة عن حصيلة مجمعة مما كتبه العلماء الأعلام في مختلف الكتب المتفرقة وفيه محاولة لمنهجية الأبحاث المتفرقة واختصار ما ذكره علماءنا في بيان مشروعيته - جزاهم الله خير الجزاء - الذين بذلوا النفس والنفيس في سبيل خدمة هذا الدين وأوضحوا معالمه وأموراً أخرى كثيرة منها التوسل ومشروعيته لما أثاره

التوسل من خلاف على ما ذكرناه في البداية.
وفي آخره يسرد البحث بعض الإشكالات الواردة والرد عليها انتهاءً بخاتمة
توضح فائدة من فوائد التوسل وذكر أهمية من أهمياته.

تعريف التوسل في اللغة والاصطلاح

التوسل في اللغة:

قال الجوهري في الصحاح -مادة وسل -: "الوسيلة هي ما يتقرب به إلى الغير،
والجمع الوصيل أو الوسائل ويقال توسل فلان إلى ربه بوسيلة أي تقرب إليه بعمل"^(١).
وقال القرطبي في تفسيره: "الوسيلة هي القربة -نقلاً عن أبي وائل والحسن
ومجاهد وقتادة وعطاء والسدي وابن زيد وعبدالله بن كثير- وهي فعيلة من توسلت إليه
أي تقربت"^(٢). وقال ابن منظور في لسان العرب: "توسل إلى الله بوسيلة أي تقرب إليه
بعمل ووسل فلان إلى الله وسيلة إذا تقرب إليه، والوسيلة هي القربة والدرجة والمتربة
عند الملك"^(٣).

وقال الخليل في كتاب العين: "التوسل لغة من وسلت إلى ربي وسيلة أي عملت
عملاً أتقرب به إليه وتوسلت إلى فلان بكتاب أو قرابة أي تقربت به إليه"^(٤). وقال ابن
الأثير في النهاية: "الوسيلة هي القربة وما يتوصل به إلى شيء ويتقرب به"^(٥).

وقال الراغب الأصفهاني في المفردات: "الوسيلة هي التوصل إلى الشيء برغبة وهي
كالقربة"^(٦). وقال ابن فارس في معجم المقاييس: "الوسيلة هي الرغبة والطلب ويقال
وسل إذا رغب والواصل الراغب"^(٧). من هنا يتضح أن معنى الوسيلة -في هذا المقام-
في اللغة بمعنى القربة والتقرب إلى الله ﷻ، وهي ليست بمعنى الواسطة والتوسط كما
يتبادر إلى الذهن في بادئ الأمر.

التوسل في الاصطلاح:

يعرف الشيخ جعفر السبحاني في كتاب التوسل أو الاستغاثة بالأرواح بالقول: "هو أن يتقرب العبد إلى الله تعالى بشيء يكون وسيلة لاستجابة الدعاء ونيل المطلوب، وجعل هذا الشيء الذي له قدر ومرتبة طريق للدعاء" (٨).

ويعرفه في كتاب التوسل في الشريعة الغراء بقوله: "التوسل هو أن يقدم العبد إلى ربه شيئاً ليكون وسيلة إلى الله حتى يقبل دعاءه ويجيبه إلى ما دعا وينال مطلوبه، مثلاً إذا ذكر الله بأسمائه الحسنی وصفاته العلیا ومجده وقده وعظمه ثم دعا بما بدا له فقد اتخذ أسماءه وسيلة لاستجابة الدعاء ونيل مطلوبه ومثله سائر التوسلات" (٩).

يقول العلامة الطباطبائي في هذا المقام: "وحيث أن الوسيلة إلى الله مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة وهي ليست إلا اتصال معنوي بما يوصل بين العبد وربّه، ولا رابط يربط العبد بربه إلا ذلة العبودية، وأمّا العلم والعمل فإنهما من لوازمها وأدواتها كما هو ظاهر" (١٠).

يظهر لنا من التعاريف السابقة للعلماء الأعلام أن التوسل عبارة عن طريق يتخذه العبد ليتقرب به إلى الله تعالى ويظهر له كل معاني العبودية والولاء تعبداً بهذا المسلك ويبين للباري من خلاله تضرعه وحاجته وأيضاً شكره وامتنانه على نعمه، ويطلب منه -به- غفران ذنوبه.

أنواع التوسل

١- التوسل بالله تعالى وبصفاته وأسمائه:

عندما يكون الله سبحانه هو منطلق الوجود ومحور حركة هذا الكون بما فيه، وعندما يكون هو المتيب والمعاقب والمخالق والرازق.... فيجوز عندئذٍ التوسل به أو

بأسمائه وصفاته بل إن هذا يعد من منطلق الثقة به والاعتماد والتوكل عليه، فنحن نجد أن الله سبحانه قد أمر عباده في كتابه المجيد بالتوسل به وطلب القربى منه فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١١). وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(١٢). وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾^(١٣).

ولذلك كان حقاً على كل من اعترف بالعبودية لله أن يتوسل به أو بصفاته وأسمائه سواء كان نبياً أو ولياً أو صالحاً أو غيره... فقد جرى على ذلك أئمة الهدى الطاهرين، فهذا النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك -برضاك- من سخطك ومعاماتك من عقوبتك وأعوذ بك منك»^(١٤) وتبعه الإمام زين العابدين عليه السلام من بعده في الطريق فنجى ربه بقوله: «يا غوث كل مخدول فريد ويا عضد كل محتاج طريد» ثم يطلب منه أن يقضي حاجاته ويفك عنه ما ابتلي به وهذا في الصحيفة السجادية.

وقد روي عن الرضا عليه السلام عن جده الباقر عليه السلام أنه كان يدعو الله في شهر رمضان بقوله «اللهم إني أسألك بما أنت فيه من الشأن والجبروت وأسألك بكل شأن وحده وجبروت وحدها، اللهم إني أسألك بما تجيبني به حين أسألك فأجيني يا الله...» وهو من أدعية السحر المعروفة. ولذا كانت كتب الأدعية مليئة بهذا النوع من التوسل مثل كتاب مفاتيح الجنان الذي يحوي دعاء الجوشن الكبير والذي يتوسل - بمجمله - بأسماء الله وصفاته وكذا الصحيفة السجادية الواردة عن الإمام السجاد عليه السلام. وغيرها الكثير من الأدعية التي نقلتها لنا سيرة الرسول وأهل بيته الأطياب...

٢- التوسل بالقرآن الكريم:

كما يتبين لنا في مباحث العقائد والحديث عن حدوث القرآن، أن كتاب الله هو

المنزل على رسوله بهدف تعليم الناس شرع الله وبيان أحكامه، وبالتالي يكون التوسل بالقرآن توسل بفعل الله سبحانه، وهو كالتوسل بأسمائه وصفاته.

روي عن عمران بن الحصين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن واسألوا الله تبارك وتعالى به، قبل أن يجيء قوم يسألون به الناس -أي أهل الحساب-»^(١٥). ويقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة: «فاسألوا الله به -أي بالقرآن- وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله تعالى بمثله» ثم يقول: «وأعلموا أنه شافع مشفع وقائل مصدق وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه»^(١٦). وروي عن رسول الله ﷺ: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة»^(١٧).

يتضح لنا من خلال ما سردناه من روايات جواز العمل بهذا النوع من أنواع التوسل والحث عليه من قبل نبي الرحمة، مع العلم بأن الروايات واردة من كتب الفريقين.

ويتضح وجود هذا النوع من التوسل في كتب الأدعية، فالإمام السجاد في الصحيفة السجادية يقول: «واحطط بالقرآن عناً ثقل الأوزار»^(١٨). ثم يطلب من الله أن يخفف عن الإنسان سكرات الموت وأهواله متوجهاً ومتوسلاً بالقرآن. وورد عن أهل البيت عليه السلام في دعاء رفع المصاحف -وهو ما يدعى به في ليالي القدر-: «اللهم إني أسألك بكتابك المنزل وما فيه وفيه اسمك الأكبر... أن تجعلني من عتقائك من النار»^(١٩).

٣- التوسل بالأعمال الصالحة:

يوضح القرآن الكريم هذا النوع من التوسل عندما يحكي قصة النبي إبراهيم وابنه إسماعيل عليه السلام ويبين أن سبب رفعهما للقواعد وبناء البيت الحرام هو التقرب

إلى الله، وطلب الحاجات منه عن طريق التوسل بهذا العمل.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢٠).

ويذكر القرآن صنف من الناس يتوسلون إلى الله بعملهم الصالح - وهو الإيمان الخالص - ليغفر لهم الذنوب ويقيهم من عذاب النار وهو يشيد بهم فيقول: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمَتٌ فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢١).

يقول العلامة الطباطبائي في شرح هذه الآية: "وفيها إظهار للعبودية بذكره تعالى بالربوبية واسترحام منه تعالى.... والجملة ليست في مقام الامتحان عليه بل استتجاز لما وعد الله عباده أن يغفر لمن آمن منهم ولذلك فرعوا إليه بفاء التفرع - نتيجة لإيمانهم الحق"^(٢٢).

بالإضافة إلى توضيح القرآن لهذا النوع من التوسل فإنه حثَّ على التقرب إلى الله بالعمل الصالح لدرجة أن المتتبع قد يجد في كل آية من آياته ذكر لذلك فيقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٢٣)، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٢٤)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(٢٥)، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٢٦).

وقد روي عن العلامة الطبرسي: "أن أصحاب الكهف النفر الثلاثة الذين دخلوا في غار فانسد عليهم فقالوا: ليدع الله تعالى كل واحد منا بعمله حتى يفرج الله عنا، ففعلوا فنجاهم الله"^(٢٧).

ونلاحظ في حديثنا عن هذا النوع من التوسل أن العبادة مقرونة دوماً بنية

القربة لله، ونجد الرسائل العملية تتحدث دوماً عن عدم قبول العمل بدون استحضر هذه النية، وهو من الأدلة الواردة لشرعنة هذا النوع من التوسل.

٤- التوسل بدعاء الغير:

ويقصد بهذا النوع من التوسل التقرب إلى الله بطلب المؤمن من غيره أن يدعو له فيكون حاله حال المتوسل إلى الله بدعاء الغير له.

وينقسم هذا التوسل إلى عدة أقسام منها:

أ- دعاء المؤمن لأخيه المؤمن:

يذكر الله سبحانه في كتابه المجيد: ﴿الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾^(٢٨). تدل هذه الآية على مشروعية دعوة المؤمن للمؤمن بظهور الغيب وتشيد بمن يقوم بذلك.

ويظهر لنا من سيرة النبي ﷺ الحث على هذا النوع من التوسل فقال لأصحابه: «إن رجلاً من أهل اليمن يقدم عليكم يقال له أويس، فمن لقيه منكم فليأمره فليستغفر لكم»^(٢٩). وروي أيضاً عن نبي الرحمة ﷺ: «إن دعوة المسلم مستجابة لأخيه بظهور الغيب»^(٣٠).

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول «سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله»^(٣١). وفي الحديث دلالة واضحة المضمون على أن النبي ﷺ توسل إلى الله بدعاء أمته له وإذا كان النبي ﷺ يعمل بهذا التوسل، فالمسلمون أولى أن يتمسكوا بهذه الوسيلة.

ب - دعاء المعصوم للمؤمنين في حياته:

حينما نبحر في بحر القرآن الكريم نرى الكثير من الآيات الموضحة والذاكرة

لهذا النوع من التوسل، سواء في شريعة خاتم الأنبياء محمد ﷺ أو من قبله من أنبياء الشرائع، فعلى سبيل المثال لا الحصر ذكر القرآن في سورة يوسف قصة أخوة يوسف ﷺ وتوسلهم بدعاء أبيهم فقالوا له: ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ ثم ردّ عليهم مؤيداً لفكرتهم بقوله ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣٢).

وعند ذكر القرآن لخاتم الأنبياء والمرسلين والمكانة عالية التشريف في محكم الآيات يذكر القرآن دعاء النبي ﷺ لغيره ومشروعيته بل استجابة دعائه لهم في قوله: ﴿ وَكَوَّأَهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ (٣٣). وأما في سيرة النبي ﷺ فقد وردت عدة حوادث دعا فيها النبي بفنون الدعوات بناءً على طلب الناس.

منها ما رواه البخاري ومسلم من أن رجلاً دخل على النبي ﷺ وهو يخاطب في المسجد يوم الجمعة وطلب منه أن يدعو الله ليعينهم بالمطر نظراً للجذب وآثاره فدعا رسول الله ﷺ له بذلك، فطلعت سحابة ولما توسطت السماء أمطرت فقال الأعرابي بعدها: والله ما رأينا الشمس سبتاً - أي أسبوعاً كاملاً (٣٤).

بقيت ملاحظة لا بدّ من ذكرها في هذا المقام، وهي عدم صحة المساواة بين دعاء المؤمن لأخيه، ودعاء النبي ﷺ لغيره. صحيح أن لدعاء المؤمن حرمة ومقام رفيع عند الباري جلّ وعزّاه ولكن أين ذلك من دعاء النبي ﷺ؟!... ولهذا تمّ التفريق في هذا البحث بين دعاء المعصوم للمؤمنين ودعاء المؤمن لأخيه المؤمن.

ج - التوسل بالمعصوم بعد مماته:

وسيأتي الحديث عنه في النوع اللاحق لما يتطلبه من مقدمات وبراهين وأدلة عقلية ونقلية...

٥- التوسل بالمعصومين - الأنبياء والأئمة - والصالحين:

وينقسم هذا النوع من التوسل وبحته إلى ثلاثة أقسام:

أ- التوسل بدعاء المعصوم أو الصالح في حياته:

وقد تقدم الحديث عن التوسل بدعاء المعصوم في البحث السابق، بالإضافة إلى ما يتعلق بدعاء الصالح المؤمن لأخيه.

ب - التوسل بهم في حياتهم:

يقول صاحب كتاب الزيارة والتوسل: " المراد بالتوسل هنا هو التوسل بالمعصومين والصالحين بأنفسهم وذواتهم لما لهم عند الله من شأن ومترلة" (٣٥) ومما يدل على المشروعية ما روي في السيرة النبوية.

فقد روي عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: أدعُ الله أن يعافيني يا رسول الله، فقال ﷺ: إن شئت دعوتُ وإن شئت صبرتَ فهو خير لك. فقال الضرير: فادعه، فأمره ﷺ أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى الله ربي في حاجتي لتقضى اللهم شفعه في»، قال ابن حنيف: فوالله ما تفرقتنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضرر. (٣٦)

وروي أن الخليفة عمر بن الخطاب كان -إذا قحطوا- استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقيننا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا» قال: «فيسقون» (٣٧).

ج - التوسل بالمعصومين عليهم السلام بعد مماتهم:

هذا المبحث يحتاج إلى مقدمتين ثم ذكر الأدلة العقلية والنقلية، بالإضافة إلى

بيان الفرق بين الشرك والتوسل. وهو يشمل الحديث عن التوسل بهم مباشرة أو بجاههم وحقهم أو بمقامهم.

المقدمة الأولى:- حياتهم في عالم البرزخ:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٣٨). وروي عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»^(٣٩).

وهنا دلالة على أن الموت هو عملية انتقال من حياة إلى أخرى يختلف طابعها عن الطابع الذي نعرفه وهو البرزخ، كما يتبين أن الذي يقضي حياته في سبيل الله لا يعتبر ميتاً بل حي في عالم البرزخ. وإذا كان المقصود من الآية السالفة الذكر أن المقتول في سبيل الله محصور بالشهيد، وصدقنا بهذا المعنى، فكيف يتصور أن يكون الشهداء أحياء ولا يكون النبي وأهل العصمة - وهم القادة - أحياء؟!

المقدمة الثانية:- سماعهم لمن يتحدث معهم:

يقول الشيخ جعفر كاشف الغطاء رحمته الله: "إنهم يسمعون الكلام ويردون الجواب كما في حياتهم، غير أن الله حبس سمع الناس إلا قليلاً من الخواص.... ولا ينافي ذلك إطلاق اسم الموت عليه". ثم يتابع بقوله "روى أبو داود في مسنده عن أبي هريرة مرفوعاً عن النبي ﷺ قال: «ما من أحد يسلم علي إلا ردّ الله روحي حتى أردّ عليه»"^(٤٠).

وروي عن النبي ﷺ: «أكثرُوا عليّ من الصلاة يوم الجمعة، فإنّ صلاتكم معروضة عليّ. قالوا: كيف تعرض عليك وأنت رميم، فقال: إن الله حرم على الأرض لحوم الأنبياء»^(٤١).

ونقرأ في نهج البلاغة أن الإمام علياً عليه السلام عندما عاد من صفين بلغ مقبرة كانت خلف سور الكوفة، فخاطب الموتى فقال كلاماً في تقلّب الدنيا ثم قال: «هذا ما عندنا

فما خبر ما عندكم» ثم أضاف ﷺ «أما لو أذن لهم في الكلام لأخبروكم أن خير الزاد التقوى»^(٤٢). وروى ابن عباس عن النبي ﷺ: «ما من رجل يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام»^(٤٣).

ويدل ما استعرض من روايات على سماع الميت لمن يخاطبه ولكن الباري جعل بيننا وبينهم حجاباً، ألا نرى أن المسلمين بأجمعهم يسلمون على النبي ﷺ خمس مرات في اليوم أثناء صلاتهم -على أقل تقدير-؟! ألا يستدعي عدم رد النبي للسلام -ولو كانت هناك فائدة مجازية للمسلم- ضرباً من ضروب العبث؟! خاصة وأنه لا يستمع إلى المسلمین عليه؟! ألم يصرح النبي ﷺ تصريحاً واضحاً بسماع المؤمن الميت للمؤمن الحي وهو يسلم عليه؟!

وتأكيداً لما ورد عن سماع الأنبياء لمن يسلم عليهم أو يخاطبهم ويتحدث معهم ما يتم فعله عند زيارة النبي ﷺ وما ورد من أخذ إذن الزيارة قبل الدخول إلى حرمة. فقد قال الشيخ المفيد رحمته إذا أراد الزائر أن يستأذن لدخول حرم النبي ﷺ: "إذا وردت مدينة النبي ﷺ وأردت الدخول فقف على الباب وقل: اللهم إني وقفت على باب من أبواب بيوت نبيك... ثم تقول: اللهم إني أعتقد حرمة نبيك في غيبته كما أعتقدها في حضرته وأعلم أن رسلك وخلفائك أحياء عندك يرزقون، يرون مقامي ويسمعون كلامي في وقتي هذا ويردون علي سلامي وأنت حجبت عن سمعي كلامهم... الخ"^(٤٤).

يتضح من المقدمتين الآنفتي الذكر أن المعصومين عليهم السلام أحياء في عالم آخر يسمعون الكلام ويردّون السلام، إلا أن هناك حاجب يمنعنا عن سماع ما يقولون. أمّا إثبات الدليل على جواز التوسل بهم ومخاطبتهم وبث الشكوى عندهم فسيأتي الحديث عنه في النقاط الآتية.

الدليل على عدم ممانعة العقل للتوسل

قبل الشروع في بيان جواز التوسل، لا بدّ من تعريف معنى العبادة. يعرف الشيخ السبحاني العبادة بقوله: "العبادة ليست سوى إظهار الخضوع أمام موجود يُعتدُّ بأنه إله وربّ أو مفوّض إليه الأفعال الإلهية، فلو كان الخضوع خالياً عن هذا الاعتقاد فلا يعد عبادة ولا شركاً فيها" (٤٥).

وانطلاقاً من هذا التعريف المتفق عليه -حتى عقلاً-، لا نجد أي مانع عقلي من أن يوسط الإنسان أحداً يملك خاصية قبول الدعوة من باب أنّ دعوته أسمع عند الله، لما لهذا الوجيه من مكانة عند الباري جَنَّ وَعَلَّ وهذه الوسطة لا تكون بنحو تستقل بفعلها عن المتوجّه الحقيقي وهو الله بل يقوم بدور الأعراف بالباري. كالوزير والملك عندما يريد العوام أن يتقربوا إلى الملك ويطلبوا منه ما يحتاجون ويريدون، فإنهم يوسطون الوزير ويسألونه أن يقضي حاجاتهم، فيقوم هو بدوره بالحديث مع الملك كونه الأقرب لديه والأعراف بحاله وبالتالي يكون دوره دور الوسيط المتمكن من إجابة الطلب.

الفرق بين التوسل والشرك

الشرك الذي قد يتحقق من الناس دون التفات هو اتخاذ الأسباب والاعتقاد بأنها المسببة بذاتها من غير تدخل إرادة الله كالتاجر عندما يعتقد أن فطنته وطريقته في التجارة هي لوحدها -بنحو مستقل- الطريق المؤدي لربحه واكتسابه للخيرات؛ فإنّ ذلك يعد شركاً إن لم يعتقد أنها آلة تؤدي إلى الریح بإذن الله. أمّا طلب الحاجة من الناس -سواء كانت الحاجة دينية أو دنيوية كشفاء المرض وكشف البلاء- فإنه لا يعد من الشرك، وإنما هو معنى التوسل الحقيقي لأنه لا يقصد

إشراك المتوسل إليه في كشف الضر - كما ذكرنا في الدليل العقلي -.

ونحن نرى تصريح القرآن - في قصة الإتيان بعرش بلقيس - نرى النبي سليمان يستعين بأصف بن برخيا ليحلب له بلقيس وعرشها، وهذا لا ينافي التوحيد لأن الاستعانة بآخر لتحقيق المراد والوصول إلى المقصود بمن لا يُعتقد أنه إله أو أنه شريك للباري لا تنافي ذلك؛ حيث أن المستعان به له صفات - مكتسبة من الله - تعينه على تحقيق مراد المستعين.

"فالشرك لا يكون شركاً - مع عدم الاعتقاد بالشريك - خصوصاً أن الشرك أمر قلبي" (٤٦).

"ولا يكون الشرك شركاً إلا إذا كان المخضوع له ممنوعاً بأحد النعوت المنعوتة بالعناوين الثلاثة الآتية: ١. أنه إله. ٢. أنه رب. ٣. أنه مفوض إليه فعل الإله" (٤٧).

ويقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في هذا المقام: "والعجب - هنا - أن يدعي البعض أن هذا التوسل نوع من الشرك، حيث أن المعروف عن الشرك هو القول بوجود من يشارك الله في صفاته وأعماله" (٤٨).

الدليل النقلى على مشروعية التوسل

أ- الدليل من القرآن الكريم:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٩).

ما يهمنا في هذا المقام هو بيان أن كل ما ذكر - في هذا البحث - من أنواع التوسل يعد وسيلة، وبالتالي يكون التوسل بالمعصوم أحد مصاديق هذه الوسيلة ولعل ذلك من أعظمها رتبة لأن الباري يقول: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ

شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا^(٥٠)، ويقول: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٥١).

وعند جمع الآية الأولى بالثانية يتضح أن معنى السبيل هو المودة في القربى ولتوضيح معنى القربى نذكر هذه الرواية، ولمن أراد الاستزادة فإن ذلك يطلب من محله.

ذكر الزمخشري في تفسيره والحاكم النيشابوري في مستدركه أن النبي ﷺ سئل عن معنى القربى فأجاب: «علي وفاطمة وابناهما، حرمت الجنة علي من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي... الخ».

ب - الدليل من الروايات والسيرة:

١- ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من خرج من بيته للصلاة وقرأ (اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا... الخ) أقبل بوجهه واستغفر له ألف ملك»^(٥٢).

والدعاء هنا يتوسل بحق السائلين بشكل عام وهي غير مخصصة بزمان أو مكان معين -وما يهمننا هو الزمان- وإن من السائلين أهل العصمة عليهم السلام فالداعي يتوسل بشكل من الأشكال بحقهم إلى الله.

٢- أنشدت صفية بنت عبد المطلب عمه النبي ﷺ بعد وفاته وقالت في رثائه على مرأى ومسمع من الصحابة: "ألا يا رسول الله أنت رجأؤنا. وكنت بنا برأ ولم تكن جافياً"^(٥٣). ولم يعترض عليها أحد عند مخاطبتها للنبي ﷺ بالقول (أنت رجأؤنا)....

٣- روى البيهقي أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له وكان

عثمان لا يلتفت إليه، فشكا الرجل الأمر لعثمان بن حنيف، فأمره أن يقول: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي ليقضي لي حاجتي» ثم أمره أن يذكر حاجته ففعل وقضيت له حاجته عند عثمان بن عفان. ثم إن الرجل خرج من عنده ولقي عثمان بن حنيف وقال له: «جزاك الله خيراً ما كان لينظر في حاجتي حتى كلمته في» فأجابته: «ما كلمته ولكني سمعت رسول الله يأمر ضريراً بفعل ذلك»^(٥٤).

وفي هذه الرواية دليل واضح على عمل صحابة الرسول ﷺ بالتوسل وهم في عهد عثمان بن عفان.

٤- ما فعله أبو علي الخلال شيخ الحنابلة حيث قال: "ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسلت به إلا سهل الله تعالى لي ما أحب"^(٥٥).

٥- ما روي عن أوس بن عبد الله قال: قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف قال ففعلوا فمطرنا مطراً حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق^(٥٦).

٦- ما وري في كتب الأدعية عن الأئمة عليهم السلام حيث يقول علي عليه السلام: «اللهم بحق محمد وآل محمد عليك... أن تعطيني... ثم يطلب الحاجات»^(٥٧).

ويقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة من مفاتيح الجنان: «اللهم إنا نتوجه إليك في هذه العشية التي فرضتها وعظمتها بمحمد نبيك...».

إشكالات وردود

أورد البعض إشكالات يعتقد بأنها كفيلة لإيقاف عملية التوسل وبالخصوص

التوسل بالمعصومين عليهم السلام، ولكن العلماء الأعلام قاموا ببيان هذه الإشكالات والرد عليها برد علمي منها ما ذكره الشيخ جعفر السبحاني في كتابه التوسل. ومنها:

الإشكال ١: يقول سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. والتوسل نوع من أنواع الاستعانة بغير الله والآية تدل على حصر الاستعانة واختصاصها بالله وحده.

الرد:

١- إن الاستغاثة بالناس والاستعانة بهم لا يتنافى مع حصر الاستعانة بالله لأن الاستعانة بهم يكون باعتقاد أن الله هو المؤيد لهم، فلا يكون عملهم بداعي الاستقلال - كما ذكرنا سابقاً - بل بعون الله وتوفيقه والذي هو رب الأرباب.

٢- يقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٥٨). هذا في الوقت الذي يحصر الاستعانة به، فإن قلنا بالتنافي بين الآيتين سقطت بذلك حجية القرآن كله! ولكن الواقع أن لا تنافي بينهما؛ لأن الاستعانة بالله تكون بالاستعانة بالصبر والصلاة وغيرها مثل التوسل.

يقول السيد الخوئي رحمته الله في هذا المقام وفي تفسير الآية: "لا مانع من استعانة الإنسان في مقصده بغير الله من المخلوقات أو الأفعال فليست الاستعانة منحصرة بالله، بل المراد منها استعداد القدرة على العبادة منه والاستزادة من توفيقه لها - أي العبادة - حتى تتم وتخلص" ^(٥٩).

الإشكال ٢: يقول الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٦). ويقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(٦). فهو يصرح بقرآن أنه أقرب إلينا من أي شيء آخر ويعبر عن مدى هذا القرب. وبسبب

ذلك نقول ما الداعي إلى التوسل والله أقرب المقربين بل إن العمل بالتوسل مخالف لما يريد الله منا وهو الدعاء المباشر له.

الرد:

١- إن التوسل بالمعصوم عليه السلام هو بجد ذاته عملية تقرب إلى الله، وهو بنفسه يحقق مقصدان أيضاً هما القربة منه -كما قلنا- ونيل الحاجات والطلبات لما للمتوسل بهم مكانة مؤثرة في استجابة الدعاء.

٢- إننا إذا أخذنا الآية بظاهرها ولم نفسرها بالطريقة الصحيحة نصل إلى نتيجة تقول بعدم الحاجة إلى التقرب إلى الباري بقراءة القرآن أو الدعاء، بل إنه لا داعي أن يتوسل الإنسان بالأعمال الصالحة؛ لأن الله أقرب إلينا من حبل الوريد فمعرفة بالحال تغني عن السؤال والتقرب بما يجب! وهذا ما يسمى بالجواب النقضي.

خاتمة في الحاجة إلى التوسل

إن الحاجة تنطلق من أن للناس عدّة من المنطلقات المختلفة والدوافع المتنوعة لإدخال واسطة تقرّبهم إلى الله منها: قضاء الحاجات الدنيوية، تفرّج الكربات، شفاء الأمراض، التعلق الشديد بالمتوسل وحبّه والشفاعة في اليوم الآخر. والشفاعة دافع في نفس المتوسل لما لها من أهمية في الآخرة. ليس المقام هنا إثبات دليل قدرة المتوسل به على الشفاعة لأن ذلك مجالاً آخر وبمحت مختلف موسع. إلا أن الخاتمة تقتضي بيان أهمية التوسل في الحياة الدنيوية واعتباره طريق موصل إلى الله. يقول السيد الخوئي رحمته الله: "وعلى هذا ليس لمخلوق أن يستشفع بمخلوق مثله ويجعله واسطة بينه وبين ربه هذا كله إذا لم تكن بإذن من الله، وأما إذا إذن الله

بالشفاعة لأحد فإن الاستشفاع به يكون نحواً من الخضوع لله والتعبد له. ويستفاد من القرآن الكريم أن الله تعالى قد أذن لبعض عباده بالشفاعة إلا أنهم لم ينوّه بذكرهم عدا الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ والروايات الواردة عن النبي الأكرم وأهل بيته عليهم السلام في هذا الموضوع متواترة^(٦). وننقل هذه الرواية المؤثرة والتي تبين دور التوسل في نيل الشفاعة كخاتمة للبحث. قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيامة هل تدرون بم ذلك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد ويسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنون الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس: ألا ترون ما بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم فيأتون آدم فيردهم ويأتون نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى فيردوهم كآدم خائبين ثم يأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا عند ربك ألا ترى ما نحن فيه؟.... فأنتلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله علي شيئاً لم يفتحه علي أحد قبلي ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول: أمّتي يا رب أمّتي يا رب فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم، ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحميراً وكما بين مكة وبُصرى»^(٦٣).

-تم بحمد الله وتوفيقه -

المواهب:

(١) ج ٤ ص ١٤٩٧.

(٢) ج ٦ ص ١٥٩.

- (٣) ج ١٥ ص ٢١٣.
- (٤) ج ٧ ص ٢٩٨.
- (٥) ج ٥ ص ١٨٥.
- (٦) ص ٥٢٣.
- (٧) ج ٦ ص ١١٠.
- (٨) ص ١٠١-١٠٢.
- (٩) ص ١٨.
- (١٠) الميزان ج ٥ ص ٣٢٨.
- (١١) غافر الآية: ٦٠.
- (١٢) البقرة الآية: ١٨٦.
- (١٣) الأعراف الآية: ٨.
- (١٤) سنن الترمذي ج ٥ ص ٥٦١ ح ٣٥٦٦.
- (١٥) مسند أحمد بن حنبل ج ٤ ص ٤٤٥ والبيهقي في شعب الإيمان ج ١ ص ٦٠٨.
- (١٦) نهج البلاغة خطبة ١٣.
- (١٧) مسند أحمد بن حنبل ح ٦٦٣٧.
- (١٨) الصحيفة السجادية الدعاء ٤٢.
- (١٩) مفاتيح الجنان. أدعية شهر رمضان.
- (٢٠) البقرة: ١٢٧ - ١٢٨.
- (٢١) آل عمران: ١٦٩.
- (٢٢) الميزان ج ٣ ص ١١١.
- (٢٣) فاطر: ٢٥.
- (٢٤) البقرة: ٢٥.
- (٢٥) مريم: ٩٦.
- (٢٦) سبأ: ٤.

- (٢٧) مجمع البيان: ج ٣ ص ٤٥٢.
- (٢٨) الحشر: ٥٩.
- (٢٩) صحيح مسلم: ح ٢٠٤٢.
- (٣٠) مسند أحمد بن حنبل ١٩٥/٥.
- (٣١) مسلم في الصحيح ٤/٢، الترمذي ٥٨٩/٥.
- (٣٢) يوسف: ٩٧ - ٩٨.
- (٣٣) النساء: ٦٤.
- (٣٤) رواه البخاري كتاب الاستسقاء باب ٦٤٣، وصحيح مسلم في نفس الكتاب.
- (٣٥) ص ٢٣٧.
- (٣٦) صحيح الترمذي ح ٣٥٧٨. كتاب الدعوات، سنن ابن ماجه في حديث ١٣٨٥، أحمد بن حنبل ١٣٨/٤.
- (٣٧) صحيح البخاري كتاب صلاة الاستسقاء ج ٣٢/٢، وسنن البيهقي في الكتاب نفسه ج ٣٥٢/٣.
- (٣٨) البقرة ١٥٤.
- (٣٩) البيهقي في حياة الأنبياء، والشوكاني في نيل الأوطار، وابن عساكر في تاريخ دمشق، ج ١٣ ص ٣٢٦.
- (٤٠) منهاج الرشاد لمن أراد المراد ص ٥٦٧.
- (٤١) كنز العمال ج ١ ح ٢١٤١.
- (٤٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار رقم ١٣٠.
- (٤٣) ابن عساكر في تاريخ دمشق والخطيب في تاريخ بغداد.
- (٤٤) بحار الأنوار: ج ٧ ص ١٦٠.
- (٤٥) الإلهيات ج ٢ ص ١٠١.
- (٤٦) ليالي بيشاور ص ١٤٦٧.
- (٤٧) الإلهيات ج ٢ ص ١٠١.

- (٤٨) الكشكول العقلائي ص ١٢٣.
- (٤٩) المائة ٣٥.
- (٥٠) الفرقان: ٥٧.
- (٥١) الشورى ٢٣.
- (٥٢) مسند أحمد بن حنبل ج ٣ ح ٢١، وصحيح حافظ القزويني ٥٦٢/١.
- (٥٣) الطبري في ذخائر العقبى ص ٢٥٢، ومجمع الزوائد ٣٦/٩.
- (٥٤) المعجم للطبراني ج ٩ ص ١٦.
- (٥٥) تاريخ بغداد ج ١ ص ١٢٠.
- (٥٦) سنن عقد الدرامي ج ١ ص ٤٣.
- (٥٧) الصحيفة العلوية للسماهيجي ص ٥١.
- (٥٨) البقرة ٤٥.
- (٥٩) البيان في تفسير القرآن ص ٤٨٠.
- (٦٠) ق ١٦.
- (٦١) البقرة ١٨٦.
- (٦٢) البيان ص ٤٨٠.
- (٦٣) البخاري ٨٤/٦-٨٥، مسلم ١٢٧/١-٣٠ أحمد بن حنبل ٤١٢/٢، بحار الأنوار ج ٨/٤٦.

رجال البحرين (خير أهل المشرق)

(القسم الثاني)

محمد علي العربي

بسم الله الرحمن الرحيم، تعرضنا في القسم الأول من هذا المقال لجملة من أصحاب النبي ﷺ البحرينيين، الذين اختص بعضهم بالرواية عنه ﷺ أو صحبته أو النظر لوجه المبارك أو أنه ورد في أخبار الرواة أو كان من المعدودين من تلك الطبقة، وكان منهم من اشترك في طبقة أصحاب النبي ﷺ وطبقة أمير المؤمنين ﷺ، وهذه جملة أخرى من طبقات رجال البحرين، نذكرها غير مستوعبين ولا حاصرين، ونلتزم فيها بالتفصيل في بعض الموارد للحاجة للتنبيه فيها على الصحيح؛ مراعاة للاختصار ومقتضى الحال الذي بني عليه هذا المقال. فممن من غير ما ذكرنا:

١- رُشيدُ الهجري [من أصحاب أمير المؤمنين والحسنين وعلي بن

الحسين ﷺ]:

بضم الراء وفتح الشين، رشيد البلايا كما وصفه أمير المؤمنين ﷺ^(١)، عدّه الشيخُ من أصحاب أمير المؤمنين ﷺ^(٢) والحسن^(٣) والحسين^(٤) وعلي بن الحسين ﷺ^(٥)، وهو باب الحسين ﷺ كما في تاريخ الأئمة^(٦) ومناقب ابن شهر آشوب^(٧).

خلط كثير من مصنفي العامة في ترجمته فقالوا: الفارسي، قال ابن حجر في الإصابة: "رشيد بالتصغير الفارسي مولى بني معاوية من الأنصار ومن قال فيه رشيد

الهجري فقد وهم لأنه آخر متأخر من صفار التابعين وأتباعهم”^(٨).

تحقيق في (هجر) اليمانية والبحرانية ونسبة الهجريين

قد قيل في نسبة (هجريين) أنهم أهل هجر، وهي مكانان: أحدهما في اليمن والآخر في البحرين على قول، وقيل ثلاثة بزيادة هجر القريبة من المدينة^(٩)، وفي القولين نظر.

قال السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) في الأنساب: ”الهجري: بفتح الهاء والجيم وكسر الراء في آخرها. هذه النسبة إلى هجر، وهي بلدة من بلاد اليمن من أقصاها وقلال هجر معروفة. والمشهور بهذه النسبة: أبو عبد الله الزبير بن جنادة الهجري المعلم.. وابن بريدة.. وأبو تميلة.. وأبو سهل عوف بن أبي جميلة الأعرابي العبدي الهجري، من أهل هجر، كان يسكن التجيب، وهو من ساكني البصرة، واسم أبي جميلة رزينة.. وأبو إسحاق إبراهيم بن مسلم الهجري العبدي، من أهل الكوفة.. وأبي الأحوص.. ورشيد الهجري. يروي عن أبيه، عداة في أهل الكوفة، كان يؤمن بالرجمة”^(١٠).

وكما ترى، فإنه توهم كون العبديين أهل هجر اليمن، فخلط بينهم وبين الهجريين من أهل هجر البحرين، أو أنه عداها من بلدان اليمن وهو وهم آخر.

وتبعه في التعريف والخلط ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) في اللباب فقال: ”الهجري بفتح الهاء والجيم وكسر الراء هذه النسبة إلى هجر وهي بلدة من بلاد اليمن وهي مدينة معروفة ينسب إليها كثير من الناس منهم أبو عبد الله الزهر بن جنادة الهجري المعلم يروي عن عطاء وابن بريدة روى عنه عيسى بن يونس وأبو نميلة ورشيد الهجري يروي عن أبيه عداة في أهل الكوفة كان يؤمن بالرجمة وتكلم في ذلك بالكوفة فقطع زياد لسانه وصلبه”^(١١).

لكن صريح الحموي (ت ٦٢٦ هـ) في معجم البلدان أن قوما عدوها من اليمن وآخرون جعلوها قسبة مستقلة، قال عند حديثه عن البحرين: "قيل هي قسبة هجر، وقيل: هجر قسبة البحرين، وقد عدّها قوم من اليمن وجعلها آخرون قسبة برأسها. وفيها عيون ومياه وبلاد واسعة"^(١٢).

وممن عدّها من بلاد اليمن الحميري في كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار أرض البحرين في جملة بلاد اليمن، حيث صرح في ترجمة (جنابا) بقوله: "جنابا: جزيرة في البحر من جزائر البحرين باليمن، منها أبو سعيد الجنابي القائم بدعوة القرمطي الظاهر في بلاد القطيف من بلاد اليمن، حسبما يأتي ذكر ذلك في حرف القاف والنزاي إن شاء الله تعالى، ودخل أبو سعيد هذا مدينة هجر من بلاد اليمن سنة سبع وثمانين ومائتين بعد حصار أربع سنين، فدخل على قوم هلكوا جوعاً وهزلاً وبعد أن كان الوباء وقع فيهم فمات منهم خلق، وقتل منهم القرمطي ثلاثمائة ألف فطرحهم أحياء في النار، ونجا قليل منهم إلى جزيرة أوال، ولم يبق من أهل هجر يومئذ إلا عشرون رجلاً"^(١٣). ومن المعلوم أن القطيف من بلاد هجر البحرين، وأن حوادث القرامطة لم يكن موضعها إلا هجر ثم الإحساء، التي ألحقت بعد القرامطة بالبحرين.

وإن قيل: أن ما تقدم لا يصرف النسبة -أعني هجري- إلى هجر البحرين ولا ينفي صريح قولهم بتعدد التسميات والمواضع لهجر.

أجيب: أنه يشهد على أن رُشيدا وغيره من الهجريين من بلاد هجر البحرين لا اليمن ولا غيرها قول ابن دريد في الاشتقاق: "فبنو عبد الله هم الذين بهجر، قدموا البصرة مع عبد قيس، فسموا الهجريين"^(١٤).

وتسميتهم هذه لزمّتهم في البصرة وغيرها كالكوفة، وقدومهم للبصرة كان قبل تأسيس الكوفة بسنوات، ثم انتقل قسم منهم إلى الكوفة وقوي وجودهم زمن

تشرفها بسكنى أمير المؤمنين عليه السلام فيها، كما هو واضح من كثرة العبيدين الهجريين القيسيين فيها، كما سيمر عليك.

ويؤيده عدم الشاهد على التمييز في النسبة إلى هجر البحرين أو اليمن، فثبت أن هجر البحرين المرادة في نسبة الهجريين - ومنهم رشيد وكثير آخرون يمرون عليك عن قريب - هي بلاد البحرين أو هجر بالتحديد، وقد يتسامح فيطلق على الكل اسم هجر كما أشرنا إليه في القسم الأول من هذا المقال.

ولعل منشأ الاشتباه هو ما ذكره ابن خلدون في تاريخه: أن البحرين "تعرف ببلاد هجر، ومنها القطيف وهجر والعسير وجزيرة أوال والإحسا، وهجر هي باب اليمن من العراق"^(١٥). فألحقها بعض بأطراف بلاد اليمن وجعلها آخرون من أعمال العراق، وحسبها آخرون من توابع اليمامة، وهو كله واقع من متأخري مؤرخي العامة ومن تابعهم من اللاحقين لهم في النقل. وساعد على هذا الخطأ تسمية بعض بلدان اليمن بهجر مضافة إلى ناحية منها، كهجر كحلان مثلا، ولا زال بعض المناطق فيها تسمى بهذا النحو.

ذكر الحفاظ في تذكرة الحفاظ سبب شهادته (رضوان الله عليه) فقال في حديث طويل: "فقال له قيس الأرقب أفلا تعرف أصحاب علي؟، فقال: نعم، قال فتعرف الحارث الأعور؟، قال: نعم، لقد تعلمت منه حساب الفرائض والجد فخشيت على نفسي منه الوسواس فلا أدري ممن تعلمه، قال: فهل تعرف بن صبوة؟ قال: نعم، لم يكن بفقيه ولم يكن فيه خير، قال: فهل تعرف صعصعة بن صوحان؟ قال: كان رجلا خطيبا ولم يكن بفقيه، قال: فهل تعرف رشيد الهجري؟ قال الشعبي: نعم، بينما واقف في الهجريين إذ قال لي رجل: هل لك في رجل يحب أمير المؤمنين؟ قلت: نعم، فأدخلني على رشيد، فلما رأني أشار بيده إلي وأنشأ يحدث، قال: خرجت حاجا فلما قضيت نسكي قلت لو

أحدثت عهدا بأمر المؤمنين، فمررت بالمدينة فأتيت باب علي، فقلت لإنسان: استأذن لي على سيد المسلمين، فقال: هو نائم، وهو يظن أنني أعني الحسن، فقلت: لست أعني الحسن إنما أعني أمير المؤمنين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين، قال: أو ليس قد مات؟، فقلت: أما والله إنه ليتنفس الآن بنفس حي ويعرق من الدثار الثقيل، فقال: أما إذا عرفت سر آل محمد فادخل وسلم عليه واخرج، فدخلت على أمير المؤمنين فأنبأني بأشياء تكون، فقلت لرشيد: إن كنت كاذبا فلمنك الله وقمت، وبلغ الحديث زيادا فبعث إلى رشيد فقطع لسانه وصلبه^(١٦).

فتراه ما جعل لعلي من صحبه الذين يعرفهم فقيها أو عاقلا، حتى إذا بلغ صعصة (رضوان الله عليه) ولم يجد ما ينقص شأنه قال: "كان رجلا خطيبا ولم يكن بفقيره"، وهو يشبه بما قاله الفرزدق -مع فارق المذهب- في الكميت لما سمعه الأخير شعرا فحسده الفرزدق فقال له: "أنت خطيب"، قال السيد المرتضى رحمته الله في أماليه: "وإنما سلم له الخطابة ليخرجه من أسلوب الشعر، ولما بهره من حسن الأبيات وأفرط بها إعجابه، ولم يتمكن من دفع فضلها جملة عدل في وصفها إلى معنى الخطابة"^(١٧)، والشعبي لما بهره أمر صعصة لم يحرج جوابا إلا أن وصفه بالخطابة دون الفقاهة والرواية.

ولما بلغ صاحبه رشيد الهجري (رضوان الله عليه) رماه بما رماه وحرف ما قال، وهو كذب عليه رحمته الله، فقد روى الراوندي في الخرائج وغيره في دلائل إمامة الحسن عليه السلام بعد أبيه ومعاجزه التي رآها رشيد وجماعة، قال: "عن يحيى بن أم الطويل عن رشيد الهجري قال: دخلنا على أبي محمد عليه السلام بعد مضي أبيه أمير المؤمنين عليه السلام فتذاكرنا له شوقنا إليه، فقال الحسن: أتريدون أن تروه؟ قلنا: نعم، وأنى لنا بذلك وقد مضى لسبيله؟! فضرب بيده إلى ستر كان معلقا على باب في صدر المجلس،

فرفعه فقال: انظروا من في هذا البيت فإذا أمير المؤمنين عليه السلام جالس كأحسن ما رأيناه في حياته! فقال: هو هو ثم خلى الستر من يده فقال بعضنا: هذا الذي رأيناه من الحسن كالذي نشاهد من دلائل أمير المؤمنين ومعجزاته”^(١٨).

والصحيح في سبب استشهاد ما رواه الكشي بسنده إلى أبي حيان البجلي، عن قنواء بنت رشيد الهجري، قال: ”قلت لها: أخبريني ما سمعت من أبيك؟ قالت: سمعت أبي يقول: أخبرني أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا رشيد كيف صبرك إذا أرسل إليك دعي بني أمية فقطع يديك ورجليك ولسانك، قلت: يا أمير المؤمنين آخر ذلك إلى الجنة؟ فقال: يا رشيد أنت معي في الدنيا والآخرة. قالت: فوالله ما ذهبت الأيام حتى أرسل إليه عبيد الله بن زياد الدعي، فدعاه إلى البراءة من أمير المؤمنين عليه السلام فأبى أن يبرأ منه، فقال له الداعي: فبأي ميتة قال لك تموت؟ فقال له: أخبرني خليلي أنك تدعوني إلى البراءة منه فلا أبرء فتقدمني فتقطع يدي ورجلي ولساني، فقال والله لأكذبن قوله فيك. قال: فقدموه فقطعوا يديه ورجليه وتركوا لسانه، فحملت أطراف يديه ورجليه فقلت: يا أبت هل تجد ألما لما أصابك؟ فقال: لا يا بنية إلا كالزحام بين الناس، فلما احتملناه وأخرجناه من القصر اجتمع الناس حوله، فقال: أيتوني بصحيفة ودوات أكتب لكم ما يكون إلى يوم الساعة، فأرسل إليه الحجام حتى يقطع لسانه، فمات رحمة الله عليه في ليلته”^(١٩).

ودفن بباب النخيلة من الكوفة وقبره بقرب قرية ذي الكفل^(٢٠).
واستشهاد وصحبه رضوان الله عليهم أمر مشهور، وأخباره وغرائب كثيرة لا يسعها هذا المختصر، حتى أن الأصحاب كانوا يتناقلون حديث استشهادهم على الولاية ويؤلفون الكتب فيها، وقد عد منها كتاب محمد بن السائب في مقتل رشيد الهجري وميثم التمار وجويرية بن مسهر العبدي^(٢١).

٢- وقنواء بنت رشيد الهجري أو قنوة:

عدها الشيخ في عداد من روين عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام (٢٢)، وهي امرأة داوود الرقي كما في رجال البرقي (٢٣). تقدم ذكرها.

٣- وأبو سعيد بن رشيد الهجري، ابن لرشيد الهجري نفسه:

واسمه سلم بن سعيد الهجري، والد إبراهيم، وقيل أنه والد سليمان أبو طاهر، لم يذكره.

٤- محمد بن سهل البحراني [من أصحاب الباقر عليه السلام]:

لم يذكره، ولقبه لانتسابه للبحرين على احتمال راجح، من أصحاب الباقر عليه السلام. ذكره الكشي في خبر ابن بزيع عن الباقر عليه السلام في مدح صفوان ومحمد سنان، قال: "حدثني محمد بن قولويه، قال: حدثني سعد عن أحمد بن هلال عن محمد بن إسماعيل بن بزيع أن أبا جعفر عليه السلام كان لعن صفوان بن يحيى ومحمد بن سنان فقال: إنهما خالفا أمري، قال: فلما كان من قابل، قال: أبو جعفر عليه السلام لمحمد بن سهل البحراني: تول صفوان بن يحيى ومحمد بن سنان فقد رضيت عنهما" (٢٤).

٥- بكر بن أحمد، الأشج [من أصحاب أبي جعفر الثاني عليه السلام]:

هو ابن أحمد بن إبراهيم بن زياد بن موسى بن مالك بن يزيد الأشج، أبو الحسن (٢٥) كما في أسانيد الصدوق في العيون وغيره، وتقدمت ترجمة الأشج العصري أو أشج بني عبد قيس، وقيل القصري (٢٦) وهو مصحف؛ لرواية الصدوق عنه بلفظ الأشج العصري في العلل (٢٧) بطريق محمد بن أحمد بن يوسف البغدادي. من أصحاب أبي جعفر الثاني عليه السلام، وصرح النجاشي بضعفه، قال رحمه الله: "بن زياد بن موسى بن مالك بن يزيد الأشج أبو محمد الذي يقال له أشج بني أعصر الوارد

على النبي ﷺ في وفد عبد القيس روى عن أبي جعفر الثاني عليه السلام وهو ضعيف. له كتب منها: كتاب الطهارة كتاب الصلاة كتاب الزكاة كتاب المناقب. قال أبو عبد الله بن عياش: حدثنا أبو الحسن علي بن محمد بن جعفر بن ربيعة العسكري الحداد قال: حدثنا بكر بها^(٢٨). كذا ضعفه ابن الغضائري وتبعه -كالنجاشي- ابن داوود، قال: "ضعيف يروي الغرائب ويعتمد المجاهيل وأمره مظلم"^(٢٩)، وقال: "يزعم أنه من ولد أشج بني أعصر". وفي فهرست الشيخ: "بكر بن أحمد بن زياد: له كتاب الطهارة والصلاة"^(٣٠)، دون توصيف.

ويقوى في تضعيفات النجاشي أخذه من أستاذه أحمد بن الغضائري المعلوم المسلك في التضعيف، ووصفه بأنه يروي الغرائب مشعر بسبب تضعيفه كما هي عادته ﷺ، والعمدة ملاحظة أخبار الراوي.

حيث روى الشيخ الصدوق عليه السلام في الخصال بسنده إلى بكر بن أحمد القصري^(٣١) قال: حدثنا زيد بن موسى قال: حدثني أبي موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام قال: خرج أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وغير واحد من الصحابة يطلبون النبي في بيت أم سلمة فوجدوني على الباب جالسا فسألوني عنه، فقلت: يخرج الساعة، فلم يلبث أن خرج وضرب بيده على ظهري فقال: كبر يا ابن أبي طالب؛ فإنك تخاصم الناس بعدي بست خصال فتخصمهم، ليست في قريش منها شيء، إنك أولهم إيماناً بالله، وأقومهم بأمر الله ﷻ، وأوفاهم بعهد الله، وأرأفهم بالرعية، وأعلمهم بالقضية، وأقسمهم بالسوية، وأفضلهم عند الله ﷻ^(٣٢).

كذلك روى عن السيدة الطاهرة فاطمة بنت علي بن موسى الرضا عليه السلام بسند

عال عن المعصومين عليهم السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً» (٣٣).

وفي عيون الأخبار كذلك بسند الصدوق إليه قال: حدثني أبو محمد الحسين بن علي بن محمد بن علي بن موسى عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ليلة أسرى بي ربي ﷺ رأيت في بطنان العرش ملكاً بيده سيف من نور يلعب به كما يلعب علي بن أبي طالب عليه السلام بذئ الفقار وأن الملائكة إذا اشتاقوا إلى وجه علي بن أبي طالب عليه السلام نظروا إلى وجه ذلك الملك فقلت: يا رب هذا أخي علي بن أبي طالب عليه السلام وابن عمي؟ فقال: يا محمد هذا ملك خلقته على صورة علي يعبدني في بطنان عرشي تكتب حسناته وتسيححه وتقديسه لعلي بن أبي طالب عليه السلام إلى يوم القيامة».

وفيه دلالة على بقاء بكر إلى بعد الجواد عليه السلام بعقبين، وليس في قوله: (يلعب به) ضعف يضر بمعنى الخبر؛ إذ المحارب لعبه برمح وسيفه وقت درابه ونزاله، والمراد أنه شبيه بصورة علي عليه السلام كما أن للمؤمنين تمثالا وصورة لهم في السماء تحاكي أفعالهم الخيرة، وهذا مفاد جمع من الأخبار.

وفي مناقب القمي (ح ٤١٢ هـ) بطريقين إلى بكر بن أحمد، قال: حدثني محمد بن علي [النقي]، عن أبيه، قال: حدثني موسى بن جعفر، عن أبيه، عن محمد بن علي عليه السلام، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها وعمها الحسن بن علي عليه السلام قالوا: حدثنا أمير المؤمنين [علي بن أبي طالب عليه السلام] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لما دخلت الجنة رأيت فيها شجرة تحمل الحلبي والحلل، أسفلها خيل بلق، ووسطها حور العين، وفي أعلاها الرضوان. قلت: يا جبرئيل لمن هذه الشجرة؟ قال: هذه لابن عمك أمير المؤمنين إذا أمر الله الخليقة بالدخول إلى الجنة يؤتى بشيعة علي حتى ينتهي بهم إلى هذه الشجرة فيلبسون الحلبي [والحلل]، ويركبون الخيل البلق، وينادي مناد: هؤلاء شيعة

علي عليه السلام صبروا في الدنيا علي الأذى فأكرمهم اليوم" (٣٤).

وقريب منه نقله السيد بن طاووس في التحصين عن كتاب (نور الهدى والمنجي من الردى) (٣٥).

وفي العيون بسنده إلى بكر بن أحمد بن محمد بن [العصري] عن أبي محمد العسكري عن آبائه عن الباقر عليه السلام قال: «أوصى النبي صلى الله عليه وآله إلى علي والحسن والحسين عليهم السلام، ثم قال في قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، قال: الأئمة من ولد علي وفاطمة إلى أن تقوم الساعة». وفيه دلالة على بقاءه إلى زمن العسكري عليه السلام.

فإذا اتضحت معاني جملة من أخباره بان سبب تضعيف ابن الغضائري له، إلا أن يقال أن ما اطلع عليه ابن الغضائري أكثر من هذا وأدل على مدعاه، ولكننا لعلنا بمسلك ابن الغضائري وطريقته نعلم إلى أن هذه الأخبار ومثلها هي الداعي لتضعيفه بضم توصيفه برواية الغرائب، ولكونه قليل الرواية في الأحكام أو لغلبة روايات الفضائل على مروياته لم يكثر مترجموه كما هو حال كثير من الرواة.

٦- عبد الله بن ثابت بن يعقوب بن قيس بن إبراهيم العبقي البحراني [لم يرو

عنهم بالمباشرة]:

أبو محمد القاضي المقرئ النحوي، وفي بعض الكتب النجراني وهو تصحيف البحراني؛ لكونه منتسبا لعبد قيس وسكن بغداد ثم زار دمشق وغيرها وتوفي بالرميلة إحدى قرى البحرين " لبني محارب بن عمرو بن وديعة العبقيين، والرملة أيضا: قرية لبني عامر من بني عبد القيس بالبحرين" (٣٦)، ويؤكد ما جاء في حاشية تاريخ دمشق لابن عساكر: "في المطبوعة: أبو محمد العبقي التوزي البحراني. ومثلها في مختصر ابن منظور ١٢ / ٥٣ وتاريخ بغداد ٩ / ٤٢٦".

كان حافظاً شاعراً كثيراً السفر جداً، حتى قال في كثرة سفره وطريقته في العلم شعراً اشتهر نقله، ونقلناه فيما ذكره الخطيب وابن عساكر مثله.

قال الخطيب في تاريخه: "سكن بغداد وروى بها عن أبيه" ثم ذكر غيرهم، قال: "أخبرنا محمد ابن عبيد الله بن الفضل الكيال قال: قال لنا محمد بن الهيثم -أبو بكر المقرئ- أنشدنا عبد الله بن ثابت المقرئ:

إذا لم تكن واعياً حافظاً فعلمك في البيت لا ينفع
وتحضر [بالجهل] في موضع وعلمك في البيت مستودع
ومن يك في دهره هكذا يكن دهره القهقري يرجع

أخبرني الحسن بن أبي بكر قال: قال عثمان بن أحمد الدقاق: توفي عبد الله بن ثابت أبو محمد في سنة ثمان وثلاثمائة، ودفن بالرمليّة. قلت: وبلغني عنه أنه قال: ولدت في سنة ثلاث وعشرين ومائتين في آخرها"^(٣٧).

وقال ابن عساكر: "عبد الله بن ثابت بن يعقوب بن قيس بن إبراهيم بن عبد الله أبو محمد [العبقي التوزي البحراني] القاضي المقرئ، قدم دمشق وحدث بها عن أبيه و...". ثم ذكر شعره مشيراً لكثرة أسفاره وترحاله:

"حتى متى أنا في حل وترحال وطول سعي بإدبار وإقبال
ونازح الدار لا أنفك مغترباً عن الأحبة لا يدرون ما حالي
في مشرق الأرض طورا ثم مغربها لا يخطر الموت من حرصي على بالي
ولو قتمت أتاني الرزق في دعة إن القنوع الفنا لا كثرة المال"^(٣٨)

خاتمة في ذكر جمع منهم

وبعد أن تم ما ذكرنا من أصحاب النبي ﷺ وأهل بيته الطاهرين ورجال الحديث والأسانيد البحرانيين، نختتم المقال بذكر قائمة أخرى غير مترجمة بأسماء آخرين، ولو استوعب الباحث أسماءهم وأحوالهم لخرج بمؤلف كبير، ويجب التنبيه إلى أن أكثرهم من عبد قيس وينسبون لها فيقال العبدى والعبسى نسبة سماعية لا قياسية، أو ينسبون لجدهم بكر بن وائل فيقال لهم البكري، أو ينسبون لربيعة فيقال الربعي، وينسب بعضهم إلى مسمع فيقال المسمعي، أو إلى بلدتهم قريب البصرة (مسمع) فكذلك، أو إلى البحرين فيقال بحراني، أو هجر فيقال هجري على ما حققناه، ويعلم ذلك بتتبع أسماء آبائهم وأجدادهم لا بالنسبة فقط. فمنهم:

٧- صعصعة بن صوحان بن حجر بن الحارث العبدى.

٨- زيد بن صوحان العبدى أخو صعصعة.

٩- سيحان بن صوحان العبدى أخو صعصعة وزيد.

١٠- جويرية بن مسهر العبدى.

١١- بكر بن محمد العبدى العابد الكوفي.

١٢- بكر بن عبد الله الأشج.

١٣- أبي الوكيد البحراني الهجري، أبو لبيد المرء الهجري، والصحيح الهجري فإن الهجرين مكان باليمن والنسبة إليها الهجري، وقيل المخزومي، ونسبة النجراني إليه تصحيف، وفي الوسائل: "البحراني ثم الهجري" (٣٩) خطأ، وفي مصدره: "البحراني المرء الهجرين"، وكلاهما خطأ، والصحيح: "البحراني الهجري".

١٤- عبد الله بن بكير الهجري.

١٥- علباء بن دراع الأسدي.

١٦- صيفي بن فسيل الشيباني.

١٧- أبو سعيد عقيصان.

١٨- من بني تميم الله بن ثعلبة.

١٩- عبد الله بن حجل.

٢٠- عبد الله بن الحارث بن بكر.

٢١- رباح بن الحارث بن بكر.

٢٢- الوليد بن عروة الهجري.

٢٣- مسمع بن سيار وقيل ابن مالك، وفد على النبي ﷺ ثم رمي بالردة
كثير ممن منع الزكاة وامتنع عن البيعة في عهد الأول وقتل بالبحرين، وهو أبو
المسامعة كما قيل.

٢٤- مالك بن مسمع، وقيل عبد الملك.

٢٥- مسمع بن عبد الملك [مالك]^(٤٠) بن مسمع، أبو سيار الملقب كردين بكسر
الكاف والذال، أبو سنان، شيخ بكر بن وائل بالبصرة ووجهها وسيد المسامعة، يقال
إن الصادق عليه السلام قال له أول ما رآه: ما اسمك؟ قال: مسمع، فقال: ابن من؟ فقال: ابن
مالك، فقال: بل أنت مسمع بن عبد الملك^(٤١). أقول: لهذا تجده عندنا غالبا ابن عبد
الملك وفي تراجم العامة غالبا وفهارسهم ابن مالك، وقيل أن عبد الملك ومالك أخوان.

٢٦- عامر بن عبد الملك بن مسمع.

٢٧- عبد الله بن بكير الهجري.

٢٨- محمد بن علي بن عبد الرحمن العبدي القيسي.

- ٢٩- عبد العزيز العبدى .
- ٣٠- سفيان بن مُصعب العبدى .
- ٣١- عبد الله بن جرير العبدى
- ٣٢- خليل العبدى .
- ٣٣- علي بن الحسن العبدى .
- ٣٤- أبو الجارود زياد بن المنذر العبدى .
- ٣٥- مسعدة بن زياد العبدى .
- ٣٦- أبو هارون العبدى .
- ٣٧- علي بن الحسن العبدى .
- ٣٨- أبو عمر العبدى، أو أبو عمرو .
- ٣٩- أبو عثمان العبدى .
- ٤٠- عمرو بن خليفة العبدى .
- ٤١- أبو سلام العبدى .
- ٤٢- إسماعيل بن إبراهيم العبدى .
- ٤٣- الحسن بن عرفة العبدى .
- ٤٤- إبراهيم بن نعيم العبدى، أبو الصباح الكنانى من عبد القيس، و نسب إلى بنى كنانة لأنه نزل فيهم .
- ٤٥- الحسين بن حماد بن ميمون العبدى .
- ٤٦- جفير بن الحكم العبدى .
- ٤٧- عبد الله بن أبي يعفور العبدى .
- ٤٨- عبد الله بن أحمد بن حرب بن مهزم بن خالد بن الفزر العبدى أبو هفان،

له شعر في المذهب، وبنو مهزم بيت كبير بالبصرة في عبد القيس شيعة، وعبد الله هو الذي جمع ديوان أمير المؤمنين عليه السلام، وطبع مرارا، ولابن جني شرح عليه طبع معه.

٤٩- أذينة بن سلمة (مسلمة) العبدي.

٥٠- عبد الله بن حذيفة العبدي.

٥١- أبو نضرة العبدي.

٥٢- فرات بن الأحنف العبدي، فرات بن أبي يحيى، يرمى بالغلو والتفريط في القول، ومنشأ التهمة رواية الكرامات والمغيبات عن الأئمة عليهم السلام ^(٤٢)، ولم نجد في مروياته ما يوجب رميه بالغلو، إلا أن تكون قد محصت قبل تدوينها في الكتب المشهورة.

٥٣- رقيد بن مصقلة العبدي.

٥٤- نجم بن حطيم [و] قيل: ابن خطيم العبدي.

٥٥- بشر بن الصلت العبدي.

٥٦- الحسن بن السري العبدي الأنباري يعرف بالكاتب.

٥٧- الحسين بن الرماس العبدي.

٥٨- حفص بن سليم العبدي.

٥٩- عبد الله بن زياد البحراني.

٦٠- حميد بن السري العبدي الكوفي.

٦١- خالد بن السري العبدي الكوفي.

٦٢- حريث بن عمير العبدي.

٦٣- عقبة الهجري.

- ٦٤- مهدي بن حرب الهجري.
- ٦٥- عبد الرحمن بن المنذر العبدي.
- ٦٦- عبد الملك أبو سنان العبدي البصري.
- ٦٧- عبد الأعلى بن زيد أبو شاعر العبدي (العبدي) الكوفي.
- ٦٨- علي بن السري العبدي.
- ٦٩- داود بن علي العبدي.
- ٧٠- عبد الله بن محمد الحصيني العبدي، سكن الأهواز.
- ٧١- المختار بن زياد العبدي، بصري ثقة.
- ٧٢- إبراهيم بن مهزم الأسدي من بني نصر، ابن أبي بردة.
- ٧٣- مهزم الأسدي.
- ٧٤- عامر بن عبد قيس، من الزهاد الثمانية، كان مع (علي عليه السلام).
- ٧٥- عمر بن محمد بن عبد الرحمن بن أذينة بن سلمه بن الحارث، شيخ أصحابنا البصريين ووجههم، روى عن أبي عبد الله عليه السلام بمكاتبة.
- ٧٦- محمد بن معمر القيسي البحراني أبو عبد الله، الشاعر.
- ٧٧- العباس بن يزيد بن أبي حبيب البحراني، يعرف بعباسوية.
- ٧٨- زكريا بن عطية البحراني.
- ٧٩- مالك بن المنذر بن الجارود، كان عامل البصرة لمخالد بن عبد الله القسري.
- ٨٠- عبد الله بن محمد بن عبد الله العبقي.
- ٨١- عبد الله بن محمد بن الحسين بن الحفا العبقي الشاعر.
- ٨٢- أم خالد العبديّة.

وهذا يتم هذا الموجز الذي جمع ما يقرب من مائة اسم لرجال البحرين في

الأسانيد والأخبار النبوية والإمامية على النبي وآله أفضل الصلوات السنوية، والحمد لله رب العالمين.

الموامش:

- (١) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٩٠.
- (٢) رجال الشيخ ٥٥٦.
- (٣) رجال الشيخ ٩٣١.
- (٤) رجال الشيخ ٩٧٨.
- (٥) رجال الشيخ ١١١٢.
- (٦) تاريخ الأئمة للبغدادي: ٣٢.
- (٧) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٢٣.
- (٨) الإصابة ٢: ٤٠٤.
- (٩) انظر القاموس المحيط ٢: ١٥٨، مادة هجر.
- (١٠) الأنساب ٥: ٦٢٧، باب الهاء والجيم.
- (١١) اللباب ٣: ٣٨١، باب الهاء والجيم.
- (١٢) معجم البلدان ١: ٣٤٧.
- (١٣) الروض المعطار في خبر الأقطار: ١٧٦.
- (١٤) الاشتقاق: ٤١١.
- (١٥) تاريخ ابن خلدون ٢: ٣٠٠.
- (١٦) تذكرة الحفاظ ١: ٨٤.
- (١٧) أمالي السيد المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) ١: ٨٤.
- (١٨) الخرائج والجرائح ٢: ٨١٠.
- (١٩) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٩١.

- (٢٠) تاريخ الكوفة: ١٠٢.
- (٢١) فهرست النجاشي: ر ١١٦٦.
- (٢٢) رجال الشيخ: ر ٤٠١٤.
- (٢٣) رجال البرقي: ٦٣.
- (٢٤) اختيار معرفة الرجال: ر ٩٦٥.
- (٢٥) يأتي تخريجه.
- (٢٦) الخصال: ٣٣٦.
- (٢٧) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١: ٧٥-٧٦/ح ٣٢٧.
- (٢٨) فهرست النجاشي: ر ٢٧٨.
- (٢٩) رجال ابن الغضائري: ١: ٤٤، رجال ابن داوود: ر ٢٥٥.
- (٣٠) فهرست الطوسي: ر ١٢٨.
- (٣١) وهو مصحف العصري.
- (٣٢) الخصال: ٣٣٦.
- (٣٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١: ٧٥-٧٦/ح ٣٢٧.
- (٣٤) مائة منقبة: ١٧١.
- (٣٥) التحصين: ٥٤٠.
- (٣٦) حاشية تاريخ دمشق ٢٧: ١٧٨.
- (٣٧) تاريخ بغداد ٩: ٤٣٣.
- (٣٨) تاريخ دمشق ٢٧: ١٧٦.
- (٣٩) الوسائل ٢٧: ١٩١، ب ١٣ من أبواب صفات القاضي.
- (٤٠) الخلاصة: ١٧١.
- (٤١) الخلاصة: ١٧٢.

(٤٢) منها ما رواه الطبري في دلائل الإمامة: ٤٥٩: "عن فرات بن الأحنف، قال: كنت مع أبي عبد الله عليه السلام ونحن نريد زيارة أمير المؤمنين (صلوات الله عليه)، فلما صرنا إلى الثوية نزل فصلى

ركعتين، فقلت: يا سيدي، ما هذه الصلاة؟ قال: هذا موضع منبر القائم، أحببت أن أشكر الله في هذا الموضع. ثم مضى ومضيت معه حتى انتهى إلى القائم الذي على الطريق، فنزل فصلى ركعتين، فقلت: ما هذه الصلاة؟ قال: ها هنا نزل القوم الذين كان معهم رأس الحسين عليه السلام في صندوق، فبعث الله تعالى طيراً فاحتلم الصندوق بما فيه، فمر بهم جمال، فأخذوا رأسه، وجعلوه في الصندوق وحملوه، فنزلت وصليت ها هنا شكراً لله. ثم مضى ومضيت معه حتى انتهى إلى موضع، فنزل وصلى ركعتين، وقال: ها هنا قبر أمير المؤمنين (صلوات الله عليه)، أما إنه لا تذهب الأيام حتى يبعث الله رجلاً ممتحناً في نفسه بالقتل، يبني عليه حصناً فيه سبعون طاقاً. قال حبيب بن الحسين: سمعت هذا الحديث قبل أن يبني على الموضع شيء، ثم إن محمد بن زيد وجه فبنى عليه، فلم تمض الأيام حتى امتحن محمد في نفسه بالقتل."

العرف ودوره في استنباط الحكم الشرعي

(القسم الثاني)

عادل عبد الحسين الهنان

﴿ أما الأمر الثاني: وهو صلاحية العرف لتحديد موضوعات الحكم الشرعي،
فالبحت فيه من جهتين أيضاً:

أما الجهة الأولى: وهي البحث عن صلاحية العرف ومرجعياته لتحديد
وتشخيص موضوعات الأحكام وبيان مفهوم الموضوع وحدوده، فنقول:
إنَّ الشارع تارة يجعل الأحكام على موضوعات مختصرة، وأخرى يجعلها على
موضوعات عرفية إلاَّ أنَّ الشارع تصدى لبيان حدودها بنفسه، وثالثة يجعل الحكم
على موضوع عرفي دون أن يتصدى لبيان حدوده.

أما الأوَّل: فمثاله كيفية الصلاة والوضوء والتيمُّم... الخ، ولا ريب في هذا الفرض
أنَّ المرجع لتشخيص موضوعات الأحكام هو الشارع نفسه، إذ من غير المعقول أن
يخترع الشارع موضوعاً ثمَّ يحيل تشخيصه للعرف أو غيره، فلا سبيل إذن للتعرف
على مثل هذه الموضوعات إلاَّ مراجعة الشارع، وهذا واضح.

وأما الثاني: وهو ما لو كانت موضوعات الأحكام عرفية، بمعنى أنَّ للعرف
مفاهيم محدّدة لهذه الموضوعات إلاَّ أنَّ الشارع تصدى بنفسه لبيان حدودها، وذلك
مثل مفهوم الحيض والسفر والاستطاعة.

وفي مثل هذا الفرض لا مرجعية للعرف أيضاً في تشخيص موضوعات الأحكام
بعد أن تصدى الشارع لتشخيصها وبيان حدودها، إذ أنَّ نفس تصدي الشارع لذلك

إلغاءً لمرجعية العرف وأن المفاهيم التي هي محدّدة عند العرف على سعتها أو ضيقها ليست هي موضوعات الأحكام، نعم لو كان تصدي الشارع لتشخيص الموضوع بنحو إضافة بعض القيود على الموضوع العرفي أو إلغاء بعض القيود فإن ذلك لا يلغي مرجعية العرف في المقدار الذي لم يتصدّ الشارع لتهذيبه، لو استظهرنا من الأدلّة أنّه ليس للشارع مفهوم مباين للمفهوم العرفي، غايته أنّه لم يجعل الحكم على الموضوع العرفي على سعته أو ضيقه، ففي مثل هذا الفرض يكون المرجع في تشخيص الموضوع هو العرف إلاّ في المقدار الذي تصدّى الشارع لبيانه وتهذيبه إمّا بإلغاء بعض القيود أو الأجزاء أو بإضافة قيود ليست دخيلة بحسب المتفاهم العرفي.

وأما الثالث: وهو ما لو كانت موضوعات الأحكام عرفيّة، ولم يتصدّ الشارع لتشخيصها وبيان حدودها، وهنا لا ريب في مرجعية العرف في تشخيص موضوعات الأحكام، إذ أنّ ذلك هو المستظهر من عدم تصدي الشارع لتشخيص الموضوعات، إذ لا معنى لأن يجعل الشارع حكماً على موضوع له مفهوم محدّد عند العرف ويكون الشارع مريداً لمفهوم آخر غير ما يفهمه العرف ومع ذلك لا يتصدى لبيانه رغم أنّ الخطاب الذي جعل فيه الحكم على موضوعه كان ملقى لغرض ترتيب الأثر عليه والتحرك عنه، وذلك ما يُعبّر عن أنّ موضوع الحكم الشرعي إنّما هو ذلك المفهوم المحدّد لدى العرف.

وأما الجهة الثانية: وهي مرجعية العرف لإثبات أو نفي تحقّق الموضوع خارجاً، وهي تختلف عن الجهة الأولى من حيث أنّه حتى لو لم نقل بمرجعية العرف في تشخيص مفاهيم الموضوعات فإنّ من الممكن القول بمرجعية العرف لإثبات أو نفي تحقّق الموضوع الشرعي خارجاً، فلو افترضنا أنّ الشارع هو الذي حدّد مفهوم الفقير وأنّه الذي لا يملك قوت سنته فإنّ من الممكن أن يُحيل المكلفين الى العرف للتحقّق

من أن زيدا يملك قوت سنته أو لا يملك، وهذا هو معنى مرجعية العرف لإثبات أو نفي تحقق الموضوع الشرعي خارجاً.

وكيف كان فلا ريب في أن للعرف هذه الصلاحية^(١)، وذلك بعد أن كانت الأحكام الشرعية مجعولة على نهج القضايا الحقيقية، أي مجعولة على موضوعاتها المقدرة الوجود، فإن ذلك يُعطي أن الشارع ليس بصدد التحقق من وجود موضوعات الأحكام خارجاً أو عدم وجودها، إذ أن ذلك إنما هو شأن القضايا الخارجية، وعليه يكون التحقق من وجود الموضوع أو عدم وجوده إنما هو من وظيفة المكلفين^(٢)، ومن الواضح أن لا سبيل للمكلف لإحراز تحقق الموضوع خارجاً أو عدم تحققه إلا بالرجوع إلى العرف، إذ أنه الوسيلة العقلانية للتحقق من ذلك، ولما لم يخترع الشارع وسيلة أخرى لإحراز موضوعاته فإن ذلك يُعبّر عن إرضائه لهذه الوسيلة العقلانية^(٣).

ثم إن الملاحظ أن إثبات تحقق الموضوع أو نفيه عند العرف يختلف باختلاف المجتمعات والأزمنة والحالات، فهل أن ذلك مانع عن الرجوع إلى العرف في التحقق من وجود موضوع الحكم أو عدم وجوده؟
الظاهر أن ذلك لا يمنع عن الرجوع إليه، إذ أن هذا الاختلاف لا يُعبّر عن التباين في ضابطة التحقق من وجود الموضوع عند العرف.

فمثلاً: لو كان الفقير بحسب نظر الشريعة هو من لا يملك مؤنة سنته له ولعياله، فإن ضابطة تحقق هذا الموضوع خارجاً بنظر العرف لا تختلف باختلاف الظروف والمجتمعات، إذ أن غاية ما تقتضيه الظروف والمتغيرات هو تبدل مصاديق الموضوع ذي المفهوم المحدد والمطرّد، فالمؤنة التي كان يملكها الشخص كانت تكفيه لسنة كاملة، وذلك لقلة عياله أو لعدم طرؤ ما يوجب النفقة الزائدة، فلا يعد معها فقيراً، إلا أنه لو

اتَّفَق ما يوجب النفقة الزائدة كما لو طرأ عليه أو على أحد عياله مرض أو اتَّفَق ارتفاع قيم الأجناس فأصبحت النقود التي بحوزته قاصرة عن استيعاب مؤنِّته ومؤنِّة عياله، في حين أنَّ مقدارها في العام السابق كان كافٍ لتغطية مؤنِّته ومؤنِّة عياله لعدِّ فقيراً، وهكذا حينما يختلف المجتمع أو تكثُر الحاجات والضرورات.

وهذا المعنى مطرد في تمام الموارد التي يتوهم اختلاف الضوابط العرفية فيما هو المحقَّق لوجود الموضوع وعدم وجوده، فإنَّ الواقع أنَّ الضوابط لا تختلف وأنَّ الذي يختلف هو مصاديق الموضوعات، فإنَّ الشيء الواحد قد يكون مصداقاً للموضوع في زمن ولا يكون مصداقاً له في زمن آخر أو في مجتمع آخر أو في حالة أخرى.

ولزيد من التوضيح نذكر مثالا آخر وهو لباس الشهرة فإنَّ له معنىً منضبطاً عرفاً وأنَّ تحقُّقه خارجاً معناه انطباق ذلك الضابط العرفي على لباس معين، وهذا المقدار لا يختلف باختلاف المجتمعات والأزمنة، والاختلاف إنما ينشأ من جهة اختلاف الظروف الموضوعية من مجتمع لآخر، وهذه الظروف هي التي تستوجب الاستيحاش من لباس معين واستهجان لبسه، فيكون بذلك من لباس الشهرة في حين أنَّ هذا اللباس نفسه قد يكون مألوفاً في مجتمع آخر نتيجة ظروفه الموضوعية المختصَّة به، وهذا ما يستوجب انتفاء أن يكون هذا اللباس مصداقاً للباس الشهرة في ذلك المجتمع.

وبهذا يتَّضح أنَّ منشأ الاختلاف في حكم العرف بتحقُّق الموضوع وعدم تحقُّقه إنما ينشأ من أنَّ الأفراد الخارجية قد تكون منطبقة لمفهوم موضوع الحكم الشرعي وقد لا تكون منطبقة لذلك المفهوم بسبب انتفاء الخصوصيات المأخوذة في المفهوم عن ذلك الفرد، وانتفاء الخصوصيات أو وجودها يخضع في كثير من الأحيان للظروف الموضوعية، وهذا هو السرُّ في اختلاف حكم العرف بتحقُّق الموضوع أو عدم تحقُّقه.

ثم إنَّ العرف في إثباته أو نفيه لموضوع الحكم الشرعي -خارجاً- على قسمين^(٤):

القسم الأول: أن يكون الحكم مبنياً على الدقة في التطبيق.

القسم الثاني: أن يكون مبنياً على المسامحة في ذلك، كأن يحكم على ما يقل عن المنّ بمثقال بأنه منّ، مسامحةً في نقص المثقال والغض عن ذلك بلحاظ المنّ، وإن كان لا يتسامح عن المثقال بلحاظ المثقالين.

وما نفينا عنه الريب هو ثبوت صلاحية العرف لإثبات أو نفي تحقق موضوع الحكم الشرعي خارجاً بلحاظ القسم الأول، وأما القسم الثاني فلا موجب لحجيته، لأن مسامحات العرف ما لم ترجع إلى تعيين المفهوم فلا عبرة بها، وبيان ذلك: أن مسامحات العرف تارة توجب التوسعة في مفهوم اللفظ كالمنّ مثلاً، فيعد الجامع - بين ما يقل بمثقال وما لا يقل - منّا، وكذا في مفهوم الحنطة والشعير فإن العرف يرى سعة المفهوم وشموله للمشتمل على الخليط من تراب ونحوه، غير المنفك عنه غالباً، بل لا يخصه بالخالص الذي هو فرد نادر^(٥) وهذا راجع إلى تعيين المفهوم والذي يتحكم نظر العرف فيه، وهنا لا مشكلة.

وأخرى لا يوجب ذلك - التوسعة - ويعد المفهوم شيئاً معيناً ثم يتسامح في تطبيق ذلك المفهوم على ما لا ينطبق عليه حقيقة، وهذا بحسب الحقيقة راجع إلى التنزيل في الحكم. وإن شئت فعبر عنه بالحكومة، فيعطي لما ينقص عن المنّ بمثقال حكم المنّ، لا أنه يوسع مفهوم المنّ فيحكم بالبراءة على من اشتغلت ذمته بمنّ بأداء ما نقص عنه بيسير. والشاهد على أن التسامح في التطبيق لا يوسع مفهوم الدوالّ، هو عدم تسامحهم في لفظ واحد في مورد، مع تسامحهم فيه في مورد آخر، ألا ترى تسامحهم بمثقال بل أزيد في بيع منّ أو مدّ أو صاع من تراب، بما لا يتسامحون به بل

وبدونه في بيع مَنْ وغيره من ذهب ونحوه، ولا ريب أن مفهوم الأوزان والمكاييل لا يختلف باختلاف الموزونات والمكيالات. ولذا أصروا على عدم مراجعة العرف في التطبيق^(٦) - ويقصدون العرف المسامحي^(٧) - فنجدهم يحكمون ببطلان عقد الزواج بل حرمة الأبدية لو تزوجت المرأة قبل انقضاء عدتها ولو بساعة مع الالتفات إلى أنها في العدة، وبانفعال الماء الذي نقص عن الكر ولو بمقدار غرفة^(٨)، وبعدم التقصير فيما دون المسافة ولو بخطوة^(٩)، يقول الإمام الخميني **تَدُسُّ**: "... لأن مبنى مخاطبات الشرع معنا كمخاطبات بعضنا مع بعض، ولا شبهة في أن المخاطبات العرفية لا تكون مبنية على الدقة العقلية لا مفهوما ولا في تشخيص المصاديق، فإذا قال (اغسل ثوبك من الدم) فكما أن مفهومه يؤخذ من العرف كذلك المعول عليه في تشخيص المصدق هو العرف، فلون الدم دمٌ عقلا لكن لا يجب غسله لعدم كونه دما عرفا بل هو لون الدم، ... لأن الميزان في تشخيص المفاهيم والمصاديق نظر العرف بحسب فهمه ودقته لا مع التسامح العرفي، فإذا كان للمفهوم مثلاً ثلاثة مصاديق: أحدها مصداق برهاني عقلي لا سبيل للعرف إلى تشخيصه ولو مع الدقة وعدم التسامح كلون الدم، فإن العرف لا يدرك استحالة انتقال العرض وأن المنتقل أجزاء صغار جوهريّة، فلا يكون اللون دماً في أدق نظر العرف، ولا يتسامح في سلب الدّمية عنه، وثانيها مصداق عرفي من غير تسامح عرفي، بل يكون مصداقاً بدقته العرفية، وثالثها مصداق مسامحي لدى العرف، كإطلاق (الألف) على عدد ناقص منه بواحد أو اثنين، وإطلاق (الرطل) على ما نقص بمتقال أو درهم، ولا إشكال في أن هذا الإطلاق مسامحي مجازي يحتاج إلى التأول، فميزان تشخيص موضوعات الأحكام هو الثاني، لا الأول وهو معلوم، ولا الثالث إلا مع قيام قرينة حالاً أو مقالا على تسامح المتكلم، وإلا فأصالة الحقيقة محكمة..."^(١٠)، ويقول في موضع آخر: "وليس التسامح العرفي في شيء من الموارد ميزاناً، لا في تعيين المفهوم ولا في

تشخيص المصاديق، بل المراد من الأخذ من العرف هو العرف مع دقته في تشخيص المفاهيم والمصاديق، وأن تشخيصه هو الميزان مقابل تشخيص العقل الدقيق البرهاني...^(١١)، ويقول في موضع ثالث: "... وقد ذكرنا في محله أن موضوعات الأحكام تؤخذ من العرف لكن لا على وجه المسامحة بل على نحو الحقيقة والدقة العرفية وإن لم يكن على نحو الدقة العقلية..."^(١٢).

وينبغي التنبيه هنا إلى أن هناك فرقا بين التسامح في التطبيق والخطأ في التطبيق، فإن التسامح كثيرا ما يكون موردا للالتفات -ولو ارتكازا- ومع ذلك لا يؤثر في التراجع عن ما وقع العزم عليه، كما أنه قد يكون التسامح لخفائه مغفولا عنه فيتخيل كون البناء على أساس الدقة مع كونه مبنيا واقعا على المسامحة، ولكنه بحيث لو نُبِّه لم يؤثر في التراجع. وفرقنا -فيما تقدم- بين ما إذا كان التسامح راجعا إلى تحديد المفهوم فمقبول، وأما إذا كان راجعا إلى التطبيق فلا، إلا أن يكون التوسع في التطبيق كاشفا عن التوسع في المفهوم كما في موارد صدق الهتك والوهن.

أما التطبيقات الخاطئة للعرف فلا عبرة بها أصلا، بل لو نبه العرف على الخطأ لتراجع عن صدق اللفظ بما له من مفهوم على المورد. ومثاله وجوب السجود عند الاستماع لقراءة آيات السجدة، فلو استمع شخص لآية من آيات السجود الواجب الأربع من مثل التلفاز والإذاعة، فربما يعتبر العرف ذلك استماعا للقراءة فيوجب السجود، ولكن ذلك مبني على خطئه في التطبيق، فإن القراءة عبارة عن الصوت المعتمد على الفم، وحد سماعه محدود بشعاع خاص لا يكاد يتحقق في غيره، أما الآلات التي يكون الاستماع بتوسطها فلما كان العرف البسيط يتخيله وسيطا لنقل الصوت، فيتخيل أن نفس الصوت الصادر من القارئ ينتقل إلى السامع، مع أنه ينتقل عبر الآلة، وهو صوت آخر مشابه للصوت الأصلي نوع مشابهة، شأنه

بالنسبة إلى الصوت الأصلي شأن الصورة المنقوشة بالنسبة إلى ذي الصورة. وهذا التطبيق لما كان مبنياً على خطأ العرف فليس هو معتبراً، ولذا لو نبه عليه والتفت إلى خطئه في تحليل ما تصوره لرجع عن حكمه^(١٣).

وأما الأمر الثالث: وهو مرجعية العرف لتحديد المراد من الخطابات الشرعية، فلا ريب في ثبوت هذا الدور للعرف، إذ هو الوسيلة العقلانية المتبعة في مقام التعرف على مرادات المتكلمين، وقد أمضى الشارع هذه الوسيلة، وبذلك تثبت دليليتها وكاشفيتها عن مرادات الشارع من خطابه، وأما ما هو الدليل على إمضاء الشارع لذلك وما هو حدود ذلك الإمضاء فهذا ما تتصدى لإثباته مباحث حجية الظهور، فراجع.

عرف المتكلم أو المخاطب؟

لا شبهة في أن العرف المحكم في تعيين حدود مفاهيم الألفاظ هو العرف السائد في زمان النص، فلا عبرة بالمفاهيم المستحدثة للألفاظ. كما أن العبرة في معاني الألفاظ إنما هي بمعانيها في لغة العرب لا بالأوضاع غير العربية وإن استعملت في لغة العرب. وعلى تقدير على عرف زمن النص و المعنى العربي للمفهوم، قد يتفق عرف المتكلم مع عرف المخاطب في تحديد معاني ألفاظ الخطاب فلا كلام، وقد يختلف، فيبحث حينئذ عن المرجع، فهل هو عرف المتكلم أو هو عرف المخاطب أو عرف البلد. ومرجع هذا البحث إلى أن المتكلم هل هو ملزم بمراعاة عرف المخاطب؟ أو أنه غير ملزم؟ أو أنه موظف بالالتزام بعرفه هو دون عرف المخاطب؟ وهل أن المخاطب ملزم بحمل الألفاظ على المعاني التي توافق عرف المتكلم؟ أو على تلك التي توافق عرفه هو^(١٤)، أو لا بد لهما من الالتزام بعرف المحل الذي ألقى فيه النص؟ في المسألة

وجوه بل أقول، العمدة منها أربعة:

القول الأول: الأصل أن كل متكلم فإنه يتكلم وفقاً لأصول المحاوراة الرائجة بحسب العرف والمجتمع الذي يعيش فيه، فلا بد من حمل الكلام على عرفه فإنه هو من ألقى الكلام وهو الأدرى بمراده من كلامه، فلا معنى لحمل كلامه على معنى آخر غير المعنى المتعارف عليه في عرفه، وقد ذهب إلى هذا القول من المتأخرين السيد الخوئي^(١٥) وفاقاً لصاحب الجواهر^(١٦) والسيد المرتضى^(١٧). ويحتج لهذا القول بأن: حقيقة اللفظ الذي استعمله المتكلم إنما هو مصطلحه لأنه معناه الموضوع له عنده، بخلاف مصطلح المخاطب فإنه خلاف المعنى الموضوع له عنده فيكون مجازاً للفظ المفروض، كما يقتضيه احتجاج بعض القائلين بترجيح عرف المتكلم بأن الاستعمال المجرد عن قرينة المجاز يحمل على الحقيقة لأصالة الحقيقة، وعرف المتكلم هو الحقيقة عنده فليحمل عليه^(١٨). وربما يؤيد هذا القول بما ورد عن أبي طالب عبد الله بن الصلت قال: كتب الخليل بن هاشم إلى ذي الرئاستين وهو والي نيسابور: أن رجلاً من المجوس مات وأوصى للفقراء بشيء من ماله فأخذه قاضي نيسابور فجعله في فقراء المسلمين فكتب الخليل إلى ذي الرئاستين بذلك فسأل المأمون فقال: ليس عندي في هذا شيء، فسأل أبا الحسن^(١٩) فقال أبو الحسن^(٢٠): «إن المجوسي لم يوص لفقراء المسلمين، ولكن ينبغي أن يؤخذ مقدار ذلك المال من مال الصدقة فيرد على فقراء المجوس»^(١٩).

القول الثاني: أن العبرة بعرف المخاطب، وذهب إلى هذا القول العلامة^(٢٠) قدس سره، واستدل له بأن المتكلم لا بد له من سوق الألفاظ على وفق اصطلاح المخاطب وإلا كان إغراءً بالجهل.

القول الثالث: التوقف لعدم تمامية أدلة كلا القولين المتقدمين.

القول الرابع: التفصيل بين صور مختلفة من علم المتكلم والمخاطب بعرف بعضهما وجهلها به (٢١).

والصحيح: أن المتكلم إذا كان ملتفتاً إلى عرف المخاطب فالمدار عليه لأن الأصل كون المتكلم في مقام التفهيم الذي لا يتم إلا برعاية عرف المخاطب ما لم يتم قرينة على الإجمال وإذا لم يكن ملتفتاً فالمدار على عرفه لأنه الأعراف بمبراده، ولكن الأصل فيه الالتفات، وأما الرواية المتقدمة في القول الأول فلا ربط لها بمحل الكلام، فإن موردها اختلاف المتكلم والمتلقي لكلامه كالوصي، ومحل الكلام في اختلاف عرف المتكلم والمخاطب.

إثبات معاصرة العرف (٢٢)

المتحصل من كل ما تقدم أن التعارف في نفسه وبأي شكل افترض لا يكون مصدراً من مصادر التشريع نعم تكون دليлите على الحكم الشرعي راجعة لكشفه عن تقرير الشارع وإمضائه، هذا في العرف العملي، وأما العرف المتبع في الموضوعات فحجيته من باب انصراف النصوص إليه.

والعرف إنما يكشف عن تقرير المعصوم عليه السلام إذا توفرت فيه أمور ثلاثة:

- ١- وجود العرف في زمان المعصوم عليه السلام، وهذا ما يسمى بالمعاصرة لزمان المعصوم، إذ لو لم يكن هناك عرف في زمان المعصوم عليه السلام فلا معنى لدعوى تقريره لذلك العرف؛ باعتبار أن التقرير نسبة بين المقرّر والمقرّر الذي هو في المقام العرف، فإذا لم يوجد عرف في زمان المعصوم عليه السلام -وهو المقرّر- فلا معنى للتقرير.
- ٢- عدم ردع الشارع للعرف، إذ لو صدر الردع من المعصوم عليه السلام عما انعقد عليه العرف فلا يجوز التمسك به، ووجه ذلك واضح؛ لأن العرف لا حجية له بالذات

بل الحجية للإمضاء المقارن أو المستكشف، أو غير ذلك من أنحاء الملازمة، فإذا كان العرف يتصف بالحجية من باب إمضاء الشارع فمع الردع ترتفع الحجية.

٣- إثبات الملازمة بين عدم الردع وبين الإمضاء.

وحيث إنَّ إثبات معاصرة «العرف» للمعصوم عليه السلام يختلف نوعاً ما عن إثبات معاصرة «سيرة العقلاء» للمعصوم عليه السلام؛ فإننا نذكر هنا الطرق التي ذكرت لإثبات معاصرة العرف للمعصوم عليه السلام ونكتفي في الأمرين الثاني والثالث بما ذكر في المباحث الأصولية.

أما أن معاصرة العرف تختلف عن معاصرة السيرة، فذلك لما عرفت: من أن العرف هو عبارة عن صدور فعل واحد من كثيرين على نحو التكرار، ومن الواضح: أن مثل هذه الأعراف تختلف باختلاف المجتمعات، بلحاظ الزمان الواحد وبلحاظ الأزمنة المختلفة الخ.

وعليه: لا يمكن التمسك بأيِّ عرفٍ واقع في زمان معين لإثبات كون هذا العرف معاصراً للمعصوم عليه السلام؛ لعدم اتحاد الأعراف وحصول التغير والتحول فيها خلافاً للسيرة، إذن لا بد من ذكر طرق أخرى لإحراز معاصرته للمعصوم عليه السلام. وقد ذكرت في المقام عدة طرق^(٢٣):

الطريق الأول: وجود نقلٍ تاريخي معتمد - كحصول تواترٍ أو وجود قرائن محتفة بالخبر تدل على صدقه أو وجود خبر ثقة - على انعقاد عرفٍ في زمان المعصوم عليه السلام، فعندها يمكن التمسك بهذا العرف، مع عدم ردع المعصوم عليه السلام عنه.

الطريق الثاني: أن نتفحص البدائل والخيارات وأن أيّاً منها هو الواقع في زمان المعصوم عليه السلام، فإذا كانت البدائل -إلا واحداً منها- مما يكون الأخذ بها عسيراً تعيّن الأخذ بالبديل الذي لا عسر فيه والقول بأنه هو الواقع في زمان المعصوم عليه السلام، مثل

عرف الاعتماد في تحديد مفهوم الثمن والمثمن على بلد العقد لا بلد البائع.

الطريق الثالث: كون العرف في زماننا كاشف عن العرف في زمان المعصوم عليه السلام، من قبيل تعارف الناس على التحية بطريقة معينة في هذا الزمان، كالتقبيل والمعانقة عند التلاقي، فنستكشف وجود مثل هذا العرف في زمان المعصوم عليه السلام أيضاً.

والصحيح: إنه لا يمكن أن نستكشف من العرف الواقع في زمانٍ على أنه عرف واقع في زمن المعصوم عليه السلام، فمجرد انعقاد عرف في زمانٍ لا يدل على وجود مثله لا في ذلك الزمان ولا في زمانٍ آخر؛ وذلك لأن الأعراف محل اختلاف ويكون لكل منها مشخصاته وخصوصياته وموارد انعقاده. نعم مع إحراز الاشتراك في الخصوصيات يمكن ذلك.

الطريق الرابع: أن يكون الفعل الذي انعقد عليه «العرف» مما لا بديل له ممكن بحسب العادة، كما في الأخذ بخبر الولي فيما يتعلق بما هو ولي عليه، فإن بديل العمل بخبر الولي هو العمل بالقطع، ومن الملاحظ أن هذا البديل متعسر إن لم يكن متعذر، فإن الاعتماد على قول الولي ليست موارده قليلة، وعليه: فلو كان العمل في زمان المعصوم عليه السلام على خلاف ما انعقد عليه العمل في زماننا هذا لوجب أن يُنقل إلينا بنحو أكيد وبيّن وواضح، فعدم نقل ذلك البديل يدل على عدم وجوده، فيتعين أن يكون العمل موافقاً لما هو موجود في هذا الزمان.

الطريق الخامس: أن يكون «العرف» راسخاً رسوخاً قوياً في زمن المعصوم عليه السلام، ويكون مورد انعقاده محل ابتلاءٍ بنحو العموم من دون اختصاصه بطائفة دون طائفة أو شخص دون شخص، فإذا تحقق هذان الأمران كان لازم انعقاد ذلك «العرف» أنه مع وصول الردع عنه نستكشف عدم رضاه، وإلا علمنا بموافقتة له؛ وذلك لما ذكر في علم الأصول من أن إقدام العرف والعقلاء على مثل هذا الفعل -الذي يكون محل

ابتلاء بالنسبة إلى العموم - يهدد أغراض الشارع، فإذا كانت دائرة العرف تشمل أو تتداخل مع دائرة التشريع وجب على العقلاء أن يسألوا الشارع عن حكم ذلك الفعل، ووجب على الشارع - إن لم يسألوا - أن يردعهم عن ذلك الفعل إن كان ذلك الفعل منافياً لأغراضه، فإذا سألوا وردعهم الشارع ووصل لنا الردع، لم يمكن الأخذ بذلك العرف، وهذا خلف حيث فرضنا عدم وصول ردع منه. وإذا سألوا وردعهم الشارع ولم يصل إلينا ردع - وهو موهوم بحساب الاحتمالات لفرض كثرة الابتلاء بالفعل -، أمكن الأخذ والعمل بالفعل لكفاية عدم وصول الردع لنا. وإذا لم يسألوا ولم يردعهم الشارع: فيما أن يكون ذلك من جهة موافقة الشارع لهم، فيثبت جواز العمل بالفعل أيضاً، وإما أن يكون من جهة احتمال عدم سؤالهم أصلاً وهذا لا منشأ له إلا الغفلة، ولا يحتمل الغفلة فيهم جميعاً. والحاصل: إنه يثبت إمضاء الشارع وأنه لا مانع من الأخذ بمثل هذا العرف الخاص.

فثبت أن العرف ليكون حجة فلا بد من تحقق الشروط الثلاثة، أعني إحراز المعاصرة وإحراز عدم الردع والملازمة بين عدم الردع وبين الإمضاء. ولهذا لا يكون العرف حجة في أمثال عقد التأمين أو عقد حق الامتياز أو بيع السرقة... الخ لتخلف الشرط الأول، ولا في مثل المعاملات الربوية بأنواعها أو اشتراط المرتهن الانتفاع من العين المرهونة... الخ وذلك لتخلف الشرط الثاني، فلا بد في أمثال كل ذلك من التماس دليل آخر غير العرف (٢٤).

ثم إنه لا ينبغي أن يتوهم أن العرف المتأخر معاصر للمعصوم المحجة المنتظر عليه السلام، فسكوته تقرير منه وإمضاء، بحجة أنه موجود بين ظهرانينا، يشهد ما يدور بيننا، وعليه فلا يوجد عرف غير معاصر للمعصوم عليه السلام. فإن سكوته عليه السلام في غيبته لا يدل على إمضائه لا عقلاً ولا استظهاراً كما بُيِّن ذلك مفصلاً في

الأصول^(٢٥).

تعارض العرف والشرع واللغة

للتعارض بين العرف والشرع واللغة صور نجملها في صورتين:

الصورة الأولى: فيما إذا كان لمورد التعارض حقيقة شرعية وعرفية، وهنا تقدم الشرعية^(٢٦) بلا إشكال، وعلل تارة بأن العرف لا اطلاع له على خفايا ما ذكره الشارع وحدده، وأخرى بأن عرف الشارع أكد من عرف العادة، وثالثة لأنها المنصرف من كلام الشارع... إلخ.

الصورة الثانية: أن تكون هناك حقيقة عرفية إلى جانب الحقيقة اللغوية، بعد فرض عدم وجود حقيقة شرعية، وهنا تقدم العرفية على اللغوية، قال في فوائد الأصول: "... ولا عبرة باللغة إذا كان العرف العام على خلافها..."^(٢٧)، لأنها هي الظهور الموضوع للحجية.

العرف في المسائل الفقهية

تتبع آراء الفقهاء يفضي للباحث أنهم راعوا العرف في كثير من الأحكام الفقهية باعتماد الأعراف والعادات في الجملة، وإن اختلفت مساحة مراعاتهم سعة وضيقاً، نستعرض هنا بعض النماذج من استفادات المذاهب الإسلامية من العرف في استنباطهم للأحكام الشرعية.

الإمامية

يقول الشيخ الطوسي في كتاب التجارة من مبسوطه: "المماثلة شرط في الربا وإنما يعتبر المماثلة بعرف العادة بالحجاز على عهد رسول الله ﷺ فإن كانت العادة فيه

الكيل لم يجز إلا كيلا في سائر البلاد وما كان العرف فيه الوزن لم يجز فيه إلا وزنا في سائر البلاد^(٢٨). وفي كتاب الأيمان من الشرائع: "لو حلف: لا شربت من الفرات، حنث بالشرب من مائها، سواء كرع منها أو اغترف بيده أو بإناء، وقيل: لا يحنث إلا بالكرع منها، والأول هو العرف"^(٢٩).

الحنفية

في باب السلم من مبسوطه، يقول السرخسي: "ولا بأس بالسلم في العصير في حينه وزنا أو كيلا (لأنه يوزن أو يكال كاللبن، وكذلك الخل لا بأس بالسلم فيه كيلا معلوماً أو وزنا معلوماً، لأنه يكال ويوزن وإعلام المقدار بذكر كل واحد منهما محصل، والأصل أن ما عرف كونه مكيلا على عهد رسول الله ﷺ فهو مكيل أبداً، وإن اعتاد الناس بيعه وزنا، وما عرف كونه موزوناً في ذلك الوقت فهو موزون أبداً، وما لم يعلم كيف كان يعتبر فيه عرف الناس في كل موضع إن تعارفوا فيه الكيل والوزن جميعاً فهو مكيل وموزون، وعن أبي يوسف أن المعتبر في جميع الأشياء العرف لأنه إنما كان مكيلا في ذلك الوقت أو موزوناً في ذلك الوقت باعتبار العرف لا بنص فيه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم..."^(٣٠)، وفي مبحث المهر: "إذا سمى في المهر بيتاً، فالمراد منه متاع البيت عادة دون البيت المسمى، وهذا معروف بالعراق، يتزوج على بيت أو بيتين فيريدون متاع البيت مما تجهز به تلك المرأة وينصرف إلى الوسط من ذلك... ثم قال أبو حنيفة رضي الله عنه قيمة البيت أربعون درهماً وقيمة الخادم أربعون ديناراً وقال أبو يوسف ومحمد رحمهما الله تعالى هو على قدر الغلاء والرخص وليس هذا باختلاف في الحقيقة ولكن أبا حنيفة رحمه الله تعالى قصر فتواه على ما شاهده في زمانه"^(٣١).

المالكية

يقول مالك في رجل دفع إلى رجل مالا قراضاً. فربح فيه رجلاً. فقال العامل: قارضتك على أن لي الثلثين. وقال صاحب المال: قارضتك على أن لك الثلث. قال مالك: "القول قول العامل. وعليه، في ذلك، اليمين. إذا كان ما قال يشبه قراض مثله. وكان ذلك نحو ما يتقارض عليه الناس. وإن جاء بأمر يستكر، ليس على مثله يتقارض الناس، لم يصدق. ورد إلى قراض مثله" (٣٢).

الشافعية

لو حلف رجل لا يأكل لحماً، فأكل سمكاً، لم يحنث؛ لأن السمك لا يسمى لحماً عرفاً، قال السيوطي: "لو حلف لا يجلس على بساط، أو تحت سقف أو في ضوء سراج لم يحنث بالجلوس على الأرض وإن سماها الله بساطاً، ولا تحت السماء وإن سماها الله سقفاً، ولا في الشمس وإن سماها الله سراجاً... فقدم العرف في جميع ذلك لأنها استعملت في الشرع تسمية بلا تعلق حكم وتكليف..." (٣٣).

الحنابلة

يقول ابن قدامة في معاطاة مغنيه: "ولنا أن الله أحل البيع ولم يبين كيفيته فوجب الرجوع فيه إلى العرف، كما رجع إليه في القبض والاحراز والتفرق، والمسلمون في أسواقهم وبياعاتهم على ذلك، ولأن البيع كان موجوداً بينهم معلوماً عندهم، وإنما علق الشرع عليه أحكاماً وبقاه على ما كان فلا يجوز تغييره بالرأي والتحكم..." (٣٤).

العرف في المسائل الأصولية

كما لم تخل الأبجاث الأصولية في كثير من جنباتها من أبحاث كلامية وفلسفية

بل وعرفانية، كذلك لم تخل من الاستناد على العرف. ففي مبحث الاستصحاب الذي يعد من أمهات المسائل الأصولية، قال المشهور بعدم حجية الأصل المثبت وأن الاستصحاب لا يُثبت لوازمه غير الشرعية، لكنهم استثنوا صوراً منها صورة خفاء الواسطة، وبيان ذلك: قد يعد العرف الأثر المترتب على واسطة مترتباً على نفس المستصحب ويعتبرونه من أحكام المستصحب مباشرة، وذلك عندما تكون الواسطة خفية عليهم، ومثل الشيخ الأعظم تدئ لذلك باستصحاب الرطوبة في الملاقى لإثبات نجاسة ملاقيه، مع أن النجاسة من آثار السراية عرفاً، لا أنها من آثار رطوبة الملاقى، والسراية والتأثر برطوبة الملاقى من لوازم رطوبته، نعم هي لازم خفي، يقول الشيخ الآخوند تدئ: "نعم لا يبعد ترتيب خصوص ما كان محسوباً بنظر العرف من آثار نفسه لخفاء ما بوساطته، بدعوى أن مفاد الأخبار عرفاً ما يعمه أيضاً حقيقة. فافهم" ^(٣٥). ولكن في النفس شيء من التوجيه المذكور لما تقدم منا من أن العبرة بالدقة العرفية لا بالمساحات، ولعله لذلك أشار تدئ حينما أمر بالفهم، وهذا ما استفاده بعض الأعلام ^(٣٦). وكذا استثنيت صورة جلاء الواسطة ووضوحها بحيث يمتنع التفكيك عرفاً بين المستصحب والواسطة تنزيلاً، كما لا يمكن التفكيك بينهما واقعا، ويكون التعبد بأحدهما تعبداً بالآخر ^(٣٧).

وبالنسبة إلى وحدة القضية المتيقنة والمشكوكة، فهل الوحدة المعبرة هي الوحدة بنظر العرف أم بنظر العقل أم بحسب دليل الحكم. فإذا كان المعبر الوحدة بنظر العقل فسلام على الاستصحاب، وأما إذا كان بنظر دليل الحكم، فلا بد من الجمود على العناوين المأخوذة في لسان الدليل فإن بقيت وإلا فلا استصحاب أيضاً. وقد ذكر الآخوند أن العبرة بالاتحاد في نظر العرف ^(٣٨).

- (١) الرسائل ١: ١٨٤، ٢٢٨، الحكيم، عبدالصاحب، منتقى الأصول، تقريراً لأبحاث السيد محمد الروحاني، الهادي، قم، ط ٢، ١٤١٦هـ، ١: ٢٨٨.
- (٢) وحيث أن الموضوع عرفي لا حسي فتشخيصه بالرجوع للعرف.
- (٣) الصدر، محمد باقر، دروس في علم الأصول الحلقة الأولى والثانية، تحقيق وتعليق مجمع الفكر الإسلامي، مجمع الفكر الإسلامي، قم، ط ٢، ١٤١٩هـ ص ١٥٧.
- (٤) القائي، محمد، المبسوط في فقه المسائل المعاصرة (المسائل الطبية/١)، مركز فقه الأئمة الأطهار عليهم السلام، قم، ط ١، ١٤٢٤هـ، ١: ٩٧.
- (٥) الخوئي، أبو القاسم الموسوي، موسوعة الإمام الخوئي، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي، قم، ط ٣، ١٤٢١هـ، ٢٣: ١٨-١٩.
- (٦) فوائد الأصول ٤: ٤٩٤، ٤٩٥، ٥٧٤، النجفي، محمد تقي البروجردي، نهاية الأفكار، تقرير بحث آغا ضياء الدين العراقي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، قم، ط ٤، ١٤٢٢هـ، ج ٤ القسم الأول ص ١٨٨-١٨٩، موسوعة السيد الخوئي تذكرة ٢٣: ١٨ و ٤٨: ١٩٠-١٩١.
- (٧) أصول الفقه المقارن فيما لا نص فيه: ٣٠٧.
- (٨) اليزدي، محمد كاظم الطباطبائي، العروة الوثقى، تعليق عدة من الفقهاء العظام، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، قم، ط ١، ١٤٢٠هـ. مسألة ١٠٢.
- (٩) العروة الوثقى مسألة ٢٠٢.
- (١٠) الخميني، روح الله الموسوي، كتاب الطهارة، مؤسسة تنظيم ونشر آثار امام خميني، قم، ط ١، ١٤٢١هـ، ١: ٧٢.
- (١١) الرسائل ١: ٢٢٧.
- (١٢) م.ن. ص ١٥٥.
- (١٣) نعم تستثنى صورة ما إذا كان ظاهر سياق الدليل الشمول لمثل هذا الفرد العنائي كشمول قوله: النظرة سهم من سهام إبليس للنظر لصورة الأجنبية.
- (١٤) ذكر بعض الأفاضل الصور المحتملة في اتحاد واختلاف عرف المتكلم والمخاطب، وقد أنهاها

بعضهم إلى ٧ صور اتحاد و ٨ صور اختلاف وفصل فيها، ولم نرى كثير ثمرة في نقلها، فمن أراد فليرجع إلى: نظرية العرف بين الشريعة والقانون ص ٢٢٦، ودور العرف والسير في استنباط الأحكام ص ٩٨ و ٩٩.

(١٥) موسوعة السيد الخوئي ٢: ١٥٣.

(١٦) نسبه إليه في دور العرف والسير في استنباط الأحكام: ٩٨.

(١٧) نسبه إليه في نظرية العرف بين الشريعة والقانون ص ٢٢٦.

(١٨) القزويني، علي الموسوي، تعليقة على معالم الأصول، تحقيق السيد علي العلوي القزويني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط ١، ١٤٢٢هـ ج ٢: ٢٢٨ - ٢٢٩.

(١٩) الحر العاملي، محمد بن الحسن، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ط ١، ١٤٠٩هـ ١٩: ٣٤٢ / أبواب كتاب الوصايا ب ٣٤ ح ١.

(٢٠) المختلف ١: ١٨٦.

(٢١) راجع نظرية العرف بين الشريعة والقانون ص ٢٢٦، ودور العرف والسير في استنباط الأحكام ص ٩٨ و ٩٩.

(٢٢) راجع بحث الأستاذ النمر، قسم السيرة (غير مطبوع).

(٢٣) وهذه الطرق تذكر أيضاً لإثبات معاصرة سيرة المتشركة لزمان المعصوم عليه السلام أيضاً، باختلاف يسير بينهما.

(٢٤) أصول الفقه المقارن فيما لا نص فيه: ٣١٣.

(٢٥) دروس في علم الأصول، الحلقة الثانية: ١٣٩.

(٢٦) جامع المقاصد ٤: ١٦٧، الروضة البهية ٣: ٥٣٠.

(٢٧) فوائد الأصول ٤: ٥٧٤.

(٢٨) المبسوط ٢: ٩٠.

(٢٩) الحلبي، أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن، شرائع الإسلام، مع تعليقات السيد صادق الشيرازي، انتشارات استقلال، قم، ط ٣، ١٤١٢هـ، ٣: ٧١٥.

- (٣٠) المسوط ١٢: ١٤٢.
- (٣١) م. ٥: ٦٩.
- (٣٢) الامام مالك، كتاب الموطأ، صححه ورقمه وخرج آحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ، ٢: ٧٠١.
- (٣٣) الأشباه والنظائر: ١٠٣.
- (٣٤) ابن قدامة، عبدالله، المغني، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت، ٤: ٤.
- (٣٥) الخراساني، محمد كاظم، كفاية الأصول، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، قم، ط٧، ١٤٢٣هـ ص ٤٧٣.
- (٣٦) الحكيم، محسن، حقائق الأصول، مكتبة بصيرتي، قم، ط ٥، ١٤٠٨هـ ٢: ٤٨٥.
- (٣٧) منتقى الأصول ٦: ٢١٦.
- (٣٨) كفاية الأصول: ٤٨٧.

حجية ظواهر القرآن عند

صاحب الحدائق

سعيد جعفر حماد

المصدر الأول للتشريع هو القرآن الكريم

لا يخفى الخلاف الذي طال بين الأصوليين وبين الأخباريين في حجية ظواهر القرآن بل في جواز تفسيره وعدمه، وقد أفرط بعض الأخباريين حتى منع فهم شيء من القرآن الكريم حتى مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلا بتفسير من الأئمة المعصومين عليهم السلام كما حكى عن السيد نعمه الله الجزائري أنه قال: "وكننت حاضرا في المسجد الجامع في شيراز وكان المجتهد الشيخ جعفر البحراني والشيخ المحدث صاحب جوامع الكلم (قدس الله روحيهما) يتناظران في هذه المسألة في جواز أخذ الأحكام من القرآن فانجر الكلام بينهما حتى قال له الفاضل المجتهد: ما تقول في معنى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) فهل تحتاج في فهم معناها إلى الحديث؟ فقال: نعم لأننا لا نعرف معنى الأودية ولا الفرق بين الأحد والواحد ونحو ذلك"^(٢).

وقد استعرض صاحب الحدائق أدلة كلا الفريقين وقرّر ابتداءً تعارض الأدلة من الجانبين، غير أنه أشار إلى أن أدلة المنع أكثر عدداً وأصرح دلالة، مما يُظن في الوهلة الأولى من كلامه هذا أنه يحرم التفسير، ولا يرى حجية الظواهر، لكنه سرعان ما جمع بين أدلة الطرفين، واختار ما تبناه الشيخ الطوسي في تفسيره التبيان، حيث قسّم معاني القرآن إلى أربعة أقسام، وقسم واحد يجوز تفسيره والأخذ

بظاهره، وثلاثة أقسام لا يستطيع المجتهد تفسيرها^(٣).

أقسام المعاني القرآنية

الأول: ما لا أحد يعرفه سوى الله تعالى فلا يصح لأحد تكلف القول فيه ولا تعاطي معرفته، وذلك مثل قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾^(٤)، ومثل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾^(٥)، إلى آخرها، فتفسير ما اختص الله بالعلم به غير صحيح.

الثاني: ما يكون له ظاهر، وظاهره مطابق لمعناه، فكل من كان يعرف اللغة العربية التي خاطب الله الناس بها عرف معناه، مثل قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(٦)، ومثل قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٧)، وغير ذلك.

الثالث: ما هو مجمل لا ينبئ ظاهره عن المراد به مفصلاً، فمعرفته تحتاج إلى تفصيل في المراد منه، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٨)، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٩)، وقوله: ﴿وَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾^(١٠)، وقوله: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾^(١١)، وما أشبه ذلك.

فإن تفصيل أعداد الصلاة وأعداد ركعاتها، وتفصيل مناسك الحج وشروطه، ومقادير النصاب في الزكاة لا يمكن إلا ببيان النبي ﷺ ووحى من جهة الله تعالى فتكلف القول في ذلك خطأ ممنوع منه.

الرابع: ما كان اللفظ في الآية مشتركاً بين معنيين فما زاد عليهما، ويمكن أن يكون كل واحد منهما مراداً، فإنه لا ينبغي على المفسر أن يرجح أحد المعنيين أو المعاني وينسبه إلى مراد الله تعالى إلا بقول نبي أو إمام معصوم.

فجميع الروايات التي استدلت بها الأخباريون على منع التفسير ومنع الأخذ

بظواهر الآيات إلا مع وجود نص من المعصوم حملها صاحب الحدائق على القسم الثالث والرابع، وأما القسم الأول فهو خارج تخصصاً.

وأما القسم الثاني فلم يمنع صاحب الحدائق من تفسيره والأخذ بظواهر آياته، وتفسير هذا القسم ما هو إلا توضيح لمعاني المفردات، حيث أن بعد الزمن وضعف اللغة العربية عند العرب بسبب اختلاط الشعوب أوجب غرابة كثير من معاني مفردات العربية.

وندعم تقسيم الشيخ بذكر شاهد عليه من الروايات رواه الطبرسي في كتابه الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الزنديق الذي جاء إليه بأي من القرآن زاعماً تناقضها حيث قال عليه السلام في ضمن الحديث:

«إن الله جلّ ذكره بسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثه المبدلون من تغيير كتابه قسم كلامه ثلاثة أقسام: فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل. وقسماً لا يعرفه إلا من صفا ذهنه ولطف حسه وصح تمييزه ممن شرح الله صدره للإسلام. وقسماً لا يعرفه إلا الله وأنبيأؤه والراسخون في العلم. وإنما فعل ذلك لئلا يدعي أهل الباطل، المستولون على ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله من علم الكتاب ما لم يجعل الله لهم، وليقودهم الاضطرار إلى الاتمار لمن ولاه أمره (إلى أن قال): فأما ما علمه الجاهل والعالم، فمن فضل رسول الله في كتاب الله، فهو قول الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(١٢).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١٣) وهذه الآية ظاهر وباطن فالظاهر قوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ والباطن قوله: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي سلموا لمن وصاه واستخلفه، وفضله عليكم، وما عهد به إليه تسليماً، وهذا مما أخبرتك: أنه لا يعلم تأويله إلا من لطف حسه، وصفى ذهنه، وصح تمييزه»^(١٤).

والحديث ليس فيه سوى ثلاثة أقسام ويرى صاحب الحقائق أن هذه الأقسام الثلاثة هي الأقسام الثلاثة التي بعد القسم الأول من تقسيم الشيخ؛ فرادف بين القسم الرابع من كلام الشيخ بالقسم الثاني من كلام الإمام علي عليه السلام في الرواية، فما كان يحتمل فيه أكثر من معنى، فلا يرجح المفسر أحد المعاني إلا بقول ممن صفى ذهنه ولطف حسه، وهي صفة بحسب الظاهر منحصرة بالمعصومين عليهم السلام لأنهم هم المتصفون بتلك الصفات على الحقيقة^(١٥).

ورادف بين القسم الثالث من كلام الشيخ بالقسم الثالث في الرواية فلا يُعرف تفصيل الجمل إلا ببيان من النبي صلى الله عليه وآله بعد أن عرف معناه بالوحي، أو عن طريق تفسير الراسخين في العلم^(١٦).

وبما أن القسم الثاني والثالث في الرواية ينحصر تفسيرهما بالمعصومين عليهم السلام فقد يُشكل باتحاد القسمين؛ فما هي الثمرة المترتبة على جعلهما قسمين مع إمكان جعلهما قسماً واحداً؟

أجاب صاحب الحقائق على ذلك بأن فرق الثالث عن الثاني بكونه قسماً يختص بتشريع الشرائع، ولا يعلمه إلا الله جلّ شأنه أو أنبيأؤه عليهم السلام بالوحي إليهم، ومعرفة الأئمة عليهم السلام له إنما هو بالوراثه من الأنبياء، وهذا بخلاف القسم الثاني؛ فإنه مما يستخرجونه بصفاء جواهر أذهانهم ويستنبطونه بإشراق لوامع أفهامهم^(١٧).

ويمكن مناقشة انحصار المراد من «من صفا ذهنه ولطف حسه وضح تمييزه وشرح صدره للإسلام» في كلام الإمام علي عليه السلام بالمعصومين عليهم السلام، وإن كانت هذه الصفات بحسب الحقيقة تختص بالمعصوم، حيث يمكن بالدقة سلب إطلاق هذه الصفات على غيره، إذ لا أحد سواهم من المسلمين إلا ولديه بعض الشوائب، لكن إطلاق الرواية إنما يحمل على ما ينصرف لدى العرف، والعرف يمكن أن يطلق هذه الصفات على

العالم الرباني ممن سواهم، وعلى هذا فيمكن شمول هذه الصفات لغير المعصومين عليهم السلام.

وإن أبيت إلا على انصرافها إلى المعصومين فإنه يُمكن أن يُرفع اليد عن هذا الانصراف لقرائن:

الأولى: أن الإمام عليه السلام بتقسيمه في مقام بيان مراتب فهم البشر للقرآن، وأن كل مرتبة لها نصيب في فهم القرآن يختلف عن المرتبة الأخرى سعة وعمقاً، فلو كان القسم الثاني والثالث منحصر بمرتبة المعصومين عليهم السلام لما كان داعي لجعلهما في قسمين، ولا يظهر من الرواية أن الإمام عليه السلام في مقام تقسيم مضامين النصوص القرآنية.

الثانية: ابتداء الإمام عليه السلام بذكر المرتبة الأدنى في فهم القرآن والتي تشمل كل من يعرف اللغة العربية، وانتهى بالمرتبة الأعلى من البشر الخاصة بالمعصومين، مما يُشعر بأن القسم الثاني ما بين المرتبتين، فلا يختص بالمعصومين ولا يشمل كل من علم باللغة.

الثالثة: تكرر أداة الحصر لكل مرتبة، فذكرها للمرتبة الأولى ثم للثانية ثم للثالثة، مما يُشعر بأن أصحاب المرتبة الأولى أكثر عدداً من أصحاب المرتبة الثانية، والثانية أكثر من الثالثة.

لكن تدفع هذه القرائن بقريضة أقوى توجب انصراف تلك الصفات إلى المعصومين، وهي قريضة المثال الذي ضربه الإمام عليه السلام لفهم من يتصف بتلك الصفات حيث جعله من الباطن، ويعلم من الخارج أن الباطن يختص تأويله بالمعصومين، بل حتى لو لم يصرح الإمام أنه من الباطن فإنه يفهم من نفس تأويل ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ بالتسليم لوصي النبي صلى الله عليه وآله وخليفته الذي عهد إليه أنه من التفسير

الباطن الذي لا يدركه إلا المعصومون عليهم السلام.

على أن القسم الثاني في الرواية هو القسم الرابع من كلام الشيخ -بناء على ما تبناه صاحب الحقائق- فهو مختص في ترجيح أحد المعاني المحتملة التي لا يحصل العلم بإرادة أحدها إلا ببيان المعصومين عليهم السلام.

وجعل القسم الثاني من تقسيم الشيخ منطبقاً على القسم الأول في الرواية ويرى إحكام دلالة هذا القسم من الآيات في معانيه، ولذا جَوِّز الاستدلال به والأخذ بظواهره، وحكم على من يمنع ذلك بالمكابرة^(١٨).

وإذا كان مراد الأصوليين من حجية ظواهر القرآن هو هذا القسم، حيث لا يوجد ظهور للمجمل ولا للمشترك اللفظي في معنى معين فلا خلاف بين صاحب الحقائق والأصوليين. وعلى هذا القسم حمل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١٩).

ويبدو من صاحب الحقائق أن بعض الأصوليين كانوا يظنونهم وأمثاله أنه ممن يمنع من فهم القرآن الكريم، ولذا قال في رده على الاستدلال بالآية الآنفه على جواز تفسير كل القرآن من غير الأخذ من المعصومين: "فإننا لا نمنع فهم شيء من القرآن بالكلية كما يدعيه بعضهم، ليمتنع وجود مصداق الآية، فإن دلالة الآيات على الوعد والوعيد والزجر لمن تعدى الحدود الإلهية والترغيب والترهيب ظاهر لا مرية فيه، وهو المراد من التدبر في الآية كما يناهدي عليه سياق الكلام"^(٢٠).

فيتحصل من مجموع كلام صاحب الحقائق أنه يرى حجية دلالات الآيات التي يدرك معانيها من يعرف اللغة العربية، بحيث لو اطلع على تلك الآيات لتبادر إليه معناها، إلا إذا علم بأن الظاهر ليس مراداً، وإنما يمنع تفسير الآيات من غير المعصومين فيما إذا توقف استنباط معانيها على غير اللغة العربية، بحيث إذا اطلع

عليها من يكون عارفاً باللغة العربية لا تتبادر إليه معانيها، فتفسير هذا القسم من الآيات لا يكون إلا عن طريق المعصومين عليهم السلام.

وعلى هذا يمكن أن نقول أنه لا خلاف بين الشيخ يوسف تذت وبين المجتهدين الأصوليين (رحم الله الماضين منهم وحفظ الباقيين) إذ ليس مرادهم من ظواهر القرآن إلا المعاني التي ينصرف إليها الذهن عند سماع ألفاظها ويُحرز مطابقتها لظاهرها للمراد. لكن يبدو أن الشيخ يختلف مع المفسرين القائلين بجواز التفسير بصورة مطلقة، حيث أنه لا يرى إمكان تفسير بعض موارد القرآن إلا عن طريق المعصومين، وهي الموارد التي لا تكون فيها الآيات ظاهرة في معنى معين، بينما بعض المفسرين وإن كانوا يعتمدون على أخبار أهل البيت عليهم السلام في تفاسيرهم لكنهم قد يفسرون بعض الآيات التي ليس لها ظهور في معنى معين ولم يرد خبر معتبر في تفسيرها عن طريق اجتهادهم في التفسير واعتمادهم على قرائن منفصلة من غير الأحاديث، أما صاحب الحدائق فيرى التوقف في تفسير هذا النوع من الآيات، ولا يرى صحة أعمال الاجتهاد لمعرفة معنى هذه الآيات، وذلك لحمله الأدلة المانعة عن التفسير على تفسير هذا النوع من الآيات، وإنما جوز أولئك المفسرون تفسير هذا النوع من الآيات لأدلة جواز التفسير، وقد قام الشيخ بعرض أهمها ومناقشتها.

أدلة جواز تفسير مجموع القرآن ومناقشتها

استعرض صاحب الحدائق رحمته الله بعض الأدلة التي أُستدل بها على جواز تفسير مجموع القرآن الكريم حتى في الموارد التي لا يظهر معناها بمراجعة اللغة والفهم العرفي من غير الرجوع إلى قول المعصومين عليهم السلام وناقش دلالتها:

الدليل الأول: الآيات الكريمة

وقسم صاحب المدائق الآيات الكريمة التي استدلت بها على جواز تفسير كل موارد القرآن حتى في موارد عدم اتضاح المعنى من اللغة ومن أحاديث المعصومين عليهم السلام إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما دل على أن الآيات الكريمة بيان لكل ما يحتاجه الناس، مثل قوله تعالى ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢١) وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢٢).

فإذا كان في القرآن كل ما يحتاج إليه الناس فحينئذ لا يمتنع عليهم فهمه، لأنه مرجعهم في أمورهم، ولو امتنع فهمه ولو في بعض آياته لما صح أن يكون لهم مرجعاً.

المناقشة:

وأجاب على هذا الاستدلال: بأن غاية ما تدل عليه الآيتان هو أن القرآن الكريم جامع وكامل لكل ما يحتاج إليه الناس، ولا يستلزم منه أن كل ما يحتاجه الناس في القرآن يمكن أن يفهمه الجميع من غير واسطة أحاديث المعصومين، وكيف يمكن معرفة كثير من المعاني القرآنية ولم تدل عليها الآيات إلا على نحو الإجمال، وأشار إلى أن بعض ما جاء مجملاً من المعاني القرآنية مصداق لما دللت عليه بعض الروايات من عدم إمكان معرفتها من القرآن إلا من عند المعصومين، وبين بعض أمثلتها من الأحكام-غير الأمثلة المعروفة من تفاصيل الصلاة والزكاة والصيام- قال: "إن الآيتين لا دلالة فيهما على أكثر من استكمال القرآن لجميع الأحكام وهو غير منكور. وأما كون فهم الأحكام مشتركاً بين كافة الناس كما هو المطلوب بالاستدلال فلا،

كيف وجل آيات الكتاب سيما ما يتعلق بالفروع الشرعية كلها ما بين مجمل ومطلق وعام ومتشابه لا يهتدى منه -مع قطع النظر عن السنة- إلى سبيل، ولا يركن منه إلى دليل. بل قد ورد من استنباطهم عليهم السلام جملة من أحكام الآيات ما لا يجسر عليه سواهم ولا يهتدي إليه غيرهم وهو مصداق قولهم: «ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن»^(٢٣)، وقولهم: «إنما يعرف القرآن من خوطب به»^(٢٤)، وقولهم: «إنما أراد تعميته في ذلك لينتهوا إلى بابه»^(٢٥)، كالأخبار الدالة على حكم الوصية بالجزء من المال، حيث فسره عليه السلام بالعشر مستدلاً بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾^(٢٦) قال: «وكانت الجبال عشر». والوصية بالسهم حيث فسره عليه السلام بالثمن لقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾^(٢٧). والنذر بمال كثير حيث فسره عليه السلام بالثمانين لقوله تعالى: ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾^(٢٨) وكانت ثمانين موطناً.. الخ^(٢٩).

القسم الثاني: ما دل من القرآن على جواز استنباط واستخراج معاني القرآن الكريم والاجتهاد في توضيح ما جاء مجملاً، وهي قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾^(٣٠).

المناقشة:

المراد من الذين يستنبطونه في الآية هو خصوص الأئمة عليهم السلام يدل عليه أمران: الأول: سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾، إذ أن ظاهر عود ضمير الجمع في ((يستنبطونه)) إلى أولي الأمر، وهم الأئمة عليهم السلام.

الثاني: الروايات الدالة على عود ضمير الجمع في ((يستنبطونه)) إلى الأئمة عليهم السلام، منها ما رواه العياشي عن الرضا عليه السلام قال: «هم آل محمد وهم الذين

يستنبطون من القرآن ويعرفون الحلال والحرام»^(٣١).

ومنها ما جاء في دعائم الإسلام عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسيره للآية، قال: «هم الأئمة من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله جعلهم الله أهل العلم الذين يستنبطونه، ثم أوجب طاعتهم، فقال: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾»^(٣٢).

القسم الثالث: وهي الآيات التي تحتّ على التدبر في آيات القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٣٣)، فلو انحصر فهم القرآن على المعصومين عليهم السلام لما كان معنى للأمر بالتدبر في القرآن.

المناقشة: - ناقشها بـ:

أولاً: إن هذا الاستدلال لا يتم مع القول بإمكان فهم قسم من الآيات القرآنية، وهو القسم الثاني من تقسيم الشيخ الطوسي أي بفهم الآيات التي يكون ظاهرها مطابقاً لمعناها، فكل من عرف اللغة العربية عرف معنى هذه الآيات، وهي مصداق لمتعلق التدبر.

وثانياً: إن المستفاد من سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ، أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا، إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾^(٣٤) أن المراد من التدبر هو التدبر في قسم خاص من آيات القرآن وهي آيات الوعد والوعيد والزجر لمن تعدّى الحدود الإلهية، والترغيب والترهيب، والاعتبار بما جرى على الأمم السابقة، إذ أن من الواضح أن الآية جاءت في سياق التهديد والوعيد لمن يفسد في الأرض ويقطع أرحامه، وهذا القسم من الآيات مندرج في القسم السابق الذي يُحرز مطابقتة

معناه لظاهره، فإن دلالة الآيات على الوعد والوعيد والزجر لمن تعدى الحدود الإلهية والترغيب والترهيب أمر ظاهر لا مرية فيه^(٣٥).

ولكن يمكن الاستدراك على الردّ الثاني بأنّ هناك آية أخرى تحت على التدبر وترشد إلى أنّ متعلق التدبر أوسع من ذلك النطاق، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٣٦).

فإنّ عدم الوجدان للاختلاف المتفرّع على التدبر يرشد إلى أنّ التدبر يشمل كل الآيات التي يمكن فهمها، إلا أنّ يُقال: لا مانع من أن يكون المراد منها هو الآيات التي تفهم بواسطة المعصومين عليهم السلام أو بواسطة معرفة اللغة وطرقها.

الدليل الثاني: الروايات

لم يستعرض صاحب الحقائق من الروايات التي أُستدل بها على جواز التفسير بشكل مطلق سوى روايات العرض، وتقريب الاستدلال أن يُقال:

دلت جملة من الأخبار -ومنها المعتبر- على عرض الرواية على كتاب الله، فإن كانت توافق كتاب الله تعالى يأخذ بها، وإلا فهي زخرف، لا يقوله المعصوم، وحينئذٍ فإن توقفت معرفة الكتاب على الروايات لزم الدور، ولا يترتب على أحاديث العرض غرضها؛ فلا فائدة من العرض ما لم نعرف معاني الكتاب من غير الأحاديث حتى يصح تمييز الحديث.

المناقشة:

أجاب بأنّ كثير من الآيات ورد فيها تفسير من الأحاديث، وهذه الأحاديث بما أنّها ناظرة إلى المراد من الآيات فهي بمنزلة الآيات في تقييم الأخبار التي تعرض على الكتاب، فالعرض حقيقة إنما هو على الأحاديث المفسرة للآيات، لا على نفس

القرآن.

وأما الآيات التي لم يرد فيها تفسير من الأحاديث فلا تعرض عليها الروايات التي يُراد تقييماً، وذلك لأدلة منع تفسير القرآن الكريم فإنها تخصص أحاديث العرض؛ فتحمل أحاديث العرض على العرض على الآيات التي ورد فيها تفسير دون غيرها.

أفاد هذا الجواب بقوله: "والجواب أنه لا منافاة، فإن تفسيرهم عليهم السلام إنما هو حكاية مراد الله تعالى فالأخذ بتفسيرهم أخذ بالكتاب. ألا ترى أن من عمل بحديث أو بآية قد استفاد معناها المراد منها من أستاذه أو من تفسير أو شرح ونحو ذلك لا ينسب علمه إلى ذلك الذي استفاده منه معنى الخبر أو الآية، وإنما ينسبه إلى الآية أو الخبر. وهذا بحمد الله ظاهر لا سترة عليه.

وأما ما لم يرد فيه تفسير عنهم (صلوات الله عليهم) فيجب التوقف فيه وقوفاً على تلك الأخبار وتقييداً لهذه الأخبار بتلك" (٣٧).

ولا يبعد أن يكون المراد من الكتاب في حديث العرض هو خصوص الآيات التي يمكن فهمها من ظاهرها، وعلى ذلك لا يمكن التمسك بها لجواز غير الظاهر من غير المعصومين، غير أن شيخنا صاحب الحقائق لم يشير إلى ذلك في هذا المقام.

تطبيقات العمل بالظاهر

وبعد أن اتضح بأن مسلك صاحب الحقائق هو الأخذ بظواهر القرآن نستعرض نماذج من تطبيقاته، فقد عمل المحقق البحراني بالظواهر في استدلالاته الفقهية؛ أذكر على سبيل الاختصار بعض الأمثلة:

١- قبوله استدلال المشهور بقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ (٣٨) على

عدم جواز الوضوء بالمضاف، بتقريب: أن الآية تعين التطهير بالتييم مع فقد الماء، ولا خلاف بأن المراد من الماء هو المطلق؛ لأن إطلاق الماء لا ينصرف إلا إلى الماء المطلق، ولو أمكن التطهير بالمضاف لما تعين التيمم مع فقد الماء المطلق^(٣٩).

٢- استدل بما استظهره من قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾^(٤٠) ومن قوله سبحانه: ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾^(٤١) على حرمة تنجيس المصحف المكرم^(٤٢)، ولم أجد أحداً من علمائنا من تمسك بهما في حرمة تنجيس المصحف، وربما تمسك بها بعض العامة في ذلك^(٤٣).

٣- استدل بمفهوم قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾^(٤٤) على أن وجوب الوضوء وجوب غيري لا نفسي بتقريبين:

الأول: المتبادر إلى فهم العرف من الآية الكريمة هو أن وجوب الوضوء لأجل الصلاة، لا أنه واجب على كل حال، نظير قولهم: «إذا لقيت العدو فخذ سلاحك»؛ فأخذ السلاح لأجل مواجهة العدو، وليس أخذه مطلوب على كل حال.

الثاني: بمفهوم الشرط في الآية حيث يدل على عدم وجوب الوضوء مع عدم الصلاة فيتضح عدم وجوب النفسي للوضوء^(٤٥).

٤- استند إلى ظاهر ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾ إلى نفي جزئية ما تحت المرفق مما زاد على أصل الخلقة من يد ولحم زائد وجلد زائد وأصبع زائدة، حيث أن ظاهر الإضافة في «أيديكم» إضافة عهدية، فيتعلق حكم الغسل في آية الوضوء باليد المعهودة، وما اشتملت عليه من الأجزاء المعهودة^(٤٦).

٥- قد أيد حرمة مس الجنب لاسم الله تعالى ولو كان على درهم أو دينار بظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٤٧) حيث يدل على أن عدم التعظيم يصدر نتيجة لعدم التقوى لما قيل من أن علة النقيض نقيض

العلة، فمس الجنب لاسم الجلالة مصداق لعدم تعظيم لشعائر الله، فهو معلول لعدم التقوى^(٤٨).

فنى صاحب الحدائق أرسل تطبيق اسم الله على شعائر الله إرسال المسلمات ولم يتعرض إليه، وكذا تطبيق مس الجنب لعدم تعظيم شعائر الله، وإنما استظهر من الآية حرمة ترك تعظيم شعائر الله لكون العلة في تعظيم الشعائر تقوى القلوب، فعدم تقوى القلوب علة لعدم التعظيم لأن علة النقيض (والنقيض في المقام عدم تعظيم الشعائر) نقيض العلة (ونقيض العلة حالة عدم التقوى) وحالة عدم التقوى تعني عدم امتناع المكلف عن ارتكاب المعاصي ولو بعضها، فيثبت أن مس الجنب لاسم الله تعالى نتيجة لعدم امتثال أمر الله، وأمر الله هنا حرمة مس الجنب لاسم الله لمناسبة الحكم والموضوع.

وهذا المعنى الذي استظهره ليس من منطوق الآية الكريمة بل من مدلولها الإلزامي، وترقى صاحب الجواهر في فهم الآية الكريمة، حيث يرى دلالتها على حرمة مس الجنب لاسم الله عن طريق أولى، لأنها تدل وجوب تعظيم شعائر الله فيما لا يكون في تركه تحقيراً، فكيف فيما إذا كان تركه يوجب تحقيراً كمس الجنب لاسم الجلالة^(٤٩).

واحتمل الآخوند الخراساني دلالة الآية على منع مس أسماء الأنبياء أو أحد الأئمة عليهم السلام لكن من غير استظهار، فجعل عدم المس احتياطاً استحبابياً^(٥٠).
واستشكل بعضهم في دلالة الآية على حرمة المس لمنعه العموم في الآية الشريفة^(٥١).

ومما استدل به على وجوب المباشرة في الغسل ظاهر قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾^(٥٢)، وبظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾^(٥٣) حيث أن الظاهر

في كل من الآيتين توجه الخطاب لنفس المكلف، فهو الذي ينبغي أن يقوم بفعل الغسل، فلا يجزيه أن يفعل الغسل به غيره^(٥٤)، وذهب إلى ذلك الشهيد الأول، والمحقق النراقي^(٥٥) واستدل كذلك على وجوب المباشرة في التيمم بظاهر قوله ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾^(٥٦)، لظهورها في لزوم استناد التيمم من نفس المكلف مباشرة.

٦- مما استدل به على تصديق النساء بحصول الحيض- ما لم تكن المرأة متهمّة بتضييع حقّ الزوج - ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾^(٥٧) حيث استفاد الملازمة بين حرمة الكتمان وبين وجوب قبول قولهن؛ فلو لم يجب القبول لما حرم الكتمان^(٥٨)، وهو نفس ما استظهره الشهيد الثاني من الآية في مورد اختلاف الزوجين في انقضاء العادة^(٥٩)، وبطبيعة الحال ليس المراد هو خصوص كتمان الحيض بل المراد أن الآية تشمل الحيض كما تشمل الحمل^(٦٠).

وقد منع الشيخ البهائي الملازمة بين الكتمان وبين وجوب قبول قولهن، إذ أنّها ليست بيّنة ولا مبيّنة لاحتمال وجود ثمرة مستقلة في حرمة الكتمان، نظير وجوب عدم كتمان الشهادة على الشاهد وإن علم أن الحاكم لا يقبل شهادته^(٦١).

٧- مما استدل به على جواز التيمم لمن خاف المرض الشديد باستعمال الماء حدوثاً أو استمراراً أو بطؤ برئه سواء كان عاماً لجميع البدن أو مختصاً بعضو بعض الآيات كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٦٢) وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٦٣) وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾^(٦٤)، وقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(٦٥).

٨- مما استدل به على نفي تحقق العدالة بمجرد الإسلام ظاهر قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾^(٦٦) حيث أنها تدل على اعتبار أمر آخر وراء الإسلام لأنّ الخطاب فيها للمسلمين وضمير "منكم" راجع إليهم، فهي دالة على

إسلام الشاهدين؛ فيكون قوله "ذوي عدل" دالاً على العدالة بعد حصول الإسلام فهي أمر زائد على مجرد الإسلام^(٦٧).

٩- استظهر من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾^(٦٨) حليّة دم السمك، حيث أن ذكاة السمك لا تكون بالذبح؛ فدمه ليس مسفوحاً، وبذلك قوى القول بالحلية، غير أنه رجح الاحتياط لاحتمال كون حليّة دمه محتصة بما لم يخرج منه، وأما لو خرج منه فيمكن شمول أدلة حرمة الدم له، إذ لم يستثنى من أدلة حرمة الدم سوى الدم المتخلف في الذبيحة^(٦٩).

١٠- قبل الاستدلال بظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾^(٧٠) على نجاسة مطلق الكافر^(٧١).

وقد ذكر بعض الإشكالات على الاستدلال بالآية ثم قام بردها، منها: أن النجس لغة ليس بمعنى النجاسة فلا ظهور في الآية على نجاسة الكافر. وعلى فرض أن المراد النجاسة فغاية ما تدل على نجاسة المشرك وهو أخص من المدعى، إذ أن المدعى نجاسة الكفار، وهو أعم من المشرك.

وأجاب بأن الحمل على المعنى اللغوي والعرفي يكون هو المرجع فيما إذا لم يكن في المورد عرف خاص، وفيما نحن فيه يوجد عرف خاص عند الأئمة عليهم السلام والمتشعبة حيث أن مرادهم من النجس هي النجاسة، وعرف الأئمة عليهم السلام في الأحكام الشرعية وفتواهم وأمرهم ونهيبهم يرجع في الحقيقة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فإنهم نقلت عنه، وحفظت لشرعه وتراجمه لوحيه، وبذلك يتضح بأن المراد من النجس في الآية هي النجاسة.

وأما دعوى أن الآية أخص من المدعى فهي غير صحيحة، لأن عنوان الشرك

يصدق على أهل الكتاب لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٧٢).

فنى صاحب الحدائق طاب ثراه استعان بهذه الآية لتوضيح الآية السابقة في شمول المشركين لأهل الكتاب، وعلى هذا فإنه قد يفسر القرآن بالقرآن.

١١- استدل على حرمة منع أهل مكة سكناهم عن الحجاج بظاهر قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾^(٧٣) حيث استظهر من الآية مساواة البادي والحاضر في حق الانتفاع بمساكنها ودورها حتى يقضوا مناسكهم، وإذا كان حقاً لهم فمنعهم عنه محرم^(٧٤)، والملاحظ أن الآية إنما تدل على أصل استحقاق الانتفاع وأما تقييد الاستحقاق بالحاج -مضافاً إلى أهلها- إنما هو ببركة الروايات، وكذا التقييد بغاية قضاء النسك.

واستظهار البحراني كاستظهار الشيخ الطوسي حيث قال: «لا ينبغي أن يمنع الحاج شيئاً من دور مكة ومنازلها لأن الله تعالى قال: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾»^(٧٥) وأصرح منه ابن البراج^(٧٦).

١٢- استدل على حرمة أكل مال اليتيم ظلماً وعدواناً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾^(٧٧) ويرى معناها: إن الذين يأكلون مال اليتيم يأكلون ما يجرهم إلى النار والسعير^(٧٨). وما يجرهم إلى النار فلا شبهة في حرمة.

١٣- استدل بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾^(٧٩) على عدم توقف الحكم بالسفه على حكم الحاكم حتى ولو كان السفه غير متصل بزمان البلوغ، وذلك لأن الظاهر من الآية أن الرشد هو المناط في جواز التصرف في المال، فمتى لم يتحقق لا يجوز التصرف، ومتى ما تحقق فيجوز التصرف، ولا ينافي

ذلك كون الآية في مورد اليتيم، لأن تعليق جواز التصرف فيها على علة عامة، فتشمل غيره أيضاً^(٨٠).

ومما يؤيد تمسكه بظاهر القرآن أنه قد يفسر بعض مفردات الروايات بالاستعانة ببعض معاني الآيات الكريمة وتفسيرها، وأمثلة على ذلك:

١- جاء في صحيحة داود بن النعمان عن الإمام الصادق عليه السلام أن عمار أصابته جنابة فتمعك^(٨١) كما تتمعك الدابة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يهزأ به: يا عمار تمعكت كما تتمعك الدابة... الخ^(٨٢). حمل كلمة «يهزأ به» على المزاح لعدم صحة حملها على معناها الظاهري وهو السخرية، لأن السخرية لا ينسجم صدورها من الأنبياء عليهم السلام، لقوله بركاته في قصة أمر بني إسرائيل ذبح البقرة: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٨٣)، دلّت على الاستهزاء صفة للجاهلين وأنّ الأنبياء يستعيذون بالله منها.

٢- جاءت عدّة روايات في بيان الساتر للمرأة في الصلاة بعضها تشمل على الخمار وبعضها على القناع، ولم تصرح الروايات أنّ الخمار والقناع يستتر الشعر والعنق، واستعان صاحب الحدائق لإثبات سترهما للشعر والعنق بما يوحى إليه ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾^(٨٤) وتفسير هذه الآية بما أورده الطبرسي حيث قال: «أمرن بإلقاء المقانع على صدورهن تغطية لنحوهن، فقد قيل: أنهن كن يلقين مقانعهن على ظهورهن فتبدو صدورهن، وكفى عن الصدور بالجيوب لأنها ملبوسة عليها، وقيل أنهن أمرن بذلك ليسترن شعرهن وقرطهن وأعناقهن، قال ابن عباس: تغطي شعرها وصدورها وتراثبها وسوالفها»^(٨٥) وبذلك يثبت بأن الخمار الذي جاء في لسان الروايات يكون ساتراً للشعر والعنق^(٨٦)، فهذه استعانة بظاهر القرآن وتفسيره لتوضيح بعض الروايات.

٣- اختلف العلماء في معنى الإنفحة المستثنى من نجاسة الميتة، وذلك لاختلاف اللغويين في تعريف الإنفحة فبعضهم ذهب إلى أنه نفس كرش الحمل، أو الجدي ما لم يأكل فإذا أكل صار كرشاً^(٨٧).

وبعضهم ذهب إلى أنه ليس نفس الكرش من الحمل أو الجدي ما لم يأكل بل هو شيء يستخرج من بطن الجدي الرضيع أصفر فيُعصر في صوفة فيغلظ كالجبين^(٨٨).

واختار صاحب الحدائق المعنى الثاني تمسكاً برواية الشمالي حيث جاء فيها وصف الإمام الباقر عليه السلام للإنفحة بقوله «إن الإنفحة ليس لها عروق ولا فيها دم ولا لها عظم، إنما تخرج من بين فرث ودم» وذلك بعد أن وضح معنى الرواية من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ﴾^(٨٩) فكما أن اللبن من البقر يكون من ما بين فرث ودم فكذلك الإنفحة من الجدي بمقتضى رواية الشمالي، فإذا اتضح معنى الآية يتضح معنى الرواية، فتعرض لتفسير الآية، قال: «قال في مجمع البيان نقلاً عن ابن عباس: "إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثاً وأعلىه دماً وأوسطه لبناً فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، ويبقى الفرث، كما هو"^(٩٠).

ومقتضى ذلك أن اللبن الذي تشربه السخلة يصير بعد وصوله إلى الكرش إلى هذه الأقسام الثلاثة، ثالثها هو هذا الشيء الأصفر الذي ذكره أهل اللغة، وإن كان بعد رعيه العلف يضمحل ذلك ولا يصير كذلك، وإنما يبقى الفرث وهو الثقل - والدم خاصة^(٩١). وبذلك أثبت أن المراد من الإنفحة هو المعنى الثاني.

فيتضح من هذه النماذج أن صاحب الحدائق يعمل بظاهر القرآن فيما إذا لم تكن قرينة على الخلاف، بل قد يفسر بعض ما جاء مجملاً في الأحاديث بظواهر

بعض الآيات الكريمة.

المواامش:

- (١) الإخلاص: ١.
- (٢) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٣٩؛ الحدائق الناضرة، ج ١، ص ٢٧؛ أعيان الشيعة، ج ٨، ص ٢٩.
- (٣) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٤٠ - ٤٥٠؛ الحدائق الناضرة؛ الحدائق الناضرة، ج ١، ص ٢٧ - ٣٢.
- (٤) الأعراف: ١٨٧.
- (٥) لقمان: ٣٤.
- (٦) الأنعام: ١٥١، الإسراء: ٣٣.
- (٧) الإخلاص: ١.
- (٨) البقرة: ٤٣، ٨٣، ١١٠، وغيرها.
- (٩) آل عمران: ٩٧.
- (١٠) الأنعام: ١٤١.
- (١١) المعارج: ٢٤.
- (١٢) النساء: ٨٠.
- (١٣) الأحزاب: ٥٦.
- (١٤) الاحتجاج، ج ١، ص ٣٧٦ - ٣٧٧؛ بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ٤٥ - ٤٦؛ تفسير الصافي، ج ١، ص ٣١٩؛ التفسير الأصفى، ج ١، ص ١٣٩؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٣١٣؛ تفسير كنز الدقائق، ج ٢، ص ١٦.
- (١٥) الدرر النجفية، ج ٢.
- (١٦) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٥٢؛ الحدائق الناضرة، ص ٣٤.
- (١٧) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٥٣؛ الحدائق الناضرة، ص ٣٤.
- (١٨) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٥٢؛ الحدائق الناضرة، ج ١، ص ٣٤.

- (١٩) سورة محمد ﷺ: ٢٤.
- (٢٠) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.
- (٢١) الأنعام: ٣٨.
- (٢٢) النحل: ٣٤٧.
- (٢٣) المحاسن، ج ١، ص ٣٠٠؛ تفسير العياشي، ج ١، ص ١١، ١٢، ١٧ - ١٨؛ تفسير القمي، ج ١، ص ١٩؛ وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٩٢، أبواب صفات القاضي، ب ١٣، ح ٤١؛ بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١١٠، ٩٤، ٩١ - ١١١.
- (٢٤) الكافي، ج ٨، ص ٣١٣؛ وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٨٥، أبواب صفات القاضي، ب ١٣، ح ٢٥؛ بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ٢٣٨، و ج ٤٦، ص ٣٥٠، تفسير الصافي، ج ١، ص ٢٢.
- (٢٥) المحاسن، ج ١، ص ٣٦٨، ح ٣٥٦؛ وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٩١، أبواب صفات القاضي، ب ١٣، ح ٣٨.
- (٢٦) البقرة: ٢٦٠.
- (٢٧) التوبة: ٦٠.
- (٢٨) التوبة: ٢٥.
- (٢٩) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٤٧ - ٣٤٨.
- (٣٠) النساء: ٨٣.
- (٣١) تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٦٠؛ وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٧١، ب ١٢ من كتاب القضاء، ح ٥٦؛ بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٢٩٦، باب وجوب طاعتهم ح ٣٦.
- (٣٢) دعائم الإسلام، ج ١، ص ٢٤، والآية من سورة النساء: ٥٩، وانظر مناقشة صاحب الحقائق في الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٤٩.
- (٣٣) سورة محمد ﷺ: ٢٤.
- (٣٤) سورة محمد ﷺ: ٢٢ - ٢٥.
- (٣٥) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.
- (٣٦) النساء: ٨٢.

- (٣٧) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٤٧.
- (٣٨) النساء: ٤٣.
- (٣٩) الحدائق الناضرة، ج ١، ص ٣٩٥.
- (٤٠) عيس: ١٣ - ١٤.
- (٤١) البيئنة: ٢.
- (٤٢) الحدائق الناضرة: ج ٢، ص ٤٦.
- (٤٣) كتاب الموطأ لمالك، ج ١، ص ١١٩.
- (٤٤) المائة: ٦.
- (٤٥) الحدائق الناضرة، ج ٢، ص ١٢٩ - ١٣٠.
- (٤٦) الحدائق الناضرة، ج ٢، ص ٢٤٧.
- (٤٧) الحج: ٣٢.
- (٤٨) الحدائق الناضرة، ج ٣، ص ٤٧ - ٤٨.
- (٤٩) جواهر الكلام، ج ٣، ص ٤٧.
- (٥٠) اللمعات النيرة، للآخوند الخراساني، ص ٨٨.
- (٥١) مستند الشيعة للمحقق النراقي، ج ٢، ص ٢٨٧.
- (٥٢) النساء: ٤٣.
- (٥٣) المائة: ٦.
- (٥٤) الحدائق الناضرة، ج ٣، ص ٩٥.
- (٥٥) ذكرى الشيعة، أحكام الشريعة، ج ٢، ص ١٧٢؛ مسند الشيعة، ج ١٥٥.
- (٥٦) النساء: ٤٣، الحدائق الناضرة، ج ٤، ص ٣٥٤.
- (٥٧) البقرة: ٢٢٨.
- (٥٨) الحدائق الناضرة، ج ٣، ص ٢٦١ - ٢٦٢.
- (٥٩) مسالك الأفهام للشهيد الثاني، ج ٩، ص ١٩٤.
- (٦٠) زبدة الأحكام للمحقق الأردبيلي، ص ٥٩١.

- (٦١) الحبل المتين، ص ٥٢.
- (٦٢) الحج: ٧٨.
- (٦٣) المائدة: ٦.
- (٦٤) سورة البقرة: ٥٨١.
- (٦٥) البقرة: ١٩٥، الحدائق الناضرة، ج ٤، ص ٢٧٦.
- (٦٦) الطلاق: ٢.
- (٦٧) الحدائق الناضرة، ج ١٠، ص ٢٠.
- (٦٨) الأنعام: ١٤٥.
- (٦٩) الحدائق الناضرة، ج ٥، ص ٤٨-٤٩.
- (٧٠) التوبة: ٢٨.
- (٧١) الحدائق الناضرة، ج ٥، ص ١٦٤.
- (٧٢) التوبة: ٣٠-٣١، الحدائق الناضرة، ج ٥، ص ١٦٥-١٦٦.
- (٧٣) الحج: ٢٥.
- (٧٤) الحدائق الناضرة، ج ١٧، ص ٣٥٠-٣٥١.
- (٧٥) الميسوط، ج ١، ص ٣٨٤.
- (٧٦) المهذب للقاضي ابن البراج، ج ١، ص ٢٧٣.
- (٧٧) النساء: ١٠.
- (٧٨) الحدائق الناضرة، ج ١٨، ص ٣٤٣.
- (٧٩) النساء: ٦.
- (٨٠) الحدائق الناضرة، ج ٢٠، ص ٣٦٢ و ص ٣٧٢.
- (٨١) التمتع: التقلب فيه، وفي الحديث فتمتعك فيه أي تمرغ في ترابه. لسان العرب، ج ١٠، ص ٤٩٠.
- (٨٢) الكافي، ج ٣، ص ٦٢؛ تهذيب الأحكام، ج ١، ص ٢٠٧؛ الاستبصار، ج ١، ص ١٧٠.
- (٨٣) البقرة: ٦٧. الحدائق الناضرة، ج ٤، ص ٣١٩-٣٢٠.

- (٨٤) النور: ٣١.
- (٨٥) مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٤١ - ٢٤٢.
- (٨٦) الحدائق الناضرة، ج ٧، ص ١٣.
- (٨٧) الصحاح للجوهري، ج ١، ص ٤١٣؛ لسان العرب، ج ٢، ص ٦٤٢؛ تاج العروس، ج ٤، ص ٢٣٨.
- (٨٨) كتاب العين، ج ٣، ص ٢٤٩؛ القاموس المحيط، ج ١، ص ٢٥٣.
- (٨٩) النحل: ٦٦.
- (٩٠) مجمع البيان، ج ٦، ص ١٧٤.
- (٩١) الحدائق الناضرة، ج ٥، ص ٨٧.

مسألتان في القضاء عن الميت

علي فاضل الصدي

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم على محمد وآله.

(١) أجزاء الصدقة عما فات الميت من الصوم

المشهور وجوب قضاء ما فات الميت من الصوم على وليه، بل عن الخلاف والسرائر الإجماع عليه^(١)، وعن المنتهى نسبته إلى علمائنا^(٢). ولم يحك فيه خلاف إلا من ابن أبي عقيل فأوجب التصدق عنه، وادعى تواتر الاخبار به، ونسب القول بقضاء الصوم إلى الشذوذ^(٣). ثم إن ظاهر المعظم عدم التفرقة بين ما إذا ترك الميت ما يمكن التصدق به عنه وعدمه، كما في الجواهر^(٤)، وعن السرائر: الإجماع منعقد من أصحابنا على ذلك^(٥)، وعن السيد المرتضى فتدبر اشتراط عدم تركه ما يمكن التصدق به^(٦). والمتبع روايات الباب، وهي على طوائف:

الطائفة الأولى: ما دل على لزوم القضاء عنه، وهي روايات كثيرة مستفيضة، بل ادعى قربها من التواتر^(٧)، ومن تلك الروايات:

١- صحیحة مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ أَحَدِهِمَا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ رَجُلٍ أَدْرَكَهُ رَمَضَانٌ، وَهُوَ مَرِيضٌ، فَتَوَفِّيَ قَبْلَ أَنْ يَبْرَأَ، قَالَ: لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَكِنْ يُقْضَى عَنِ الَّذِي يَبْرَأُ ثُمَّ يَمُوتُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ^(٨).

٢- ومكاتبة الصَّفَّارِ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى الْأَخِيرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلٌ مَاتَ وَعَلَيْهِ قَضَاءٌ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، وَلَهُ وَلِيَانٌ، هَلْ يَجُوزُ لَهُمَا أَنْ يَقْضِيَا عَنْهُ جَمِيعاً خَمْسَةَ أَيَّامٍ أَحَدُ الْوَلِيِّينَ وَخَمْسَةَ أَيَّامٍ الْآخَرُ؟ فَوَقَّعَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: يَقْضِي عَنْهُ أَكْبَرُ وَلِيِّهِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ وَلِأَيِّ وَوَلَاءٍ إِنْ

شَاءَ اللَّهُ^(٩).

٣- وصحيحة أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألتُهُ عن امرأةٍ مَرَضَتْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ أَوْ طَمِثَتْ أَوْ سَافَرَتْ فَمَاتَتْ قَبْلَ خُرُوجِ شَهْرِ رَمَضَانَ، هَلْ يُقْضَى عَنْهَا؟ قَالَ: أَمَّا الطَّمْثُ وَالْمَرَضُ فَلَا، وَأَمَّا السَّفَرُ فَنَعَمْ^(١٠).

٤- وصحيحة حفص بن البختري عن أبي عبد الله عليه السلام في الرجل يموت وَعَلَيْهِ صَلَاةٌ أَوْ صِيَامٌ، قَالَ: يُقْضَى عَنْهُ أَوْلَى النَّاسِ بِمِيرَاثِهِ، قُلْتُ: فَإِنْ كَانَ أَوْلَى النَّاسِ بِهِ امْرَأَةً، فَقَالَ: لَا إِلَّا الرَّجَالَ^(١١).

٥- وموثقة أبي بصير قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن رجلٍ سَافَرَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَهُ، قَالَ: يُقْضِيهِ أَفْضَلُ أَهْلِ بَيْتِهِ^(١٢). وغيرها.

الطائفة الثانية: ما دلَّ على لزوم الصدقة عن الميت في الجملة، وهي رواية

واحدة، وليس كما حكى عن ابن أبي عقيل من دعواه تواتر الأخبار به، وهي صحيحة أبي مريم الأنصاري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إِذَا صَامَ الرَّجُلُ شَيْئًا مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ مَرِيضًا حَتَّى مَاتَ فَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ (قضاء)، وَإِنْ صَحَّ ثُمَّ مَرَضَ ثُمَّ مَاتَ وَكَانَ لَهُ مَالٌ تُصَدَّقُ عَنْهُ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ بِمَدٍّ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ صَامَ (تصدق) عَنْهُ وَلِيهِ^(١٣).

الطائفة الثالثة: ما دلَّ على التخيير بين الصوم والصدقة عن الميت، وهي ما رواه

الصدوق في الفقيه بقوله: وَرَوَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ بَزِيْعٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرِ الثَّانِي عليه السلام قَالَ: قُلْتُ لَهُ: رَجُلٌ مَاتَ وَعَلَيْهِ صَوْمٌ، يُصَامُ عَنْهُ أَوْ يُتَصَدَّقُ؟ قَالَ: يُتَصَدَّقُ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ^(١٤). ولم يخرج الشيخ الحر عليه السلام هذه الرواية في ضمن روايات المقام، أعني في الباب الثالث والعشرين من أبواب أحكام صوم شهر رمضان، ولا في

غيره من الأبواب.

أقول: بعد عدم نهوض قول ابن أبي عقيل عليه السلام بتعيين الصدقة عن الميت، وإن دل عليه ظاهر صحيحة أبي مريم؛ لما عرفت من استفاضة الأخبار بكفاية الصوم عنه، وبعد عدم تامة قول السيد عليه السلام باشتراط عدم تركه مالاً في وجوب الصوم عنه؛ نظراً لاختلاف نقل ذيل الصحيحة كما عرفت، ولا مرجح لأحد النقلين على الآخر، وإن تفرّد الشيخ عليه السلام بأحد النقلين؛ إذ أن ما نقله قد رواه بسند آخر يختلف عن سند نقلي الكليني والصدوق، فلا محل لترجيح نقليهما للصحيحة على نقل الشيخ، على أن ترجيح نقليهما أو نقل أحدهما في غير هذا الموضع لمجرد الأضبطية غير بين؛ إذ أن الأضبطية وإن كانت مورثة للظن، إلا أنها بمجرد ما ليست حجة معتبرة. ثم إنه لو لم يختلف نقل الصحيحة، وكان بهذا النحو (وإن لم يكن له مال صام عنه وليه) فلا يمكن الجمع بينه وبين المستفيض الدال على تعيين الصوم بأن يقيد إطلاقه ويحمل على فرض عدم التمكن من التصدق عن الميت؛ لأنه حمل على الفرد النادر جداً، لبعد فرض ميت لا مال له يتصدق به عنه، ولو لم يكن إلا ثياب بدنه. نعم بعد كل هذا، وبعد وهن المصير إلى الجمع الواوي بينهما؛ إذ لم يعرف قائل به، وإن كان ذلك مقتضى الصناعة، حيث إننا لا نقطع بكون المطلوب واحداً، فالمتجه هو حمل الطائفة الأولى المستفيضة الدالة بإطلاقها على تعيين القضاء عن الميت (حملها) على ذكر أحد فردي الوجوب التخيري؛ وذلك لدلالة معتبرة ابن بزيع على التخير بين الصوم والتصديق عن الميت فيما إذا كان عليه صوم واجب، والنتيجة هي كون الولي مخيراً بين القضاء والصدقة عن ميتته، ولا يرد عليه ما سبق على الجمع بين المستفيضة وصحيحة أبي مريم بالواو؛ فإن التخير قول للشيخ عليه السلام في المبسوط^(١٥)، والاقتصاد^(١٦)، والمجمل^(١٧).

وأما قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ في صحيحة أبي مريم (وَإِنْ صَحَّ ثُمَّ مَرَضَ ثُمَّ مَاتَ وَكَانَ لَهُ مَالٌ تُصَدَّقَ عَنْهُ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ بِمُدٍّ) - وهذا المقطع غير معارض - فلا يمكن الجمع بينه وبين المستفيضة، وإن كان أخصَّ منها، بحملها على فرض ما إذا لم يكن للميت مال؛ إذ أنه حمل للإطلاقات على الفرد النادر، وهو مستهجنٌ عرفاً. ثم إنه لا تعارض بين هذا المقطع من صحيحة أبي مريم وبين معتبرة ابن بزيع فيما يخصُّ الصدقة عنه؛ إذ أن منظور المقطع المذكور الصدقة عن الميت من ماله، بينما ظاهر المعتبرة كون الصدقة لا من ماله.

وأما ما ذكره أحد الأعظم تَدْتُّ من أنه لم يفرض في المعتبرة أن القاضي عن الميت وليه أو ولده، كي يكون السؤال عمّا يجب عليه، بل استظهر تَدْتُّ منها أن الميت رجل أجنبي، فالسؤال عن أمر استحبابي، وهو التبرُّع عنه وأن أياً من التبرِّعين والعبادتين المستحبَّتين أفضل، هل الصيام عنه أو الصدقة؟^(١٨).

فيردُّ الشق الأول من كلامه إطلاق المعتبرة، بل أوضح أفراد هذا الإطلاق هو وليُّ الميت، فهو المعنيُّ بالصوم عنه. وأما استظهار كون الميت أجنبيّاً، فالسؤال وإن كان يشي بذلك، ولكنه لا يتجاوز الإشعار، ولا يصل إلى حدِّ الظهور، فلا يمكن أن يستفاد من المعتبرة أن السؤال عن أمر استحبابي، بل ظاهر السؤال فيها نظرها إلى مسألة تفريغ ذمّة الميت لا إلى أمر الإحسان إليه، بقرينة قوله: (ولم يصم).

ثم إنه من المحتمل قريباً كون منشأ السؤال عن أجزاء الصدقة عن الميت المشغول الذمّة بالصوم الواجب هو معروفيّة الأجزاء لدى العامّة^(١٩)، فالسؤال عنه لا عن التبرُّع.

وأما ما أورده تَدْتُّ على سندها من أن طريق الصدوق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى ابن بزيع وإن كان صحيحاً، إلا أنه لا يعمُّ مطلق الرواية عنه ولو لم يسندها إليه، كما هو الحال في

هذه الرواية؛ إذ أوردها الصدوق رحمته الله بقوله: (وَرُوِيَ عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ بَزِيْعٍ)، وقد علل رحمته الله إيراده بقوله رحمته الله: (إِذْ لَا يَكَادُ يَسَاعِدُهُ التَّعْبِيرُ فِي المَشِيخَةِ بِقَوْلِهِ: فَقَدْ رُوِيَتْهُ عَنْ فُلَانٍ كَمَا لَا يَخْفَى، فَهُوَ مَلْحَقٌ بِالمُرْسَلِ)، فالتقدير المتيقن إرادته من قوله رحمته الله في مشيخة الفقيه: (وما كان فيه عن محمد بن إسماعيل بن بزيع فقد روِيته عن.. هو ما يرويه بنفسه عنه، بأن يقول مثلاً: (روى ابن بزيع) ^(٢٠)).

فيرد عليه بأن التعبير بـ (فقد روِيته عن فلان) أجنبي عما نحن بصدده، كما لا يخفى، وأن قوله رحمته الله: (وما كان فيه عن محمد بن إسماعيل بن بزيع) شامل لمطلق الرواية عنه، ولو لم يسندها إليه. ثم إن في بعض نسخ الفقيه: (وروى محمد بن إسماعيل بن بزيع..) ^(٢١).

فالمتحصل إن رواية ابن بزيع تامة سنداً ودلالة على التخيير بين الصوم والصدقة عن الميت إذا كان عليه صوم، وفاقاً للشيخ رحمته الله في جملة من كتبه، كما عرفت، ولأحد أعلام العصر رحمته الله ^(٢٢).

(٢) في تحديد ولي الميت الذي يقضي عنه صلاته وصومه

المشهور شهرة عظيمة -على ما في بعض الكلمات ^(٢٣)- أن المراد به الولد الأكبر، ولكن الخلاف قائم رغم عظم الشهرة، وعلى كل تقدير فالمرجع هو روايات الباب، وهي كالآتي:-

الأولى: صحيحة حفص بن البختري عن أبي عبد الله رحمته الله في الرجل يموت وعليه صلاة أو صيام، قال: يقضي عنه أولى الناس بميراثه، قلت: فإن كان أولى الناس به امرأة، فقال: لا إلا الرجال ^(٢٤).

الثانية: مكاتبة الصفار رحمته الله - التي رواها المحمّدون الثلاثة (قدّست أسرارهم) - قال

كَتَبْتُ إِلَى الْأَخِيرِ عَلَيْهِ رَجُلٌ مَاتَ وَعَلَيْهِ قَضَاءٌ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، وَلَهُ وَلِيَّانِ، هَلْ يَجُوزُ لَهُمَا أَنْ يَقْضِيَا عَنْهُ جَمِيعاً خَمْسَةَ أَيَّامٍ أَحَدُ الْوَلِيِّينَ وَخَمْسَةَ أَيَّامٍ الْآخَرَ؟ فَوَقَعَ عَلَيْهِ: يَقْضِي عَنْهُ أَكْبَرُ وَلِيِّهِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ وَلِأَخِي إِذَا شَاءَ اللَّهُ^(٢٥). قَالَ الصَّدُوقُ: وَهَذَا التَّوْقِيعُ عِنْدِي مَعَ تَوْقِيعَاتِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الصَّفَّارِ بِخَطِّهِ عَلَيْهِ^(٢٦).

فبضم تلك الصحيحة التي مفادها أنه يقضي عنه أولى الرجال بميراثه إلى هذه المكاتبة نستخلص هذه النتيجة، وهي أن الذي يجب عليه القضاء عن الميت ليس مطلق الولي، وإنما هو خصوص الولي الأكبر، وفي جميع طبقات الميراث؛ لظهور صدر الصحيحة في أن الذي يجب عليه قضاء ما فات الميت هو الأولى به ميراثاً، وهي ظاهرة أيضاً في أن الأولى به ميراثاً من يرثه مطلقاً بلا فرق بين كونه ولداً أو أباً أو أماً أو غير ذلك، سيما عند ضم الذيل (لا إلا الرجال)، نعم بضم هذا الذيل إلى الصدر تخرج المرأة فيما إذا كانت هي ولي الميت.

وأما القول بأن خصوص الولد الأكبر هو الولي؛ لأنه الأولى بميراث الميت من جميع البشر، حتى ممن هو في طبقتة في الإرث، كالأبوين؛ فإن لكل واحد منهما السدس، وكالبنات؛ لأن للذكر مثل حظ الأنثيين، وكسائر الأولاد الذكور؛ لمكان اختصاص الأكبر بالحبوة، بناءً على ما هو الصحيح من عدم احتسابها من الإرث، فهو الأوفر نصيباً من الكل، ولأجله كان هو الأولى بالميراث من جميع الناس بتمام معنى الكلمة^(٢٧). كما عن السيد الخوئي تَدَبُّرٌ فِي الْمُسْتَنْد.

ففيه أولاً: أن الأولى بالميراث أعم من الولد الأكبر؛ إذ المراد به من له الميراث مطلقاً على ما هو ظاهر الصحيحة كما تقدم، فمع عدمه وعدم مطلق البنين والبنات والأبوين يكون الأولى به هم الطبقة الثانية، خصوصاً إذا لاحظنا جواب الذيل (لا إلا الرجال)، فإنه لو كان منحصرًا فيه لقال مثلاً: (لا إلا الرجل)، ويؤيد ذلك ما عن

أحد الأعظم تَنْتُشُ من أن إرادة الولد الأكبر من التعبير بالأولى ميراثاً عدولاً عن التعبير بالولد الأكبر بلا وجه ظاهر^(٢٨).

وأما ثانياً: فالولد الكبر على فرض تسليم كونه أولى من الأبوين والبنات - على ما مرّ - لكنّه ليس أولى من سائر الأولاد بالميراث، وإنما هو أولى منهم بالحبوة، وهي خارجة عن الميراث، كما اعترف بذلك نفس السيّد الخوئي تَنْتُشُ، نعم الظاهر أن المراد بالميراث الميراث العرفي، وهو التركة، لا الميراث الاصطلاحي، وبموجب ذلك سيكون الولد الأكبر هو الأولى والأوفر ميراثاً من سائر الأولاد، هذا وقد يكون نصيب الأبوين أوفر من نصيب الولد الأكبر وإن أخذ الحبوة، وذلك في فرض كون الأولاد كثيرين، فإن لكل من الأبوين أو الأب خاصّة السدس موفراً، ويقتسم الأولاد الباقي للذكر مثل حظ الأنثيين، ولا يكون نصيب الولد الأكبر مع الحبوة بقدر السدس، فيكون الأب أولى بالميراث منه؛ لكونه الأوفر ميراثاً.

الرواية الثالثة: موثقة أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل سافر في شهر رمضان، فأذركه الموت قبل أن يقضيه، قال: يقضيه أفضل أهل بيته^(٢٩).

وهي غير قابلة للحمل على الأفضل ميراثاً بلحاظ الحباء؛ إذ هو خلاف الظاهر بلا قرينة عليه^(٣٠)، ولكن يمكن أن يكون المراد منها مطلق الأفضل في الكمالات المعنوية، فلا بدّ من حمله على رجحان اختياره للقضاء؛ لأنّ عباداته أقرب إلى القبول من غيره^(٣١)، وإنما يتحتم حمله على رجحان اختيار الأفضل معنوياً للقضاء؛ لأنّنا لا نحتمل أن يتعيّن الأفضل معنوياً للقضاء عن الميت، فتغدو الموثقة أجنبية عمّا نحن بصده من الحكم الإلزامي بقضاء صلاة وصوم الميت في عهدة بعض أوليائه، على أن النسبة بين الأفضل معنوياً وبين الولد الأكبر هي العموم من وجه، خصوصاً

وأن مورد الموثقة من لم يتنجز عليه وجوب القضاء في حياته.
وأما بقية روايات الباب فكلها ضعاف إما بالإرسال أو بضعف أو مجهولية من في طرقها.

فالمتحصّل أن الذي يجب عليه قضاء ما فات الميت من صلاته وصومه هو أولى الناس بميراثه من الذكور، فإن تعدد الأولى بميراثه من الذكور فالذي يلزمه القضاء هو أكبرهم سنًا، ولا يختصّ بالولد الأكبر، ولا يختصّ الميت الذي يجب القضاء عنه بالأبوين.

وقد فرغت من كتابة هذه السطور في أحد أيام سنة ١٤١٤هـ، وقد اطلعت في ٨ من ربيع المولود سنة ١٤٢٦هـ على من يتبني نفس هذه النتيجة، قال الشيخ علي بن الشيخ باقر بن الشيخ محمد حسن الجواهري تَدُّنُّ في تعليقه على قول السيد تَدُّنُّ في العروة: "والمراد به الولد الأكبر، فلا يجب على البنت وإن لم يكن هناك ولد ذكر، ولا على غير الأكبر من الذكور، ولا على غير الولد من الأب والأخ والعم والخال ونحوهم من الأقارب، وإن كان الأحوط مع فقد الولد الأكبر قضاء المذكورين على ترتيب الطبقات وأحوط منه قضاء الأكبر فالأكبر من الذكور، ثم الإناث في كل طبقة حتى الزوجين والمعتق وضامن الجريرة" قال:- عند قوله: (وإن كان الأحوط مع فقد الولد الأكبر قضاء المذكورين على ترتيب الطبقات)- "بل لا يخلو عن قوة في الذكور" (٣٢).

وقال الشيخ الأمين تَدُّنُّ: "المسألة ٩٧٧: ولي الميت الذي يجب عليه قضاء ما فات من صلاته هو أولى الناس بميراثه من الذكور، فإذا تعدد الذكور الذين هم أولى بالميت وبميراثه، فالولي هو أكبرهم سنًا، ولا يختص بالولد الأكبر على الأقوى، ولا يختص الميت الذي يجب القضاء عنه بالأبوين." (٣٣).

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على محمد وآله.

المواشم:

- (١) الخلاف ٢: ٢٠٨، السرائر ١: ٣٩٥.
- (٢) منتهى المطلب ٢: ٦٠٤.
- (٣) حكاة عنه في المختلف: ٢٤١.
- (٤) جواهر الكلام ١٧: ٣٩.
- (٥) السرائر ١: ٤٠٨ - ٤٠٩.
- (٦) الانتصار: ٧١.
- (٧) رياض المسائل ٥: ٤٣٨، مستمسك العروة الوثقى ٨: ٥٠٨.
- (٨) وسائل الشيعة ١٠: ٣٢٩ - ٣٣٠ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ٢.
- (٩) وسائل الشيعة ١٠: ٣٣٠ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ٣.
- (١٠) وسائل الشيعة ١٠: ٣٣٠ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ٤.
- (١١) وسائل الشيعة ١٠: ٣٣١ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ٥.
- (١٢) وسائل الشيعة ١٠: ٣٣٢ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ١١.
- (١٣) وسائل الشيعة ١٠: ٣٣٢ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ٧.
- (١٤) من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٧٦ ح ٤٣٢٢، وعنه في الوافي ١١: ٣٤٩ - ٣٥٠ ب ٥٥ من مات وفاته صيام ح ١٠، جامع أحاديث الشيعة ٩: ٣٤٨ ب ٢٤ من أبواب من يجب عليه الصوم.. ح ١٢.
- (١٥) المبسوط ١: ٢٨٦.
- (١٦) الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد: ٢٩٤.
- (١٧) الجمل والعقود: ٢٢٠.
- (١٨) مستند العروة الوثقى (ك الصوم) = موسوعة الإمام الخوئي تفتيش ٢٢: ٢٠٧.
- (١٩) قال ابن قدامة في المغني (٣: ٨٢): "(الحال الثاني) أن يموت بعد إمكان القضاء فالواجب أن يُطعم عنه لكل يوم مسكين، وهذا قول أكثر أهل العلم، روي ذلك عن عائشة وابن عباس، وبه

- قال مالك والليث والأوزاعي والثوري والشافعي والخزرجي وابن علية وأبو عبيد في الصحيح عنهم"، وفي فقه السنة للشيخ سيد سابق (١: ٤٧١): "فإن مات وعليه صيام وكان قد تمكّن من صيامه قبل موته فقد اختلف الفقهاء في حكمه، فذهب جمهور العلماء، منهم أبو حنيفة ومالك والمشهور عن الشافعي إلى أن وليه لا يصوم عنه ويطعم عنه مدّاً عن كل يوم".
- (٢٠) مستند العروة الوثقى (ك الصوم) = موسوعة الإمام الخوئي تدوّن ٢٢: ٢٠٦.
- (٢١) جامع أحاديث الشيعة ٩: ٣٤٨ ب ٢٤ من أبواب من يجب عليه الصوم.. ح ١٢، وهي التي اعتمدها، وجعل الأخرى نسخة.
- (٢٢) وهو سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني دام ظلّه، لاحظ تعليقه على العروة ٢: ٤٦٦ - ٤٦٧ ح ٢٣٨.
- (٢٣) مستند العروة الوثقى (ك الصوم) = موسوعة الإمام الخوئي ٢٢: ٢١٥.
- (٢٤) وسائل الشيعة ١٠: ٣٣٠ - ٣٣١ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ٥.
- (٢٥) وسائل الشيعة ١٠: ٣٣٠ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ٣.
- (٢٦) من لا يحضره الفقيه ٢: ١٥٤.
- (٢٧) مستند العروة الوثقى (ك الصوم) = موسوعة الإمام الخوئي ٢٢: ٢١٥.
- (٢٨) السيد الحكيم تدوّن في مستمسك العروة الوثقى ٧: ١٤٣.
- (٢٩) وسائل الشيعة ١٠: ٣٣٢ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ١١.
- (٣٠) مستمسك العروة الوثقى ٧: ١٤٣.
- (٣١) مهذب الأحكام ٧: ٣٧١.
- (٣٢) العروة الوثقى ٣: ١٠٢ - طبعة جماعة المدرسين مع تعليقات جمع من الأعلام (قدّست أسرارهم) -.
- (٣٣) كلمة التقوى ١: ٥٥٦.

تحريف... دار السيدة رقية عليها السلام

للقرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. وفي الحديث الشريف: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

بداية نشأة الدار ومراحل تطورها

دار السيدة رقية عليها السلام للقرآن الكريم هي دار أنشأت لتعليم القرآن وعلومه من تجويد وترتيل وحفظ، مع معرفة القراءات القرآنية السبعة المشهورة. وكذلك نشر الثقافة القرآنية على صعيد الفرد والأسرة وكذلك تخريج أساتذة لهم المكانة المرموقة في تعليم وتدرّيس وحفظ القرآن. وقد تسمّت الدار باسم صغيرة الحسين السيدة رقية عليها السلام؛ لأنّ بدايات الدار كانت لصغار الجالية حيث كانوا يخرجون في مواكب العزاء، ثم بعد ذلك ضمت طلبة العلم من الجالية المقيمين في الجمهورية الإسلامية، ثم امتدت الفكرة لتأسيس دار تحتضن هؤلاء النشء من أبناء الجالية وغيرهم لتربيتهم وتعليمهم مفاهيم القرآن وعلومه فكانت النتيجة المرجوة والثمرة الكريمة لهذه الفكرة هي نشوء دار السيدة رقية عليها السلام للقرآن الكريم حيث كانت الجهود المنشودة تتوالى لتأسيس الدار في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة لسنة ١٤٢٧ هـ الموافق ليوم عيد الغدير الأغر.

السياسة العامّة

تنتهج الدار في نشاطاتها السياسة التالية:

أولاً: الالتزام بمبادئ القرآن الكريم وأحكامه وتعاليمه وآدابه.
ثانياً: اعتماد منهج أهل البيت عليهم السلام في طرح علوم القرآن ومفاهيمه.
ثالثاً: التعاون والاستفادة من الخبرات والتجارب في انتقاء المعلومة.

أهداف الدار

تبنت دار السيدة رقية عليها السلام للقرآن الكريم من بدء نشوئها على أهداف وهي الاهتمام بإعداد جيل قرآني لكل المستويات سواء طلاب علم أم غيرهم خصوصاً بالأطفال والنشء الصغار وتربيتهم تربية إسلامية قرآنية تقوم على حب محمد وآله عليهم السلام لأنهم جيل المستقبل وبهم يسير الركب لكل الأمم. وهذا الشرط الأساس الذي حث أبناء الجالية لربط أبنائهم بهذه الدار الكريمة مما أعطاهم حافزاً كبيراً لاستمداد الخبرات من الأساتذة والحفاظ الكبار على الصعيد العالمي.

وبذلك ساهمت الدار في تعريف طلابها كيفية القراءة الصحيحة للقرآن الكريم. وبهذه المساهمة الفاعلة من الدار قد أعطت لأبناء الجالية أن لأبنائهم مستقبلاً زاهراً في متابعة التعليم والحفظ وأن يكونوا أساتذة يُحتذى بهم على الصعيد الديني والدينيوي بحيث يكونوا قراءً ومجودين وحفاظاً.

إنجازات الدار

إن أهم الإنجازات التي حققتها دار السيدة رقية عليها السلام على قصر الفترة التي تأسست فيها فهي على عدة نقاط:

أ- تخريج الأساتذة: قد ساهمت دار السيدة رقية عليها السلام في تخريج ثلثة من الطلاب القراء حيث كانوا النواة الأولى للدار وهم الآن أساتذة كبار في تعليم القرآن وقد

شاركوا مشاركة فاعلة في فتح دورات قرآنية في البلاد بالخصوص وكذلك لهم مشاركات في العراق والكويت.

ب- المشاركة في المسابقات القرآنية: حيث كان للدار النصيب الأوفر من المشاركات القرآنية ونيل الجوائز المتقدمة في هذه المسابقات وكان آخرها في المسابقة التي نظمتها جامعة المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ العالمية وبمشاركة أكثر من أربعين دولة، ففي شؤون الناشئين في التلاوة والحفظ قد نال أشبال الدار الجوائز الأولى في هذه المسابقة.

كذلك حازت الدار على المركز الثالث في نفس المسابقة بإصدارها حلقات تعليمية في أساليب حفظ القرآن الكريم تحت إشراف الأستاذ الشيخ مصطفى الطائي على شكل قرص فلزي علماً أن بعض القنوات الفضائية عرضت هذه الحلقات ونالت إعجاب المشاهدين.

وإذ لا بد لكل فضل من شكر فإن دار السيدة رقية عَلَيْهَا السَّلَام للقرآن الكريم - بعد شكر الله تَعَالَى - تهدي بالغ الشكر والامتنان إلى سماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ مهدي مهر نائب رئيس جامعة المصطفى العالمية على ما قدمه ويقدمه من تذليل الصعاب لطلاب الدار وإداريها.

وكذلك جزيل الشكر والعرفان إلى سماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ الشاكري رئيس قسم العوائل والطلاب في جامعة المصطفى العالمية والعضو الاستشاري في دار السيدة رقية عَلَيْهَا السَّلَام والذي ببركته وجهوده ورعايته الخاصة وصلت الدار إلى ما هي عليه ومن تلك الرعاية ما تم الاتفاق عليه بتصديق الوثائق والشهادات التي تصدر عن الدار من قبل جامعة المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ العالمية قسم العوائل والطلاب، وغيرها من الأمور التي تم الاتفاق عليها، كما لا ننسى العضو الآخر في

الهيئة الاستشارية صاحب الأيدي البيضاء القارئ والحكم الدولي الحاج فلاح كسمائي.

وكذلك نشكر الأساتذة والحفاظ على ما بذلوه من وقت وجهد لارتقاء الطلاب بالمستوى المتميز على الصعيد القرآني.

ج - كتاب حلية القرآن الكريم: إن أهم إنجازات الدار من حيث النشر فقد قامت الدار بطباعة كتاب حلية القرآن الكريم الذي يعدّ من الكتب الدراسية والتعليمية وقد نال إعجاب كثير من الأساتذة والقراء.

وقد انتخب الكتاب للتدريس لبعض المناهج الدراسية، لأنه قد كتب بأسلوب سهل وسلس مع تطبيق لكثير من مواده، وخاصة عند عرض الكتاب للمقامات القرآنية.

د - جلب ثلة مؤمنة مهتمة بالقرآن الكريم: حيث قامت الدار بالتنسيق مع الإخوة العاملين في البلاد بجلب ثلة مهتمة بالقرآن الكريم وعلومه وخاصة من منطقة الأحساء وكان هذا الحدث الكبير الذي تنظمه الدار حيث قدمت لهم الدار أحسن الأساتذة في التجويد والترتيل مع إجراء الدروس المكثفة والمتميزة مع النشاطات الترفيهية والخدمية التي قدمتها لهم.

نشاطات الدار

دار السيدة رقية عليها السلام لها عدة نشاطات وعلى أكثر من صعيد، فمنها:

١- دروس في الحفظ والتجويد والتلاوة والقراءات؛ وذلك اعتماداً على أمهر الأساتذة الدوليين.

٢- إعداد مناهج دراسية في أساليب الحفظ والتجويد والمقامات (الصوت

واللحن) بإشراف لجنة مختصة من قبل أساتذة دوليين.

٣- إقامة دورات تأهيلية لإعداد المعلمين للقرآن الكريم؛ وذلك بتدريسهم على فن التدريس وكيفية التعامل مع الطلاب على اختلاف أعمارهم ومستوى استيعابهم، وذلك في عدة مجالات:

أ- التجويد (المبسط - المتوسط - الاستدلالي).

ب- المقامات (الصوت - اللحن).

ج- تاريخ القراءات.

د- القراءات السبع.

هـ- أساليب الحفظ.

٤- إقامة الأمسيات والجلسات القرآنية والمناسبات المهمة كحفل الغدير الذي تتشرف الدار بإقامته سنوياً؛ والذي يحضره ثلثة من العلماء والمهتمين بالجانب القرآني.

٥- دورات مكثفة في قم والبلاد والتي زادت على ١٥ دورة.

٦- تأسيس فرقة للتواشيح الدينية.

٧- إنشاء موقع الكتروني متخصص في القرآن الكريم بالإضافة إلى عرض نشاطات الدار.

الخطط المستقبلية

١- إن دار السيدة رقية عليها السلام للقرآن تأخذ بكل ما هو مثمر لتطوير حركتها التعليمية في علوم القرآن وفنون قراءته، فهي تطور عملها من خلال أحدث العلوم التقنية للحفظ وغيره وتطمح لما يسهل للطالب الراحة في ممارسته للقراءة والتجويد.

- ٢- دراسة القرآن الكريم بقراءاته المشهورة بإشراف أساتذة لهم الباع الطويل في هذه الدراسة وأخذ الثمرة المرجوة لدراسة تلك القراءات.
- ٣- تمكين بلادنا بجعلها ذات اكتفاء ذاتي لأساتذة القرآن الكريم على جميع المستويات.
- ٤- إيجاد دروس مكثفة في علم التفسير بجميع نواحيه.
- ٥- إعداد دروس خاصة لذوي الاحتياجات الخاصة (الصم والبكم).
- وختاماً نشكر الله على هذه النعمة التي أنعم علينا بأن نكون ممن تشرف بخدمة القرآن الكريم.

دار السيدة رقية عليها السلام



- General Supervisor &
Executive Manager:
Abdulla Ali Al daqaq
- Editor in Chief:
Aziz Hassan Salman
- Managing Editor:
Abdulraoof Hassan Alrabia
- Publishing Committee:
Ghazi Abdulhassan
hussain ali abu rwais
mohammed ali khatam



Resalat Alqalam

Islamic, Enlightening & Comprehensive

A Periodical Magazine Issued by the
Bahraini Students
of the Educational Hawza the
Holy City of Qom